مقارنة الأديان

(٤)

أديان الهند الكبرى

الهندوسية . الجينية . البوذية

مع ملحق عن "قضية الألوهية" كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة

والحائز لوسام الجمهورية "وسام العلوم والفنون" من الطبقة الأولى



ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

مقارنة الأديان

٤

أديان الهند الكبرى

الهندوسية • الجينية • البوذية

مع ملحق عن «قضية الألوهية»
كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان

للدكتور
أحمد شلبى
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والحائز لوسام الجمهورية، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى

الطبعة الحادية عشرة ١٩٩٩ مع تعديلات وإضافات قيمة



مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى بالقاهرة



مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى - القاهرة

ت: ٢٩١٠٩٩٤ - ٢٩٥٦٣٧١ /

فاكس: ٢٩١٠٩٩٤

برقيا: نهضابوك

ص.ب: ٢١٧٢

رقم الايداع: ١٧٠٥ لسنة ١٩٨١

الطبعة الأولى ١٩٩٨

مطبعة الإسراء ت: ٥٦٣٨٢٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه ومن اتبعه

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الإسلامى كله، من مطلع الإسلام حتى الآن، مع دراسة الجوانب الحضارية التى حققتها الدول الإسلامية عبر التاريخ. (الطبعة الرابعة عشرة).

الجــزء الأول :	السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين.
الجـزء الثـانى :	الدولة الأموية وإنصاف تاريخها.
الجـزء الثـالث :	الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الأول.
الجـزء الرابع :	الأندلس الإسلامية، وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا - المغرب- الجزائر - تونس - ليبيا من مطلع الإسلام حتى الآن.
الجـزء الخـامس :	تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن - الحروب الصليبية - الامبراطورية العثمانية منذ ظهورها حتى الآن - الأقليات الإسلامية في أوروبا والولايات المتحدة.
الجـزء السـادس :	الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن : موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالى - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتى - جزر القمر - ارتيريا.
الجـزء السـابع :	دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن : المملكة العربية السعودية - اليمن - سلطنة عمان - دولة الإمارات العربية - قطر - البحرين - الكويت - ثم العراق (أحداث العراق والكويت : ١٩٩٠ - ١٩٩١).
الجـزء الثـامن :	الدول الإسلامية غير العربية بآسيا: إيران - أفغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - إندونيسيا منذ دخولها الإسلام حتى الآن - الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفلبين..
الجـزء التـاسع :	ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم . عصر جمال عبد الناصر: عصر المظالم والهزائم.
الجـزء العاشر :	ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات.

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الإسلام لهداية البشرية فى شئون الفكر، والسياسة، والاقتصاد، والعلاقات الدولية، وفى مجال الحياة الاجتماعية، والتربوية، والتشريعية، والقضائية، والعسكرية، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك ... (الطبعة الثانية عشرة).

الجـــزء الأول: موجز عام للحضارة الإسلامية
المناهج الإسلامية: أصولها الصحيحة - انحرافاتها - وجوب تصحيحها .

الجـزء الثـانى: الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره.

الجـزء الثـالث: السياسة فى الفكر الإسلامى - الشورى والمعارضة فى الإسلام مع بيان الفرق بينهما - مقارنة النظم السياسية الإسلامية بالنظم السياسية المعاصرة.

الجـــزء الرابع: الاقتصاد فى الفكر الإسلامى - مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة.

الجزء الخامس: التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى.

الجزء السادس: المجتمع الإسلامى: تكوينه وعلاج مشكلاته فى الفكر الإسلامى.

الجـزء السـابع: الحياة الاجتماعية فى الفكر الإسلامى: نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء.

الجـــزء الثـامن: التشريع والقضاء فى الفكر الإسلامى.

الجـــزء التـاسع: العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى.

الجـزء العاشـر: رحلة حياة : ترجمة ذاتية تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية.

كتب للمؤلف
ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان تعتمد على أدق المصادر بمختلف اللغات، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق، وتشمل :

الجزء الأول - اليهودية : **(الطبعة الثانية عشرة)**

- دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود فى التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن- الصهيونية - أنبياء بني اسرائيل، عقيدة بني اسرائيل، يهوه إله بنى إسرائيل، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل، الكهنة والقرابين...
- مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود، بروتوكولات حكماء صهيون.
- اليهود في الظلام : الاغتيال، التجسس، الماسونية، الروتارى، الليونز - شهود يهوه، البابية والبهائية - من صور التشريع فى اليهودية.

الجزء الثاني - المسيحية : **(الطبعة الثانية عشرة)**

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة.
- بولس واضع المسيحية الحالية، التثليث، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر.
- شعائر المسيحية، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية، المجامع، طبيعة المسيح والآراء فيها، الطوائف المسيحية، الرهبنة والأديرة، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون، حركة الإصلاح الدينى ونتائجها ونقدها.

الجزء الثالث - الإسلام : **(الطبعة الثانية عشرة)**

- الله في التفكير الإسلامي، النبوة في التفكير الإسلامى، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، الدين المعاملة، المرأة فى الإسلام، الرق وموقف الإسلام منه، السياسة والاقتصاد فى الإسلام، آراء المفكرين الغربيين في الإسلام ورسول الإسلام.

الجزء الرابع - أديان الهند الكبرى : **(الطبعة الثانية عشرة)**

«الهندوسية - الجينية - البوذية»

- مقدمة عن : جغرافية الهند، سكان الهند، اللغات في الهند، الأديان فى الهند.
- دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها، كيتا.
- أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ، الانطلاق والنرفانا، وحدة الوجود.
- تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها.

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ – كيف تكتب بحثا أو رسالة.
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراة:
(الطبعة الرابعة والعشرون – مع ثلاثة ملاحق مهمة).
٢٦ – الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام، واستمرارها حتى الآن:
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكريةً وفكريةً على العالم الإسلامى عبر العصور.
٢٧ – احداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات، وماالسبيل للتغلب عليها – دراسة تاريخية نفسية محايدة:

كتابان باللغة الانجليزية هما :
٢٨ – ISLAM : Belief - legislation - Morals
٢٩ – History of Muslim Education
وباللغة الفرنسية :
٣٠ – ISLAM : Croyance - Legislation - Morale
(مكتبة النهضة المصرية)

وباللغة الاندونيسية والماليزية :
٣١ – Nearag dan pemerintahan Dalam Islam
٣٢ – Masjarakat Islam
٣٣ – Hukum Islam
٣٤ – Sedjarah dan Kebudajaan Islam I
٣٥ – Sedjarah dan Kebudajaan Islam II
٣٦ – Sedjarah dan Kebudaajaan Islam III
٣٧ – Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٨ – Perbandingan Agama (Msihi)
٣٩ – Perbandingan Agama (Islam)
٤٠ – Perbandigan Agama (Agama 2 yng) Tebeser di Inia: Hindu-Jaina - Buddha)
٤١ – Sadijarah Pendidikan Islam
٤٢ – Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٤٣ – Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤٤ – Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dn Masehi
٤٥ – Perang Salib
٤٦ – Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
٤٧ – Pengajian Al Quraan
٤٨ – Sekjarah Kchakiman Dalam Islam
(Pustaka National (Singapore))

خامسا : التفسير الميسر للقرآن الكريم

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية والتطبيق عليها.

كتب للمؤلف

سابعا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل مائة كتاب في الدراسات الإسلامية التي تناسب كل الأعمار كالآتي:

المجموعة الأولى: السيرة النبوية العطرة — ١٦ جزء

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة — ٧ أجزاء

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية — ٥ أجزاء

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم — ٧ أجزاء

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف — ٥ أجزاء

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات — ٥ أجزاء

المجموعة السابعة: الإسلام والمرأة — ٥ أجزاء

المجموعة الثامنة : شخصيات إسلامية مهمة (هارون الرشيد – المأمون– صلاح الدين الأيوبي) — ٧ أجزاء

المجموعة التاسعة : كتب التنوير الحقيقي : — ١٥ جزءا

١ – مدن إسلامية مقدسة : مكة المكرمة – المدينة المنورة – القدس الشريف
٢ – الإسلام : عقيدة وشريعة واخلاق
٣ – الرسول في بيته : زوجاته – أولاده – أحفاده – خدمه
٤ – مع أنبياء الله من آدم إلى محمد ٢٥ نبيا (ورد ذكرهم في القرآن الكريم)
٥ – السيرة النبوية للناشئة
٦ – الإسلام والشباب
٧ – بحوث في الحضارة الإسلامية
٨ – مع القرآن الكريم
٩ – صلاح الدين الأيوبي : شخصيته – عصره – جهوده
١٠ – عواصم الخلافة الإسلامية عبر العصور : المدينة المنورة – الكوفة – دمشق – بغداد – سامراء – القاهرة – القسطنطينية – قرطبة
١١ – شبهات المستشرقين ضد الإسلام : مناقشتها وردها
١٢ – صراع الحضارات في القرن الحادي والعشرين ودور الحضارة الإسلامية في هذا الصراع .
١٣ – السخاوي والسيوطي وصراع المنافسة بين الأقران
١٤ – الجبرتي المؤرخ المصري : والحياة الثقافية بمصر في عهده.
١٥ – مواقف إنسانية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم (الجزء رقم ١٠٠)

المجموعة العاشرة : كتب متفرقة كثيرة منها :

الميراث في الشريعة الإسلامية	الإسلام في أوربا
السلفية	الصحوة الإسلامية

تاريخ الطب في الإسلام
حركات فارسية ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور:
الزنج – القرامطة – الزنادقة – البابية والبهائية

(اكتملت الأجزاء المائة بعون الله)

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع | الصفحـــة

قضية الألوهية

نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان

الخرائط والصور

مقدمة الطبعة الأولى

أحس أن من واجبى أن أفتتح هذه المقدمة بشكر الله الذى هدى وأنعم وتفضل، فإن سلسلة مقارنة الأديان التى نخرج اليوم جزأها الرابع قد لاقت من النجاح أضعاف ماكان يؤمل، وقد اشتد عود هذا العلم. وأخذ يلعب دوره فى حياتنا الثقافية، وكان المبشرون بالمسيحية يعرفون أطرافا من هذا العلم ويستغلونها وهم ينشرون المسيحية ويقفون فى وجه الإسلام، ولكنا أخذنا السلاح منهم وبدأنا نصول به ونجول. والذى لاشك فيه أن الذى يتصدى للتعريف بالإسلام والتبشير به يحتاج إلى هذا العلم احتياجا واسعا؛ ويجد فيه خير عون له فى كفاحه وجهاده.

وقد دخل هذا العلم بعض كليات «جامعة الأزهر» وكان من دواعى ابتهاجى أن انتدبت لتدريسه هناك وكان إقبال الطلاب على الانتفاع بهذا العلم عظيما، وهم - عَبْرَ التاريخ - حماة الإسلام وناشروه فى مختلف الأقطار والأصقاع، وقد طربت عندما وجدت بين طلابى بكليات الأزهر شبابا سمر الوجوه جاءوا من بقاع شتى بأفريقية، وآخرين انحدروا من مختلف الأقطار بآسيا. وسيكون لهؤلاء وأولئك فى خدمة الإسلام ونشره جولات حاسمة عندما يعودون لبلادهم، وأرجو أن يكون علم «مقارنة الأديان» خير عون لهم فى هذه المعمعة.

لقد كان المبشرون الغربيون يعرفون من الإسلام نقاطا يوجهونها توجيها خاصا حتى يصوِّروها نقائص، ويلقون بها فى طريق الإسلام كعقبات تقاوم امتداده، ولم يكن دعاة الإسلام يعرفون عن أديان هؤلاء المبشرين مايلقون به فى وجوههم لصدهم عن الباطل وإعادتهم إلى الرشد، فكانت الغلبة فى حومة الوغى العلمى تتم للمبشرين الغربيين غالبا، وقد حضرت فى أندونيسيا مرة مناظرة أعدَّتْ لتكون من هذا النوع، وفى مطلعها ألقى المبشرون المسيحيون بأسئلتهم فى وجوهنا، وظنوا أنهم ضمنوا لأنفسهم

الفوز. وكانت أسئلتهم تدور حول تعدد الزوجات، والطلاق، والرق، والمرأة فى الإسلام، وديكتاتورية الخلفاء، ونشر الإسلام بالقوة، .. وتصديت للإجابة، ولكنى أعلنت أننى سأجيب عن سؤال ثم ألقى على المبشرين سؤالا عن المسيحية أرجو أن يجيبونى عنه قبل أن أنتقل للإجابة عن السؤال التالى من أسئلتهم، وهكذا، سؤال لهم وسؤال لى، وكانت تلك مفاجأة غير سارة لهم، وقدمت لهم الأسئلة التالية :

* بولس والمسيحية.
* التثليث فى المسيحية.
* ألوهية عيسى.
* ألوهية الروح القدس.
* الاضطهادات والمسيحية[1].

وتمّ لنا الفوز المبين، وشالت كفة المبشرين، وكان علم «مقارنة الأديان» هو الذى قدم لنا السلاح ونحن ندافع ونجيب، كما قدمه لنا ونحن نهاجم ونسأل.

ومن ألوان النجاح الذى صادفته هذه السلسلة أنها ترجمت للغة الانجليزية وللغة الأندونيسية والماليزية، واللغة الأوردية، واللغة الفرنسية.

وهذا الجزء خاص بأديان الهند، والحديث عن أديان الهند حديث ذو شجون، وأرجو أن يجد القارئ فى هذا الجزء لذة عقلية ومتعة نفسية، وهناك نقطة مهمة تربط أديان الهند بالأديان السماوية، فقد كانت أديان الهند معينا تسربت منه ألوان من الأفكار ووجدت طريقها بين معتقدات المسيحيين والمسلمين، فسنرى أن الشعار المسيحى «تثليث فى وحدة ووحدة

(١) اقرأ هذه الموضوعات فى كتاب «المسيحية» للمؤلف.

فى تثليث» منحدر من الهندوسية، وسنرى أن بعض المسلمين قالوا بالتناسخ، ووحدة الوجود، ودراسة علم «مقارنة الأديان» ستعيد كل معتقد إلى أصله، وستُظهر مقدار التأثر والتأثير بين المعتقدات.

والهند قطر عميق الصلة بالأقطار الإسلامية ويعيش به عشرات الملايين من المسلمين بالإضافة إلى الملايين الذين انسلخوا من الهند مكونين دولة الباكستان وبنجلاديش، ومن أجل هذا كان يجدر بنا أن نُعنى بدراسة الثقافة الهندية، لأنها تلاقت مع الثقافة الإسلامية منذ عهد مبكر، ولكن للأسف لم تكن الثقافة الهندية شائعة بين المسلمين، ولم تكن الهندوسية أو الجينية أو البوذية معروفة إلا للخاصة من الباحثين، ولذلك يسعدنى أن أقدم هذا الزاد للقارئ المسلم بوجه خاص ولطبقة المثقفين فى العالم بوجه عام.

يارب حقق بهذا العمل النفع، واجعله خالصا لوجهك الكريم.

المعادى فى السادس من مايو سنة ١٩٦٤.

دكتور احمد شلبى

مقدمة الطبعة الجديدة

يسرني بالغ السرور أن أخرج طبعة جديدة من «أديان الهند الكبرى» ويجيء إخراج هذه الطبعة بعد أن نشط علم مقارنة الأديان واستعاد مكانته في أكثر الكليات، والفضل لله واهب التوفيق، والمعين على النجاح، والشكر للقارئ الكريم على تشجيعه المتواصل وإقباله على هذا الجهد.

ومما يدعو للسرور أن هذه السلسلة قد اكتملت أجزاؤها وترجمت لعدة لغات، وساعد ذلك على أن تؤدي دورها في خدمة الفكر بكثير من الأقطار والأنحاء.

يارب أشكرك شكر من يعرف حقك، ويدرك أن نجاحه كان منك. وكان أثرا لتأييدك العظيم، وفي انحناءة الشاكر الذاكر أطمع في المزيد من توفيقك وعونك. وأطمع أن تكون هذه الطبعة أكثر نفعا وأعمق أثرا.

وأسألك يارب أن تهبنا الرشد، وتهدي البشرية سواء السبيل.

المؤلف

المعادي في الرابع من ديسمبر سنة ١٩٩٨ .

الهنــــد

الهند بلاد الأسرار والأساطير، مجتمع شعوب وطبقات، بل مجتمع مجتمعات، تكثر فيها الأديان، وتتعدد اللغات والألوان، فالحديث عن الهند حديث ذو شجون، تعال بنا نورد تعريفا بالهند قبل أن نصل إلى الحديث عن أديانها الكبرى، ومن الواضح أن حديثنا هنا عن الهند يشمل أيضا مايسمى الآن «الباكستان» و «بنجلاديش».

لمحة عن جغرافية الهند:

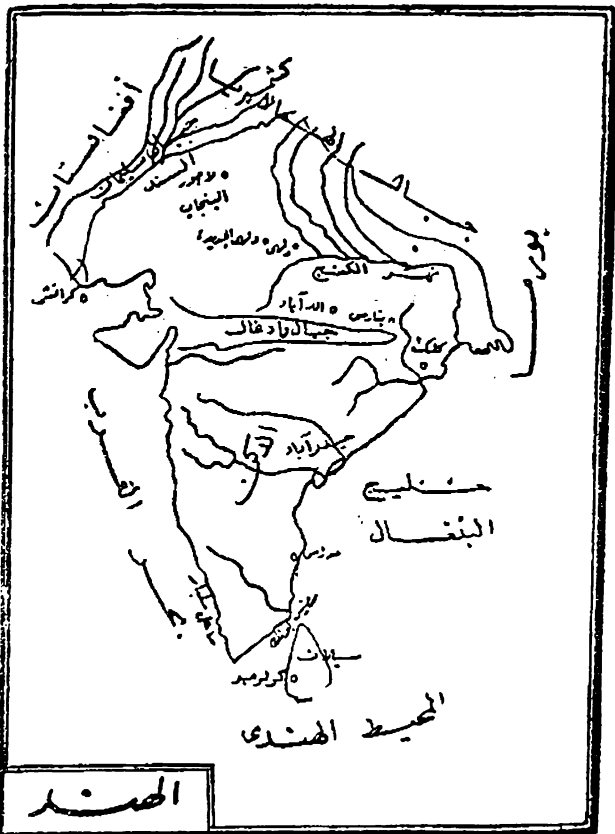
تبلغ مساحة الهند ٠٧٢ , ٢٢١ , ١ ميلا مربعا، أو مايعادل مساحة دول أوربا مجتمعة باستثناء روسيا، والهند ذات موقع مهم على خريطة العالم، وهى شبه جزيرة تشبه فى منظرها قارة أفريقية بوجه عام، فهى عبارة عن مثلث غير منتظم الأضلاع قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، وقاعدته جبال الهملايا الشامخة، ورأسه رأس كومارى (Cape Comarin)، والهند بلاد مقفلة كما يسميها الباحثون، فضلعا المثلث فى الشرق والغرب يدور حولهما البحر، أما قاعدة المثلث فى الشمال فتحيط بها سلسلة جبال الهملايا وجبال سليمان ويحتضنها نهران عظيمان أحدهما نهر الأندوس (السند) وينبع من جبال الهملايا ويصب فى خليج العرب، بعد أن يتصل بأنهار البنجاب (الأنهار الخمسة)، والآخر نهر كنكا أو نهر الكنج، وهو ينبع أيضا من جبال الهملايا ويصب في خليج البنغال بعد أن يتصل بنهر براهما بوترا المقدس[١].

ويشق الهند عند منتصفها تقريبا سلسةٌ من الجبال والأدغال تبدأ من الغرب، وتسير حتى قرب الساحل الشرقى، وهذه السلسلة تقسم الهند قسمين يختلف أحدهما عن الآخر فى طبيعته وفى سكانه وحضارته.

ومن نهر الأندوس (السند) اشتُق اسم الهند، وظهرت كلمة اند وهند، ومعناهما الأرض التى تقع فيما وراء الأندوس، وسمى سكان هذه البلاد:

---

(١) Weech and Rylands: Peoples and Religions of India p. 307


كشمير
افغانستان
السند
لاهور
البنجاب
دلهي
كراتشي
بورما
نهر الكنج
الله آباد
بنارس
كلكتة
حيدر آباد
خليج البنغال
مدراس
سيلان
كولومبو
المحيط الهندي

الهند

الهنود أو الهندوس(١) .

وعن تسمية الهند يقول غوستاف لوبون(٢) : يرى الغربيون أن نهر السند (إندوس) أعار من اسمه اسما للبلاد الحافلة بالأسرار الواقعة فيما وراءه. ولا يُسَلِّم بهذا تمام التسليم، بل يحتمل اشتقاق اسم الهند من اسم الإله (اندرا).

ويجاور الهند ممالك بلوخستان وأفغانستان في الشمال الغربي، والتركستان في الشمال، والصين في الشمال والشمال الشرقي، وبورما في الشمال الشرقي كذلك.

وحضارة الهند قديمة جدا، وقد أنتجت تربة الهند فلاسفة عظاما قبل أن يولد سقراط، وانتشرت في الهند معالم العلم، ووجدت المباني الضخمة في عهد كانت الجزر البريطانية تعيش في بربرية وفوضى(٣) .

والهند بلاد العجائب والمفارقات، حتى يمكن اعتبارها أقطارا في قطر، فلها كل الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها، فبينما يكون الحر شديدا للغاية في سواحل ملبار، وكور، ومَنْدَل، وسهول البنجاب، ترى ربيعا ساحرا في قمم بعض الجبال، وثلوجا تغطي شواهق همالايا. وبينما يغمر الفيضان بعض الأرض نرى مناطق أخرى أعيا أهلها الجفاف وطلبُ السقيا، وبينما ترى الصحاري الجرداء والأرض القاحلة إذ بك ترى الغابات الكثيفة والمروج الخضراء والمزارع الفينانة(٤) .

وعن مفارقات الهند يقول G.H. Rylands(٥) : في الهند الحديثة

(١) حقائق عن الهند (من منشورات قلم الاستعلامات الهندي).
(٢) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٢٥.
(٣) Weech and Rylands: Peoples and Religions of India p. 307.
(٤) انظر حضارة الهند لغوستاف لوبون ص ٢٢.
(٥) Peoples and Religions of India p. 307

يتقابل وجهها لوجه الشرق فى عصور بدائيته، مع الغرب فى عصور حضاراته وتطوره، ومن مظاهر ذلك الطائرات النفاثة التى تشق الجو لتقيم شبكة مواصلات بين مدن الهند بعضها والبعض الآخر، فى حين لاتزال أشهر وسيلة للمواصلات داخل المدن عبارة عن «الركشة» وهى مَرْكَبَ ذو ثلاث عجلات يركبه شخص أو شخصان ويدفعه حطامٌ من بنى آدم.

سكان الهند

الهند مركز من مراكز الحضارة القديمة فى العالم، وهى فى هذا تضارع مصر والصين وآشور وبابل، ولكن حضارة الهند التى سبقت العهد الآرى ظلت غير معروفة حتى أظهرت الاكتشافات الحديثة مدى الرقى الذى عرفته الهند فى الشئون المعمارية والزراعية والاجتماعية قبل الميلاد بحوالى ثلاثة آلاف من الأعوام، أى قبل الغزو الآرى بحوالى ألف وخمسمائة عام.

ولكن التاريخ الواضح للهند ارتبط بالعهد الآرى، وقد قلنا فيما سبق أن بلاد الهند تعتبر مقفلة إذ تحيط بها البحار والجبال، ويصعب اقتحام الهند عن طريق البحر لتعذر الملاحة فى خليج البنغال، ولأن الشاطئ الهندى لبحر العرب عبارة عن جبال عاتية، وعلى هذا لم يكن البحر معبرا للهند وبخاصة فى الأزمنة السالفة قبل الرقى بنظم الملاحة. وكما صعب اقتحام الهند عن طريق البحر صعب أيضا اقتحامها عن طريق جبال همالايا الشامخة بالشمال، إلا أن هناك مَعْبَرين كان كل منها منفذا سلكته أجناس من البشر إلى الهند حيث تكوَّن السكان الذين نريد أن نتكلم عنهم، ويقع أحد هذين المعبرين فى شرقى جبال همالايا عند وادى نهر برهما بوترا، ويسمى الباب الشرقى، ويقع الثانى غربى هذه الجبال ويسمى الباب الغربى، ومن هذين البابين اقْتُحمت الهند عدة مرات بأجناس مختلفة، ولهذا، ولاختلاف أجواء الهند، أصبح سكان الهند - كما يقول غوستاف

لوبون[1] - ذوى أمثلة متباينة، ففيها تجد شعوبا بيضا بياض الأوربيين، كما تجد الزنوج والسود، وبين هؤلاء وأولئك ألوان وألوان.

فمن الباب الشرقى دخلت الشعوب الصفراء (التورانيون) أفواجا منذ آلاف السنين، يضيق الزمن بينها أو يتسع، وقد فرّ من وجهها بعض السكان الأصليين واحتموا بقمم الجبال، أما أغلب السكان الأصليين فقد ارتبطوا بالزاحفين وتمّ فى الجنسين ألوان من العلاقات أنتجت ما أصبح بعد حين يعرف بالسكان الأصليين، وكان هذا المجتمع الجديد يتكون من جماعتين: إحداهما يغلب فيها الدم التورانى، والثانية يغلب فيها الدم الهندى، أما الذين آووا إلى قمم الجبال فقد أُطلق عليهم «زنوج الهند».

ومن الباب الغربى اقتحم الآريون بلاد الهند وبهم ارتبط تاريخ الهند القديم وأصل الآريين (الجنس الأبيض) مشكوك فيه، فيرى بعض الباحثين أنهم نشأوا ببلاد الدانوب بأوربا، ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض، متخذين طريق الشرق حتى بحر مرمرة، ثم عبروا البسفور أو الدردنيل إلى آسيا الصغرى، واستمروا فى سيرهم شرقا متجنبين الحضارات المزدهرة التى كانت قد نشأت فى طريقهم، حتى نزلوا فارس بالقرب من تبريز، ومن هناك انحدروا إلى الهند[2] .

ويرى باحثون آخرون - وهو الأرجح - أن الجنس الآرى آسيوى الأصل، كان يعيش فى وسط آسيا فى بلاد التركستان بالقرب من نهر جيحون، ثم زحفت أفواج ضخمة من هذا الجنس فى أزمنة غير واضحة، واتجهت نحو إيران عبر الهند واتجهت كذلك نحو أوربا[3] .

---

(١) غوستاف لوبون: المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١.
(٢) الهجرات الآرية ص ٤.
(٣) René Sedillot: History of the world p. 32.
وانظر كذلك : G.F. Allen Buddha's Philosophy p. 24 - 25.

ويبدو أن الزحف الآرى إلى الهند قد تمَّ فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقد حارب الآريون الممالك التى أقامها الجنس الأصفر بالهند وانتصروا على الكثير منها، وكوَّنوا لهم بها مناطق نفوذ، ولم يتصل الآريون بسكان الهند بطريق التزواج، بل حافظوا غالبا على سلالتهم البيضاء وساقوا سكان الهند إلى الغابات والجبال، أو أخذوهم أسرى، وسماهم الأدب الآرى المبكر «أمة العبيد» واستنصر الآريون عليهم بالههم اندرا، ومن دعائهم فى ذلك: يا إلهنا اندرا، إننا قد أحاط بنا قبائل داسيو (عبيد) من جميع الجهات، وهم لايقدمون الضحايا، وليسوا بآدميين، ولايعتقدون فى شيء، يامهلك الأعداء أهلكهم وأهلك نسل داسا (العبد). والسبب فى أن الآرين لم يتم التزاوج بينهم وبين الهنود، هو أن الآرين دخلوا الهند كشعب مهاجر لا كجيش محارب، والفرق كبير بين الحالتين، فالجيش يكون عماده الرجال الذين سرعان مايتصلون بنساء الشعب المغلوب، أما الآريون فقد دخلوا بثرائهم ونسائهم وأطفالهم، فلم يحتاجوا لنساء الهند للتزاوج، وكان عدم الحاجة للنساء من الاستعلاء الذى يصحب النصر من دواعى نشأة الطبقات، كما كان هذا من أسباب كثرة الألوان فى الهند(١).

أما مدى نفوذ الشعوب الصفراء (التورانيين) والبيض (الآرين) على الهند فيوضحه غوستاف لوبون بقوله(٢): والتورانيون أشد الغزاة تحويلا لعروق الهند من الناحية الجثمانية، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر فى عروق الهند من الناحية المدنية، فمن التورانيين أخذ سكان الهند نسَبَ أجسامهم وتقاطيع وجوههم، وعن الآرين أخذ سكان الهند لغتهم ودِينهم وقوانينهم وسجاياهم وطبائعهم.

ولم يتوار الآريون بالامتزاج فى الهند بسرعة كما توارى العرب فى مصر، لأن عدم التزاوج، ثم نظام الطوائف الحاسم حال دون امتزاجهم فى

(١) Weech: The Peoples and religions of India p. 311.
(٢) حضارة الهند ص ١٠٤.

الهند بالتورانيين المقهورين زمنا طويلا ، ولكن الامتزاج على كل حال تمّ بتعاقب القرون[1] ومع الامتزاج فإننا نستطيع أن نرى أن آثار الآريين الجسمانية لاتزال بارزة في الشمال الغربي حتى العهد الحاضر كما يقول Weech ففى البنجاب نجد السكان أطول قامة ، بشرتهم بيضاء أو أميل إلى البياض ، ملامحهم أدق ، وهم بهذا يخالفون باقى الهنود حيث تنتشر ملامح التورانيين ، أو حيث توجد ملامح السكان الأصليين بالجنوب ، وتقل ملامح الآريين كلما اتجهنا جنوبا أو شرقا[2] .

وبالتقاء الآريين والطورانيين مع السكان الأصليين بدأت الطبقات فى الهند ، وأصبحت ذات أهمية كبرى فى تاريخ هذه البلاد ، فمن الآريين كانت طبقة رجال الدين (البراهمة = Brahaman) وطبقة المحاربين (Kastria) ومن التورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vaisya) ، أما الهنود الذين اتصلوا بالطورانيين فلم يدخلوا التقسيم فى أول الأمر ، ولكن الحضارة الآرية امتدت إلى بعضهم بمرور الزمن ، فأوجد الآريون منهم الطبقة الرابعة وجعلوها طبقة الخدم والعبيد (Sudra) أما الذين لم تمتد لهم الحضارة الآرية من السكان الأصليين لأنهم انعزلوا عن الفاتحين فقد بقوا بعيدين عن التقسيم ، وظلوا طريدى المجتمع أو منبوذين (ontcastes) وستكلم فيما بعد عن هذه الطبقات .

ونعود إلى ذوبان الجنس الآرى الذى اقتبسنا الحديث عنه آنفا من غوستاف لوبون ، لنقرر أن هذا الذوبان بدأ عندما اندفع بعض الآريين عن طريق ممر دلهى الذى يفصل بين الصحراء الغربية وبين فروع نهر الكنج ، وفى المهجر الجديد تخلى الآريون عن كثير من خصالهم وتقاليدهم وتبنوا كثيرا من أخلاق الهنود . وطرق حياتهم ، فتوقفوا عن الذبح وأكل اللحوم

---

(١) حضارة الهند ص ٢٦١ .

(٢) The Peoples and religions of India p. 311.

إلا فيما يتعلق بالقرابين، وفقدت المرأة حياة الحرية والطلاقة التى كانت تحياها فى المجتمع الآرى، وتوارى كثير من الآلهة التى كانت موضع تقديس فى كشمير حيث المهجر الأول للآريين[1] بالهند، واستمر هذا الذوبان ينتشر حتى تم اندماج الآريين فى الهند.

ومن العوامل الواضحة الأثر على سكان الهند جميعا شدة الحرارة. ففيما عدا جبال الهملايا التى تكسوها الثلوج نجد درجة الحرارة بالهند شديدة طول العام تقريبا، ويرى Weech أن شدة الحرارة كان لها أثر فى السكان، فقد تسبب عنها عزوفهم عن العمل، وسرعة التعب إذا عملوا، كما تسبب عنها نقص فى القدرة على الابتكار، وفى الكفاية والنشاط على العموم[2].

أما الناحية الروحية فتمتاز الهند بنصيب كبير فيها، ولكن ليس معنى هذا أن عامة الهنود على شىء من الصفاء الروحى، فإنه ليس فى بلاد العالم كلها بلد تنمو فيه الخرافة وتزدهر، كما تنمو فى الهند، ولكن ذلك لا يقلل من نشاط الاتجاه الروحى فى الهند، لأن الظروف الملائمة للخرافة والبدع هى نفسها خير الظروف لصفاء النفس، فالاتجاه الروحى إذا سما أخذ وجهته نحو الفكر والعمق، وإذا كان ضحلا أو مضطربا أخذ طريقه نحو الخرافة[3].

اللغات فى الهند

رأينا فيما سبق اختلاف عناصر السكان واختلاف ألوانهم، ولكن اللغات فى الهند كانت أكثر اختلافا وأكثر عددا، وكانت الحياة القبلية المنتشرة بالهند من أهم أسباب كثرة اللغات، فقد كانت كل قبيلة تكاد تكون

(١) Weech: The peoples and Religions of India p. 314
(٢) Ibid p. 309
(٣) يوجى راما شاراكا: فلسفة اليوجا ص ١٩٧ من الترجمة العربية بتصرف.

مستقلة تعزلها الجبال أو الغابات أو الأنهار عن سواها من القبائل، ولها لغة خاصة بها لا يعرفها سواها من القبائل أيضا، وعلى هذا بلغت اللغات فى الهند نحو ٢٤٠ لغة و٣٠٠ لهجة إذا صح مايقوله غوستاف لوبون(١) بالإضافة إلى الفارسية التى كانت لغة رسمية للقصور والمجتمعات الراقية فى الهندوستان، والبهلوية وهى لغة المجوس.

وعلى هذا لم يكن من الممكن التفاهم بين سكان المناطق المختلفة، وهذا مهّد الطريق للغة الإنجليزية لتكون لغةً عامةً بجوار هذه اللغات المحلية.

وهناك لغة أخرى تكونت فى القرن الخامس عشر الميلادى وهى اللغة الهندوستانية، وأصلها آرى، ثم دخلت عليها كلمات كثيرة من اللغات الفارسية والعربية والهندية والتركية وتسمى الآن اللغة الأوردية نسبة إلى (الأوردو) وهو المعسكر إذ كانت لغة معسكرات المغول أولا، وانتشرت هذه اللغة بين المسلمين وغير المسلمين، وشجعها الملوك والسلاطين حتى ضارعت اللغة الإنجليزية فى عمومها وانتشارها، وأصبحت لغة رسمية بجوار الإنجليزية، ولما تمَّ تقسيم الهند إلى دولتى الهند والباكستان اعتُبرت هذه اللغة لغة إسلامية فى نظر كثير من الولايات الهندية، فاحتضَنتها الباكستان، وترعرعت هذه اللغة فى الدولة الإسلامية الكبرى، أما فى الهند فقد عانت الأوردية صورا من الاضطهاد فى بعض الولايات، ولكن ولايات أخرى هندية اعترفت بها مثل بومباى وإندرو ومدراس، ومن العجب أن الذين كانوا يهاجمون الأوردية من الهنود كانوا يهاجمونها بها كما قال البانديت نهرو(٢).

أما عن اللغات فى الهند بعد التقسيم فقد اتخذ الدستور الهندى اللغة الهندية لغة رسمية للبلاد، وهى لغة قامت على أنقاض السنسكريتية، ولما

---

(١) حضارة الهند ص ٤٧٧.
(٢) انظر تاريخ الإسلام فى الهند ص ٢٢ - ٢٣.

كانت هذه اللغة غير شائعة فقد رؤى الاستمرار فى استعمال اللغة الإنجليزية كلغة رسمية للبلاد حتى تصل اللغة الهندية إلى الانتشار الكافى ، وإلى جانب اللغة الهندية ، اعترف الدستور بثلاث عشرة لغة فى مختلف ولايات الهند ، وكل منها لغة حية ذات ذخيرة ولها أدب يانع مترعرع[1] .

الأديـــان فى الهنـــد

نقلنا فى «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» رأى مجموعة من علماء مقارنة الأديان مؤداه أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية . . كما ذكرنا أن هناك عوامل تقوى هذه الغريزة من أهمها اختلاف قوى الطبيعة ، ومواجهة الإنسان لهذه القوى وجها لوجه ، وإحساسه بالضعف تجاهها[2] :

والهند حقل رائع لتطبيق هذه المبادئ؛ فقد نشطت قوى الطبيعة ، وواجهها الإنسان الهندى وجها لوجه ، وأحس بالضعف تجاهها ، فأصبح «متدينا بطبيعته يشغف بالروحانيات ، ويسعى دائبا إلى معرفة الله ، ويتخذ الزهد وسيلة ليتخلص من دنيا المادة وينتظم فى دنيا الروح[3]» ، وهيهات أن تجد هندوسيا لايعبد عددا من الآلهة ، فالعالم عنده زاخر بها ، حتى أنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه ، ولجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربى ، وللأوربى نفسه عند الاقتضاء[4] .

---

(١) محيى الدين الألوانى : الأدب الهندى المعاصر ص ٥٩ .
(٢) انظر الجزء الأول ص ١٦٧ - ١٦٨ من الطبعة الحادية عشرة .
(٣) أديان العالم الكبرى ص ٢٤ لخصه عن الإنجليزية حبيب سعيد .
(٤) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٦٨ .

وقد عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة، كما عرفوا عبادة قوى الطبيعة، وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخَلْق، وكان هذا الإله يسمى عندهم (Linga) وهى من اشتقاق الكلمة الإنجليزية (Link) أى صلة ورابطة، وفى العصور الآرية اندمج هذا الإله مع الإله الذى تكوَّن منه الثالوث الهندى[1] .

وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمى، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى فى بعض الأحياء فيحل فيها - فيحتمل حلوله فى هذا الحيوان أو ذاك، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جداً قديماً أو صديقا عائدا إلى الحياة[2] .

وقد كان للبقرة - من بين الحيوانات - قدسية خاصة، ولذلك سنخصها بالذكر فيما يلى، ثم نتكلم بعد الحديث عنها عن آلهة الهنود من الظواهر الطبيعية .

عبادة البقرة :

من بين المعبودات سالفة الذكر حظيت البقرة فى الهند بأسمى مكانة، وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كرّ السنين وتوالى القرون، ففى الويدا حديث عن قدسيتها والصلاة لها. ولاتزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدسية، ففى الأدب المنسوب للمهاتما غاندى تفسير لما حظيت به البقرة قديما وحديثا من نفوذ دينى .

وبين يدىَّ الآن عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة Bhavan's Journal التى تصدر فى بومباى بالهند، وبه عدة مقالات عن عبادة البقرة،

(١) Weech: The Peoples and Religions of India p. 310.
(٢) الأستاذ عباس العقاد : الله ص ٧٧ .

وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات، وأول مانقتبسه نشيد من «شاما ويدا»[1] نشرته المجلة فى صفحة مستقلة داخل رسم تخطيطى للبقرة[2]. ننقل صورته على الصفحة التالية، والترجمة العربية للنشيد هى :

صلاة إلى البقرة

أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء،
فى كل مظهر تظهرين به، أنثى تدرين اللبن فى الفجر
وعند الغسق، أو عجلا صغيرا، أو ثورا كبيرا،
فلنُعدَّ لك مكانا واسعا نظيفا يليق بك، وماء نقيا
تشربينه، لعلك تنعمين بيتنا بالسعادة

وهناك أسطورة تُروَى كمحادثة تقتبسها المجلة[3] عن Smani Sinanda وهى محادثة جرت بين خنزير وملك، ونحن ننقلها فيما يلى :

ذهب الخنزير يوما إلى ملك وهو يصلى أمام البقرة ويعلن لها أنها معبوده الأثير عنده.

قال الخنزير للملك : أيها الملك، متى ستعبدنى؟
فثار الملك ونهر الخنزير قائلا : أخرج وإلا قتلتك.

بكى الخنزير وانتحب، وقال : نعم، أنا أعرف أنك تحب فقط لحمى، فأنا أموت لأقدم لك ماتحب، ومع هذا فإنك تعبد البقرة ولا تعبدنى.

فأجاب الملك : إنك أحمق أيها الخنزير، أننى آخذ لحمك بعد موتك أى بعد أن تكون فى حال لاتستطيع أن تمنح ولا أن تمنع، وسرعان ماينتهى

---

(١) «ساما ويدا» قسم من أقسام «الويدا» كتاب الهندوس المقدس، وسيأتى الحديث عنه.
(٢) ص ٧.
(٣) ص ١٣ من المجلة.

BHAVAN'S JOURNAL

PRAYER FOR COW

बहुधा सहवत्सा उदेत विश्वरूपाणि बिभ्रतीरुपदुघ्नी ॥
उरु गव्यूति वो अस्तु लोक इमा आपः सुप्रपाणा इह स्त ॥

O! (holy) cows! May you fare well, assuming all forms, offering milk at dawn and dusk, and united with calves and bullocks. Let this spot be broad and wide enough for you. Let these waters be well drunk. May you be happy here.

Samaveda—628

لحمك، أما البقرة فإنها تقدم لى طعامى طائعة وهى حية، وكذلك تستمر فى تقديمه من يوم إلى يوم دون نهاية، أنها رمز الإيثار، ولذلك فأنا أعبدها.

أما رأى المهاتما غاندى فى عبادة البقرة فجدير بأن نفسح له مكانا، وأن نحاول أن ننقله كله أو جله من هذه المجلة[1] وهو بعنوان «أمي البقرة» وفيما يلى ترجمة أهم ماجاء به:

«أن حماية البقرة التى فرضتها الهندوسية هى هدية الهند إلى العالم، وهى إحساس برباط الأخوة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهندى يعتقد أن البقرة أم للإنسان وهى كذلك فى الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندى، وهى خير حماية للهند..

«عندما أرى بقرة لا أعدنى أرى حيوانا، لأنى أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع...

«وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما، ولاتتطلب منا شيئا مقابل ذلك سوى الطعام العادى. وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن أمنا البقرة فلا نخسر لها شيئا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهى حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون.

«أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبين السبب الذى دعانى لعبادة البقرة. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسى واحدا من هؤلاء الملايين».

---

(١) ص ١١.

الآلهة من الظواهر الطبيعية :

ومن آلهة الآريين التى وردت فى كتبهم المقدسة مجموعة من الظواهر الطبيعية مثل :

وارونا	: إله السماء .
إندرا	: إله الرعد الذى يسبب الأمطار ، وكانت له الغلبة فيما بعد .
الشمس	: وكانت تعبد فى خمسة أشكال ، فتعبد لذاتها باسم (سورية) ، وتعبد كمصدر للانتعاش باسم (ساوترى) . وتعبد لتأثيرها فى نمو الحشائش والنبات باسم (بوشان) وتعبد كبنت السماء باسم (مترا) وأخيرا باسم (وشنو) أى النائب عن الشمس ، ثم استقل وشنو فعُبد لذاته .
أغنى	: إله النار .
أوشا	: إله الصبح .
رودرا	: إله العواطف .
بارجانيا	: إله المطر والمياه والأنهار .
وايو ، واتو	: إلها الرياح[1] .

ويعلق كتاب Hinduism على كثرة الآلهة بقوله : أن هذه الديانة توزع الآلهة حسب المناطق وحسب الأعمال التى تناط بهذه الآلهة ، فلكل منطقة إله ، ولكل عمل أو ظاهرة إله[2] .

ويقول مولانا محمد عبد السلام الرامبورى : كانت الأمة الهندية متسامحة فى كل مايعرض عليها من الأفكار والمعتقدات ، تكثر عندها الآراء

---

(١) الآريون فى الهند (ثقافة الهند ، سبتمبر سنة ١٩٥٦ ص ٢٨ - ٢٩) .
(٢) René Sodillot: History of the World p. 62.

والابتكارات، وكان الناس حيارى مشرفين على القبول والمعاضدة . . عقائدهم متضاربة، وأفكارهم متباينة، فَشَتْ فيهم رهبانية، وسرت فيهم باطنية، قامت حلقات الفكر فى كل نواحى القطر يتزعمها العرفاء والعلماء، ونشأت دراسات أخلاقية قصدها العامة والخاصة، قد عمّت الرياضات الشاقة المتعبة فى سبيل حصول السيطرة على القوى الكونية، وراج التبتل فى الكهوف للمراقبات النفسية، والانقطاع فى الغابات لإتعاب الأبدان لترقى القوى الروحانية[١] .

وعلى هذا اشتهرت الهند بكثرة الأديان والمعتقدات التى تضارع فى كثرتها لغات الهند أو تقرب منها، وكانت الهندوسية أشهر هذه الأديان وأوسعها انتشارا، بل أنها الدين العام الذى حوى غالبية الهنود أو كلهم، وإذا تمردوا عليه أحيانا أو تمرد بعضهم عاد المتمردون بعد وقت قصير أو طويل إلى رحابه، وقد وضح كتاب Hinduism السبب فى ذلك بقوله : أنه لمن الصعب أن يطلق على الهندوسية دينا بالمعنى الشائع، فالهندوسية أشمل وأعمق من الدين، أنها صفة لملامح المجتمع الهندى، بنظامه الطبقى ومكان كل طبقة فيه، إنها الحياة الهندية بأسلوبها الخاص الذى يعتبر فى ذاته شعيرة من الشعائر، أنها خليط يشمل الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعا، إذ لايوجد فى الفكر الهندى حد فاصل بين الاثنين، إنها الاتجاهات الروحية والخلقية والقانونية . وهى إلى جانب ذلك مبادئ وقيود وعادات توجه الحياة الهندية وتسيطر عليها[٢] .

والويدا - كتاب الهندوس المقدس - يشمل مبادئ الفكر الهندى فى أكثر مراحله .

ويمكن أن نقسم تاريخ الفكر الهندى إلى العصور التالية :

---

(١) فلسفة الهند القديمة ص ٨٥ - ٨٦ .
(٢) Hiuduism Ed. by Lewis Renou p. 4.

أولا : العصر الويدى[1] الأول ويشمل ثلاث مراحل فرعية :

(أ) مرحلة انتشار الأفكار البدائية، وعبادة قوى الطبيعة، سواء فى ذلك ماجلبه الآريون، أو ماكان نابعا من البيئة الهندية، ويبدأ ذلك من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفى الويدا معلومات مفيدة عن هذه المرحلة.

(ب) مرحلة تدوين الويدا وتأويلها على أيدى البراهمة، ويُسَمَّى هذا التأويل «البراهمانات» وتبدأ هذه المرحلة من حوالى القرن الثامن قبل الميلاد، فقد ظهر فى هذا العصر جماعة من أهل العلم والنظر، اهتموا بالشئون الدينية، وفكروا فى عقائدهم، فأدى التفكير بهم أو ببعضهم إلى آراء مغايرة للعقائد الموروثة، تكوّن مذهبا هو البرهمة[1] ويرى René Sédillôt[2] أن البراهمة قاموا بهذا التأويل لمصلحتهم، وليجعلوا امتيازاتهم مقدسة، ثم إنهم لاحظوا أن الاتصال بدأ يتم ويتعمق بين جنسهم وبين السكان الأصليين فأرادوا أن يضعوا نظام الطبقات ليحول بين تمام الامتزاج، وسنزيد ذلك شرحا عند الكلام عن نظام الطبقات، وبهذه المرحلة تبدأ الهندوسية التى لاتزال موجودة.

(جـ) مرحلة تلخيص الويدا فى أسفار مقدسة تسمى الأوبانيشادات وهى مرحلة تبدأ من القرن السادس قبل الميلاد، وتستمر إلى مابعد الميلاد بعدة قرون.

---

(١) كلمة ويدا أو فيدا كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة، ولذلك يطلق على واضعيها كلمة «الريشيون» أو الحكماء أو العارفون.

(٢) الدكتور إبراهيم مذكور ودكتور يوسف كرم: تاريخ الفلسفة ص ١٢

See Religions of The World by Berry p. 40

و Hinduism p. 5.

ثانيا : عصر الإلحاد (فى رأى أتباع الويدا) وفيه ظهرت الديانة الجينية والديانة البوذية، وضعفت الديانة الويدية ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد.

ثالثا : العصر الويدى الثانى، وهو عصر عودة النصر للويدا وانتصارها على دينَىْ الإلحاد، ولكن مع التوسع فى شروح الويدات وبيان الخصائص الدينية والاجتماعية التى وردت بها، ومن أهم هذه الشروح قوانين «منو» التى وُضعَتْ حوالى القرن الثالث قبل الميلاد، وبقوانين منو هذه تتضح الهندوَسية وتستقر معالمها، وسنعود لشرائع منو بمزيد من الشرح فيما بعد.

وستشمل دراستنا فى هذا الكتاب المعالم الكبرى للفكر الهندى ممثلة فى الديانات الثلاث : الهندوسية - الجينية - البوذية. مع دراسات عن الكتب المقدسة لدى الهنود.

الهندوسية

مقدمة :

الهندوسية ديانة الجمهرة العظمى فى الهند الآن، قامت على أنقاض الويدية، وتشربت أفكارها، وتسلمت عن طريقها الملامح الهندية القديمة والأساطير الروحانية المختلفة التى نمت فى شبه الجزيرة قبل دخول الآريين. ومن أجل هذا عدها الباحثون امتدادا للويدية وتطورا لها(١) .

وتسمى الهندوسية أو الهندوكية، إذ تمثلت فيها - كما سنرى - تقاليد الهند وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم. وأطلق عليها البَرْهميَّة ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahma وهو القوة العظيمة السحرية الكامنة التى تطلب كثيرا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين(٢) ، ومن براهما اشتقت الكلمة «البراهمة» لتكون علما على رجال الدين الذين كان يُعْتَقَد أنهم يتصلون فى طبائعهم بالعنصر الإلهى، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لاتجوز الذبائح إلا فى حضرتهم وعلى أيديهم(٣) .

مؤسس الهندوسية :

من الذى وضع الهندوسية؟ ومن الذى وضع كتابها المقدس الويدا؟

فى الإجابة عن هذين السؤالين نقرر أنه ليس هناك مؤسس للهندوسية يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها، فالهندوسية دين متطور ومجموعة من التقاليد والأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم جيلا بعد جيل بعدما وفدوا على الهند، وتغلبوا على سكانها الأصليين واستأثروا دونهم بتنظيم المجتمع. وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان

---

(١) Hindnism p. 6.

(٢) محمد عبد السلام : فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند : مارس ١٩٥٣، ص ١٩).

(٣) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى، ص ٢٧.

الهند الأصليين، ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التى اعتبرت على مر التاريخ دينا يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه[1] .

ويمكن القول أن أساس الهندوسية هو عقائد الآريين بعد أن تطورت بسبب اختلاط الآريين - وهم فى طريقهم البطئ إلى الهند - بشعوب كثيرة وبخاصة بالإيرانيين، ثم تأثرت هذه العقائد بعد احتلال الآريين للهند بسبب الاتصال بأفكار السكان الأصليين، وبفلسفات وأفكار نشأت فى الهند فى مراحل متباعدة من التاريخ، حتى أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصيلة[2] .

«والهندوسية أسلوب فى الحياة أكثر مما هى مجموعة من العقائد والمعتقدات، تاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن، وليست لها صيغ محدودة المعالم، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، ومايرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة»[3] .

وإذا كانت الهندوسية ليس لها مؤسس معين فإن الويدا كذلك، وهى الكتاب المقدس الذى جمع العقائد والعادات والقوانين بين دفتيه ليس له كذلك واضع معين، ويعتقد الهندوس أنه أزلى لا بداية له، ومُلهَم به قديم قدَم الملهم، ويرى الباحثون من الغربيين والمحققون من الهندوس أنه قد نشأ فى قرونَ عديدة متوالية لاتقل عن عشرين قرنا، بدأت قبل الميلاد بزمن طويل، وقد أنشأته أجيال من الشعراء، والزعماء الدينيين، والحكماء الصوفيين عقبا بعد عقب، وفق تطورات الظروف وتقلبات الشئون[4]، وينسب Berry[5] كتابة الويدا إلى الآريين، وسنعطى فيما بعد معلومات كافية عن هذا الكتاب المقدس.

---

(١) Berry: Religions of The World p. 42.
(٢) Hinduism, Ed. by Lewis Renou pp. 2 - 3.
(٣) الهند والغرب ص ١٨ . وانظر تاريخ الإسلام للأستاذ عبد المنعم النمر، ص ١٨ .
(٤) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند: مارس ١٩٥٣، ص٣).
(٥) Religions of The World p. 40

والموضوعات الجديرة بالدراسة حول الهندوسية هي :

١ - الويدا .

٢ - الله في التفكير الهندوسي .

٣ - نظام الطبقات .

٤ - أهم عقائد الهندوسية : الكارما - تناسخ الأرواح - وحدة الوجود - الانطلاق .

٥ - من صور الأخلاق عند الهندوسيين : مراحل الحياة - التسول - محاربة الملاذ - تعذيب الجسم .

٦ - نماذج من الفقه الهندوسي .

٧ - تعريف بالكتب المقدسة لدي الهندوس (بعد الويدا) .

٨ - لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية .

وستكلم عن كل هذه الموضوعات فيما يلى :

١- الويـــــدا

قلنا فيما سبق أن الويدا - كتاب الهندوس المقدس - لايعرف له واضع معين . . . ولإعطاء صورة أقرب إلى الدقة عن الويدا الذى يُعد بحق دائرة معارف عن الهندوس ، نلجأ إلى كاتب هندى قدير هو الأستاذ محمد عبد السلام لنلخص بحثه عن الويدا ضمن أبحاثه القيمة عن «فلسفة الهند القديمة»[1] .

للويدا قيمة تاريخية كبرى ، إذ تنعكس فى هذا الأدب الدينى حياة الآريين فى الهند فى عهدهم القديم ومقرهم الجديد ، ففيه أخبار حلهم وترحالهم ، دينهم وسياستهم ، حضارتهم وثقافتهم ، معيشتهم

---

(١) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٣ ، ص ٢ إلى ٣٣) .

ومعاشرتهم، مساكنهم وملابسهم، مطاعمهم ومشاربهم، مهنهم وحرَفهم، وترى فيه مدارج الارتقاء للحياة العقلية من سذاجة البدو إلى شعَور الفلاسفة، فتوجد فيه أدعية ابتدائية تنتهي بالارتياب، وألوهية تترقى إلى وحدة الوجود.

والويدات عبارة عن أربع كتب دينية هي :

١ - الريج ويدا (Rig Veda) وهو أشهر الأربعة وأهمها وأشملها كما سيظهر من مقارنة موضوعاته بموضوعات الويدات الثلاث الأخرى، ويقال أن تأليف الريج ويدا يرجع إلى ٣٠٠٠ ق.م، وتشمل ١٠١٧ أنشودة دينية وُضِعَتْ ليتضرع بها أتباعها أمام الآلهة أو يتغنون بها عن الآلهة، وأشهر الآلهة الذين ورد ذكرهم فيها هو الإله اندرا إله الآلهة، ثم يجيء بعده الإله أغنى إله النار وراعي الأسرة، فالإله فارونا، فالإله سوريَهَ (الشمس) وغيرَهم[١].

ولايزال الهنود يتغنون بأناشيد من الريج ويدا، يرتلونها في صلواتهم صباحا ومساء، ويتيمّنون بتلاوتها في حفلات زواجهم كما كانوا يفعلون منذ ثلاثة آلاف عام[٢].

٢ - ياجسورويدا (Yajur Veda) وتشمل العبادات النثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

٣ - ساما ويدا (Sama Veda) وتشمل الأغاني التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

٤ - آثار ويدا (Athar Veda) وتشمل مقالات في السحر والرُّقَى التوهُّمات الخرافية مصبوغة بالصبغة الهندية القديمة، فالحياة الهندية

---

(١) See also Hinduism p. 7.

(٢) Edward Thomas: The History of Buddhist Thought pp. 82. ff.

كما يصورها آثار فيدا مملوءة بالآثام، والكون حافل بالشياطين والأغوال، يخوِّفون الناس، والآلهة كفت أيديها عن الخير، لم تعد تدفع الشر، ويروى آثار فيدا لجوء الناس للخرافات والرُّقَى والسحر ليحموا أنفسهم.

وكل من هذه الويدات الأربعة يشتمل على أربعة أجزاء هي سَمْهتا وبرَهْمَن وآرَنْيك وأبانيشاد، وهي بهذا الترتيب من حيث قدمها التاريخي وستحدث عن كل منها فيما يلي :

١ - سَمْهتا (Samhita) أو مجموعة المنظومات لكثرة المنظوم فيها، ومنظومات الريج ويدا أهمها، وقد تكرر أكثرها في ساما ويدا، وهذه المنظومات يُتَغَنَّى بها عند تقديم القرابين، ويشمل سمهتا من ياجور ويدا بعض الأدعية التى تقرأ عند تقديم القرابين كذلك، أما منظومات آثار فيدا فأدعية كان يقدمها سكان الهند الأقدمون لآلهتهم قبل زحف الآريين، وإذاً فلها قيمة تاريخية ودينية عظيمة، وتمثل السمهتا مذهب الفطرة فى التفكير الهندوسي.

٢ - البَراهمن (Brahman) أو الهدايات التى يقدمها البراهمة للمقيمين في بلادهم وبين أهليهم[1] ، وتشمل بيان أنواع القرابين وتفاصيلها ومراسمها، وتبيان أن إرضاء البراهمة ضرورى لقبول القرابين، ويمثل البراهمن مرحلة أقرب إلى التحضر فى التفكير الهندوسي[2] .

٣ - أرَنْيك (Aranyaka) أو الغابيّات أو الهدايات والإرشادات التى تقدَّم للشيوخ المعمرين الذين يتركون أهليهم فى الربع الرابع من

(١) سنرى - فيما بعد - فترات الحياة التى ينبغى أن يقضيها الإنسان مع أهله أو فى الغابات.
(٢) Weech and Rylands: The Peoples and Religions of India p. 307.

أعمارهم - كما سيأتي - ليقيموا في الكهوف والغابات، والأرنيك تهدى أمثال هؤلاء إلى أعمال سهلة يقومون بها بدل القرابين التى أصبحوا يعجزون عن تقديمها.

٤ - أبانيشادات (Upanishad) وهى الأسرار والمشاهدات النفسية للعرفاء من الصوفية، وتدون هذه إرشادا للرهبان والمتنسكين الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها، وتمثل الأبانيشادات مذهب الروح الذى هو المرتبة العليا فى سلسلة الارتقاء الدينى.

وتعتبر الأبانيشادات خطوة جريئة فى سبيل الحرية الدينية وتخليص الدين من الرسوم البرهمية، وبها أبعدت الآلهة أو قلَّ الاهتمام بها، وهدأت الأدعية وندرت القرابين، وانحطت المراقبات اللاهوتية، وحلَّ العلم والعرفان محل ذلك، ولولا بقايا من الشعور الدينى لكانت الأبانيشادات فلسفة محضة.

والناظر إلى هذه الأقسام الأربعة يلاحظ أن السمهتا تمثل دين الفطرة أو الفكر البدائى، أما البراهمن فيمثل مذهب القانون ودين الأمة التى تركت البداوة ولم تتعمق بعد فى الحضارة، أما الأرنيك فينقل الفكر من القانون إلى الروح فهم مَعْبَرٌ تاريخى، وتجئ بعده الأبانيشادات حيث مذهب الروح الذى هو المرتبة العليا فى سلسلة الارتقاء الدينى، وقد وضعت الأبانيشادات فى المدة من ٨٠٠ إلى ٦٠٠ ق.م[١].

نماذج من الويدا:

فيما يلى نماذج من الريج ويدا مترجمة عن السنسكريتية:

---

(١) المرجع السابق ص ٦ - ٧ وانظر كذلك:
Religions of The World of Berry p. 40.

أغنية لإندرا إله الآلهة [1]

هو الأعلى من كل شيء وهو الأسنى
إله الآلهة ذو القوة العليا
الذى أمام قدرته الغالبة
ترتعد الأرض والسماوات العالية
أيها الناس استمعوا لشعرى
إنما هو إندرا إله الكون

****

هو الذى قهر الشياطين فى الحساب
وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار
واقتحم كهوف الكآبة والأكدار
وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام
وأضاء النار القديمة من البرق فى الغمام
ذلك هو إندرا البطل الجسور

****

الجيش المتقدم للهيجاء
يناديه للنصرة يوم الحرب
الأعزاء بصيته الذائع يهتفون
والأذلاء يذكرون اسمه بشفاههم ويهمسون
وقائد الجيش على العجلة الحربية
يدعو ويستنصر إندرا إله الحرب

****

(١) من ترجمة الأستاذ محمود على خان.

الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله
والجبال المرتعدة تخر له وتسجد لجلاله
هو الذى يرسل صواعق السماء على أعدائه
فلتُهْدَ إليه السكائب المقدسة
فإنه يقبل هذه الخمر ويمنحنا رضاه
ويستمع للشعر وأغانى الولاء

****

له البقرات وأفراس الوغى
له القُرَى والمساكن وعجلات الحرب
هو يرفع الشمس بيده اليمنى
ويفتح الأبواب الحمر من شفق الفجر
فيمزق السحاب الأحمر تمزيقا
ويرسل شآبيب المطر لنصدق به تصديقا

أغنية للشمس

يجىء بالشمس جيادها الحمر، فيصل الفجر العظيم الجميل الذى ينعش الجميع بضيائه، وتأتى الإله على مركبة فخمة وتوقظ الإنسان ليقوم بعمل نافع.

أغنية لأغنى إله النار

حينما أرى هذا الكائن المنير فى قلبى تدوِّى أذناى وتختلج عيناى، وتتيه نفسى فى ارتياب، فماذا أقول وماذا أفكر؟

فيا أغنى مجَّدتك جميع الآلهة واجفة ماتواريت فى الظلام.

وسيأتى مزيد من الاقتباسات من الويدا عند الكلام عن النقاط الأخرى المتصلة بالهندوسية.

٢ - الله في التفكير الهندوسي

التعدد والوحدانية في الفكر الهندي :

يوجد في التفكير الهندوسي فيما يختص بالإله نزعتان مختلفتان تمام الاختلاف، وهما نزعة الوحدانية ونزعة التعدد وإن كانت نزعة التعدد أقوى وأكثر انتشاراً.

وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغاً كبيرا، فقد كان عندهم كما سبق القول لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعدونه، ويستنصرون به في الشدائد، كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها، وكانوا يدعون تلك الآلهة لتبارك لهم في ذريتهم وأموالهم من المواشي والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم[١].

ولم يصل الهندوس إلى عبادة هذه الظواهر دفعة واحدة، وإنما مرُّوا بمراحل انتهت بهم إلى عبادتها. ويصور الأستاذ محمد عبد السلام مراحل هذا الانتقال بقوله: وكانت المظاهر الكونية الجميلة والمناظر العظيمة باعثة لإيقاظ الشعور الديني فيهم، فأعجبوا بهذه المظاهر واستمتعوا بها، وشكروا لها وامتنوا، وأثنوا عليها، ثم ظنوا أن لهذه المظاهر أرواحاً ونفوساً كما أن لهم هم أرواحاً ونفوساً، واعتبروا هذه الأرواح قوى كامنة وراء المظاهر وبيدها أن تمنحهم هذه المظاهر التي أعجبتهم أو تحجبها عنهم، فتقربوا إليها بالعبادة والقرابين واعتبروها آلهة. ودعوها عند الحاجات[٢].

وعلى هذا كثرت الآلهة عندهم كثرة زائدة، ولكنهم في وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو إلى اتجاه قريب منه، فقد كانوا إذا دعوا إلها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان، أقبلوا عليه بكل عواطفهم

---

(١) محمود علي خان : في التقديم لأناشيد الريج ويدا ص ٧٧.
(٢) فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند مارس ١٩٥٣ ص ١٠)

وجلٌ ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والأرباب[١] ، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية ، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة تعظيما وإجلالا ، لاتحقيقا وإيقانا ، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة ، فهذا التعبير «رب الأرباب أو إله الآلهة» كان أولاً على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلا أن فى صف الآلهة رئيسا ومرءوسين وآمراً ومأمورين ، وأن الرئيس والآمر هو وحده رب الأرباب وإله الآلهة ، وهذا وصف ثابت له لاينتقل إلى سواه ، والكائنات كلها تحت يده ، وسائر الآلهة تحت أمره[٢] .

التثليث فى الفكر الهندى :

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى إبراز هذه النتيجة التى تقرب من التوحيد أو تصل إليه ، فقد جمعوا الآلهة فى إله واحد ، وقالوا إنه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه ، ثم يهلكه ويرده إليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو براهما من حيث هو موجد ، وهو فشنو من حيث هو حافظ ، وهو سيفا من حيث هو مهلك[٣] .

وهكذا فتح الكهنة الهنود الباب للمسيحيين فيما يسمى : تثليثٌ فى وحدة ووحدةٌ فى تثليث[٤] .

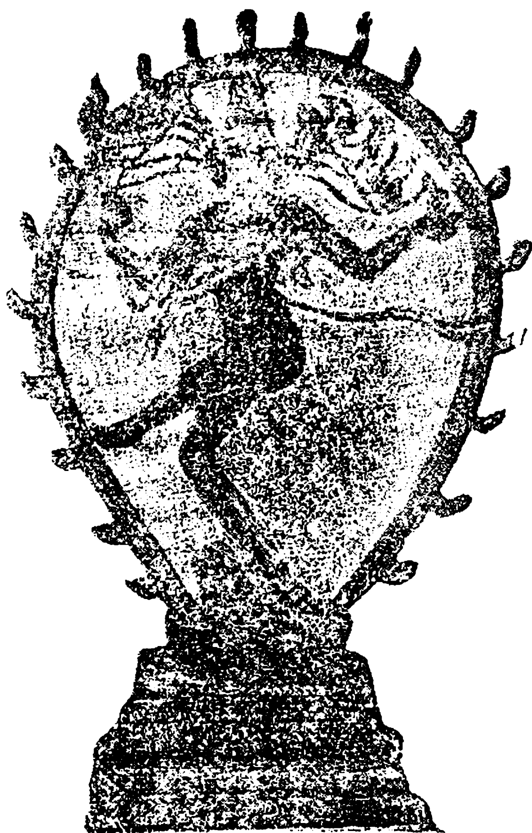
---

(١) Hinduism, Ed. by Lewis Renou p. 6.

(٢) محمد عبد السلام : المرجع السابق بتصرف .

(٣) دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ، ص١٢ .
Berry: Religions of The World p. 40. See also Hinduism, Ed. by Lewis Renou p. 6.

(٤) انظر كتاب «المسيحية» للمؤلف ص ٧٨ ومابعدها .



تمثال الإله « سيفا » رب الدمار

فبرهما اسم الله فى اللغة السنسكريتية، وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته، لاتدركه الحواس. ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها، لاحدَّ له، وهو الأصل الأزلى المستقل الذى منه يَسْتَمِدُّ العالم وجوده، وجاء فى كتاب (الباجافاتا بورانا) وهو من الكتب الهندَية المقدمة أن كاهناً توجه إلى الآلهة برهما وفشنو وسيفا وسألهم: أيكم الإله بحق؟ فأجابوا جميعا: أعلم أيها الكاهن أنه لايوجد أدنى فارق بيننا نحن الثلاثة، فإن الإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال بأعماله من خَلْق وحفظ وإعدام، ولكنه فى الحقيقة واحد، فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنه عبدها جميعا، أو عبد الواحد الأعلى[1].

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الثالوث الجديد ظهر متأخراً نتيجة للتطور الذى سقناه، ومن أجل هذا ليس له ذكر فى الويدا، أما الآلهة الواردة بالويدات فعديدة، ولكنها اجتمعت فى ثلاثة آلهة رئيسية هم: فارونا فى السماء، وإندرا فى الهواء، وأغنى على الأرض[2].

الاحتفال بالمعبودات الهندية:

وقبل أن نطوى صفحة الكلام عن آلهة الهنود يجدر بنا أن نقتبس من كتاب Hinduism وصفه الرائع للاحتفال بالمعبودات الهندية، ومن هذا الكتاب يتضح أن من أهم الشعائر الدينية أن يُعَدَّ التمثال أحسن إعداد. وأن يقام فى المعبد، ويعامله عُبَّاده كأنه حى يسمع ويعى: يدهنونه بالزيوت ويضمخونه بالطيب، ويُحْتَفى بالإله الجديد الذى يدخل المعبد لأول مرة احتفاء واسعاً، يتجه الكل للترحيب به، وحسن استقباله، كأنه ضيف عظيم، يُغْسَل بالعطور، ويكسى بأحسن اللباس، ويزين بالجوهر واللؤلؤ، ويوضع أمامه أحسن طعام وأشهى شراب، ويحاط بالزهر والريحان،

(١) محمد فريد وجدى: دائرة المعارف جـ ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص ١٥٥ و ١٥٦.

وتطوف به الجماعة منحنية ضارعة، على أنغام الموسيقى، ودخان البخور، وأصوات الغناء.

ويستمر هذا الكتاب ليقرر أن بعض الهنود يرون فى التمثال إلههم، ويراه آخرون رمزاً للإله. ويخضع العابد إلى شعائر دقيقة لتُقبَل توسلاته وعبادته؛ فهو يبدأ بأن ينظف نفسه، ويقلل من الطعام أو يصوم. ويتخذ أمام إلهه جلسة خاصة، ويشير إليه بإصبعه فى خضوع، ويحبس أنفاسه ما أمكن، وهذه الصلاة تتكرر ثلاث مرات فى اليوم ويصحبها قربان من أى نوع، ولا يطول وقتها فى العادة إلا بالنسبة لهؤلاء الذين لهم مطلب يرجون عون الآلهة لتحقيقه.. أو أولئك الذين يميلون للنسك ويريدون مزيدا من التقرب للآلهة، فأمثال هؤلاء يقدمون قرابين أكثر وتطول صلاتهم أمام الآلهة[1] .

والاحتفالات أو الصلوات اليومية يمكن أن تجرى فى البيت، إذ لا يكاد يخلو بيت من معبود، أما الاحتفالات العامة فتجرى فى المعبد أو فى الخلاء، ويستغرق بعضها ساعة أو ساعات، ويمتد بعضها إلى عدة أيام، وبعضها يتصل بمواسم زراعية أو فيضان أنهار أو هطول أمطار، وبعضها يتصل بالمعبود نفسه، بما يشبه ما نسميه فى البلاد العربية «المولد» وبعض المعبودات له شهرة واسعة تَجلبُ له الحجاج فى أثناء الاحتفال به من أقاصى شبه الجزيرة، وبعضها يُحتَفَل به احتفالا محلياً أى فى القرية أو فى مجموعة القرى المتجاورة فقط، وهكذا.

وقد ورد الحديث عن برهما وعن خلق الكون فى كتاب «قوانين منو» ومنه ننقل الفقرة التالية التى تشرح هذا الموضوع :

فى المبدأ كان الكون مغموراً فى غيابة الظلام، ولا يمكن إدراكه، وخاليا

---

(1) Hinduism pp. 15 - 16.

من كل وصف مميز، لايستطاع تصوره بالعقل، ولا بالوحى، كأنه فى سبات عميق، وانقضى على هذا أمد طويل، ثم تعلقت إرادة المولى الموجود بذاته التى لاتدركها الأبصار، فجعل هذا العالم مرئيا هو وعناصره الخمسة وأصوله الأخرى، متلألئا بالنور الأقدس، فاشعا الظلام الحالك، فاقتضت حكمة برهما الذى لايدركه إلا العقل أن يبرز من مادته المخلوقات المختلفة، فأوجد الماء أولا، ووضع فيه جرثومة، فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب، وعاشت داخلها الذات الصلبة على صورة برهما وهو جَدّ جميع الكائنات، فبعد أن لبث برهما فى البيضة سنة برهمية وهى تعادل ملايين السنين البشرية قسم المولى بمحض إرادته هذه البيضة قسمين وصنع منهما السماء والأرض والكائنات.. وعين لكل كائن اسمه، وخلق عددا عديدا من الآلهة وخلق طائفة غير مرئية من الجن، وخلق الزمان وأقسامه، والكواكب والأنهار والبحار والجبال..[1].

وهناك رواية أخرى عن خلق الكون ترويها الأساطير الهندية، وفحوى هذه الرواية أن الروح الكونى تشكل بالشكل الإنسانى، ثم نظر حوله فلم يجد هناك شيئا غير نفسه، فصرخ بملء فيه «هأنذا» فوجدت من هذه الساعة كلمة «أنا» وشعر هذا الروح الكونى، أو الإنسان الأول بالخوف من وحدته، ولذلك يخاف الإنسان إلى الآن إذا كان وحيدا، ولكنه سأل نفسه: لماذا أخاف مادام ليس هناك أحد غيرى، وإنما يخاف الإنسان من غيره؟ ووجد نفسه لايشعر بالسعادة ولذلك لايشعر الإنسان بالسعادة إذا كان وحيدا، فرغب فى إيجاد قرين له، فقسم نفسه قسمين، قسم بقى على حاله، وتحوّل القسم

(١) انظر أيضا دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢، ص ١٥٧ - ١٥٨، وانظر الأساطير الهندية عن الكون وخلقه ص ٣٧.

الآخر إلى امـرأة فكانت هذه المرأة زوجتـه، ومن تلك السـاعة تسلسل خَلْقُ الإنسان[1] .

ونختم كلامنا عن الآلهة بإبراز أن هذه هى الآلهة عند طبقات الهندوس الأربعة التى يتكون منها المجتمع الهندوسى، أما المنبوذون فلهم تفكيرهم الدينى الخاص، إذ لم يكونوا محسوبين أعضاء بذلك المجتمع، ولم يكونوا تابعين للمجتمع الهندوسى، ولعل من الأفضل أن نتكلم هنا كلمة موجزة عن عقائدهم ووضعهم السياسى والاجتماعى فى عهد سيطرة الهندوسية .

دين المنبوذين :

المنبوذون - كما سبق القول - سكان الهند الأصليون الذين لايجرى فى عروقهم الدم التورانى أو الدم الآرى، ويسمون «زنوج الهند» وقد حرمهم المجتمع الهندوسى حقوق الإنسان، ونزل بهم إلى مستوى أقل أحيانا من مستوى الحيوان. ولم يسمح لهم بأن يعتنقوا الدين الهندوسى، أو يتخلقوا بآدابه، وتُركوا هكذا فى حياة بدائية مريرة، ومن ثمَّ اتجهوا فى تدينهم إلى الأمور البدائية، فأصبح دينهم أشبه بعبادة الأرواح التى اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة، وأعظم الآلهة فى مجتمع المنبوذين ربما كان كومة من الآجُرّ تمثل أم القرية أو شيطانها الذى يمنح الخصب للعواقر، ويحمى المحصول من الآفات، ويرعى القرية بعنايته ورعايته، وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم، ولكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة[2] .

ولايزال المنبوذون يعانون هذا أو أكثره حتى اليوم، فالحرف الحقيرة وقفٌ أو ضريبة عليهم، ودور العلم لاتفتح لهم إلا قليلا، وقد دفع هذا الوضع برؤسائهم أن يهددوا باعتزال الهندوس والدخول فى مجتمعات

(١) الأساطير الهندية عن الكون وخلقه، ص ٣٤ .
(٢) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى، ص ٢٨ - ٣٩ .

الأديان الأخرى، ومن أجل هذا فقط خفَّت حدة المعاملة التى كان يعاملهم بها الهندوس؛ خوفا من أن ينضموا إلى الأديان الأخرى التى تحارب الهندوسية، وساعد على ذلك ما أصدرته الحكومة الهندية من قوانين المساواة التى إن لم تحقِّق المساواة الكاملة، فقد حسَّنت حال هؤلاء المساكين بعض الشيء.

وقد انتهزت فرق التبشير المسيحي هذا الوضع فتوغلت بين جماعات المنبوذين تدعوهم للدخول فى المسيحية، وللمسلمين - للأسف - جهود محدودة نحو تقديم الإسلام لهؤلاء المنبوذين، ولاتزال المعركة تدور.

٣ - الطبقات فى الفكر الهندوسى

سبق أن أشرنا إلى نظام الطبقات فى الهند، وذكرنا أن المجتمع الهندى يتكون من أربع طبقات هى : ١ - البراهمة ٢ - الجند ٣ - التجار والصناع ٤ - الخدم والعبيد، ولايدخل المنبوذون فى هذا التقسيم، وقلنا أن هذا التقسيم نشأ عن التقاء الآريين بالتورانيين والسكان الأصليين، ومعنى هذا أنه نشأ أول مانشأ على أساس الجنس، ويؤيد Weech هذا الرأى، فهو يقول: وكان الآريون شعبا يفوق فى نشاطه وحيويته السكان الأصليين، وكانوا يعتقدون اعتقادا جازما بسُمُوّ جنسهم على سواهم من الأجناس، وكلمة «آرى» التى عُرِفوا بها معناها «النبلاء»[1] .

ونحن فى مصدر هذا التقسيم نختلف مع مؤلف «تاريخ الإسلام فى الهند» فهو يرى أن الحياة بالهند «اقتضت أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية، ويقوم آخرون بالحروب، وكان من الطبيعى أن توجد جماعة تقوم بالعمل فى الحقول..»[2] ونسأل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يكن

---

(١) Weech: The Peoples and Religions of India pp. 311 - 312.

(٢) تاريخ الإسلام فى الهند، ص ٢٧ - ٢٨.

الآريون أو بعضهم مثلا هم الذين يقومون بالزراعة أو الخدمة، إن المسألة - فيما نرى - ليست مقتضيات الحياة، ولكنها مقتضيات السيادة والقوة التى لاحظها الآريون فى أنفسهم.

ونختلف كذلك مع بروفسور أتريا الأستاذ بجامعة بنارس فى الهند الذى يرى أن الهنود القدماء نظموا حياتهم الاجتماعية على طبقات أسموها شاتر فارنا "Chatur Varna" وهذا التنظيم قائم على أساس اختيار المهن، ولايمت بصلة إلى هذه الطائفية الممقوتة الحاضرة التى ابْتُلِيَتْ بها الهند، لأنها ابتليت بالحكم الأجنبى الذى دام عدة قرون، وأن نظامَ الطبقات ما أريد به قط تمزيق المجتمع بل توحيده على أساس تقسيم العمل. . فمن الناس قسم يولع بالعلم فَيُتْرَك له العلم ويكوِّن طبقة البراهمة، والقسم الثانى هواه فى الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب ومنهم تتكوَّن الكشتريا، والقسم الثالث أولئك الذين جبلوا على حب المال فليكونوا تجارا وزراعا (ويشيا)، والقسم الرابع الذين خلقوا أغبياء بلداء فلا يصلحون لغير المهن السافلة والقيام بالخدمة وتتكون منهم طبقة الشودرا»[1].

ونسأل بروفسور أتريا: هل لو مال أحد من الشودرا للعلم وعَشقَه كان يباح له أن يصبح برهمياً؟ وألا يوجد فى طبقة الكشتريا خامل أو بليدَ؟ وإذا وُجد بها خامل أو بليد هل يمكن أن ننحدر به إلى طبقة الشودرا؟

الإجابة دائما بالنفى، فالطبقية مصدرها العرق وسيادة الجنس أكثر من أى شىء آخر.

ويقول Wells[2] عن هذه الطبقات: كان المجتمع الهندى بعد الغزو الآرى مقسما إلى طبقات لايؤاكل بعضها بعضاً، ولاتتزاوج، ولاتختلط

(١) ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية ص ٥٢ - ٥٣.
(٢) A short History of The World pp. 121, 122.

اختلاطا حرا، ثم استمر هذا التقسيم الطبقى أمد التاريخ كله، وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الأوربية والمغولية؛ البسيطة السهلة التزاوج، فهو فى الحقيقة مجتمع مجتمعات.

ويشير Weech إلى نقطة مهمة هى أن نظام الطبقات بدأ يظهر عندما بدا اختلاط سَمَحَ بتكوّن مجتمع موحَّد من هذه العناصر المتباينة، أما قبل هذا الاختلاط فلم تكن هناك ضرورة لتكوين هذا النظام، فنظام الطبقات كان وسيلة للمحافظة على سلامة العرق السامى بعد أن خيف عليه من الاندماج فى الأجناس الأخرى التى بدأ يتصل بها. ويؤكد Berry ذلك إذ يقرر أن نظام الطبقات لم يظهر إلا فى قوانين منو حوالى القرن الثالث قبل الميلاد(١).

ويذكر Weech كذلك أن هذه الطبقات الأربعة ليست فى الحقيقة إلا تبسيطا للحديث عن نظام الطبقات فى الهند، إذ أن الهنود مجتمع تنتشر فيه الطبقات حتى أن عدد طبقاته الآن يبلغ حوالى ثلاثة آلاف طبقة(٢).

ويذكر Berry أن طبقة الكهنة حافظت طويلا على نقائها، أما الطبقات الثلاثة الأخرى قد تفتتت ونشأ عنها طبقات كثيرة(٣).

بقى أن نقول عن المنبوذين أنهم لم يدخلوا التقسيم، ولم يكونوا إحدى طبقات المجتمع الهندوسى، إذ لم يعدّوا منه، وقد سبقت الإشارة إلى هذا.

على أن الفلسفة الهندية لم تقنع بالجنس والعنصر سبباً لنشأة نظام الطبقات، بل رأت أن تربطه بنص مقدس، فورد فى قوانين «منو» التى اقتبسنا منها بعض فقراتها آنفا سبب هذه الطبقات، يقول «منو» وهو يعدِّد

---

(١) Religion of the World p. 40.

(٢) The Peoples and Religions of India p. 31.

(٣) Religions of the World p. 42.

خلق برهما للكائنات: «.. ثم خلق البرهمي من فمه، والكاشتريا من ذراعه، والويشا من فخذه، والشودرا من رجله، فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هذا النحو».

وبناء على هذا التفكير الذى يرى أن الطبقات خلقها الله على هذا الوضع يصبح هذا التقسيم أبدياً، فهو من صنع الله ولا طريق لإزالته، وعلى هذا لا يرتفع أى شخص من أى قسم إلى قسم أعلى.

وبناء عليه كذلك، وعلى الاعتقاد بأن الابن يأتى على نمط أبيه، لايجوز لرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته، لعدم الكفاءة. ولأن أولاده منها سيهبطون إلى مستواه، وهذه خسارة على التكوين الاجتماعي، ولكن يجوز للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أقل من طبقته على ألا تكون من الطبقة الرابعة (الشودرا) التى ليست إلا للخدمة، ولاتسمو لأن يتزوج منها أحد أفراد الطبقات العليا الثلاثة، وجاء فى قوانين «منو» أن الرجل من الطوائف الثلاثة الشريفة إن غلبه الحب فتزوج بامرأة من غير هذه الطوائف فإنه سوف يرى هلاك أسرته[(١)].

ويتبع نظام الطبقات كذلك أن تُلاحَظَ أسماء الأطفال من كل طبقة، فيُختار الاسم من الكلمات الدالة على البهجة والسرور إن كان برهمياً، وعلى الحول والقوة إن كان كشتريا؛ وعلى الغنى والثروة إن كان ويشيا، وعلى الذل والمهانة إن كان شودرا[(٢)].

وتلتقى هذه الطبقات الأربعة فى الاعتقاد بالآلهة، وكلها تقدس البقرة. وكلها تخضع للنظام الطبقى، والبراهمة هم ملجأ الجميع فى حالات الميلاد والزواج والوفاة[(٣)].

---

(١) الفقه الهندوسى الأكبر ص ٢٣.
(٢) الفقه الهندوسى الأكبر ونفس الصفحة.
(٣) See Hinduism p. 34 - 35.



وقد تحدثت شرائع «منو» بالتفصيل عن وظائف كل طبقة على النحو الآتى : ولكل طبقة من طبقات المجامع الهندوسى وظائفها وواجباتها فعلى البرهمى أن يشتغل بالتعلم والتعليم، وبإرشاد الناس فى دينهم، فكان هو المعلم والكاهن والقاضى، أما كشتريا فكانت وظيفته أن يتعلم ويقدم القرابين، وينفق في الصدقات، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه وشعبه، أما ويشيا فعليه أن يزرع ويتجر ويجمع المال وينفق على المعاهد العلمية والدينية، وأما شودرا فعليه أن يخدم الطوائف الثلاثة الشريفة[1] .

ومن شرائع «منو» نورد بعض النصوص التى تقرر اختصاصات كل طبقة :

البراهمة:

«يقوم البراهمة بدرس أسفار الويدا، وتعليمها، وتبريك تقديم القرابين التى لاتُقبل من الناس إلا عن طريقهم . ويجب أن يحافظ البرهمى على كنز الشرائع المدنية والدينية .

«وإذا وُلد برهمى وضع في الصف الأول من صفوف الدنيا .

«البرهمى محل لاحترام جميع الآلهة بسبب نسبه وحده، وأحكامه حجة فى العالم . والكتاب المقدس هو الذى يمنحه هذا الامتياز .

«كل مافى العالم ملك البرهمى . وللبرهمى حق فى كل موجود .

«والبرهمى إذا ما افتقر حقٌ له أن يمتلك مال الشودرى الذى هو عبد له من غير أن يجازيه الملك على مافعل . فالعبد وماعلك لسيده .

«ولايدنس البرهمى بذنب ولو قتل العوالم الثلاثة .

«ولاينبغى للملك أن يجبى خراجا من برهمى عالم بالكتاب المقدس

(١) الفقه الهندوسى الأكبر .

ولو مات الملك محتاجا. ولايجوز له أن يصبر على جوع برهمى فى ولايته.

«وليتجنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم، وليطرده - إذا رأى - من مملكته، على أن يترك له جميع أمواله وألا يصيبه بأذى.

«وعلى الملك ألا يقطع أمراً مهما كان دون استشارة البراهمة».

الأكشترية:

«إن الذين تغذت عقولهم بكتب ويدا وغيرها هم الذين يصلحون لأن يكونوا قواداً أو ملوكاً أو قضاة أو حكاما للناس.

«يُنصَّب الملك فى الأكشترية، وللملك على الأكشترية احترام الجنود لقائدهم.

«ويجب ألا يُستَخَفَّ بالملك ولو كان طفلا، وذلك بأن يقال أنه إنسان، فالألوهية تتجسم فى صورة الملك البشرية.

«ولايجوز للأكشترى أن يشتغل بغير الجندية. والأكشترى يعيش جندياً حتى فى وقت السلم.

«وعلى الأكشترية أن يتجمعوا عند أول نداء وعلى الملك أن يعد لهم عُدَدَ الحرب وأسلحته.

«لاتُبارك موارد الملك ووسائله ولو نال كنوزا واكتسب أملاكاً إلا إذا أصبح صديقا للضعيف».

الويشية:

«يجب على الويشى أن يتزوج امرأة من طائفته، وأن يُعْنَى جاداً بمهنته، ويربى الماشية على الدوام.

«وعلى التجار منهم معرفة قوانين التجارة ونظم الربا.

«وليعلم الويشي جيدا كيف يبذر الحبوب، وليفرق بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة، وليطلع على نظام الموازين والمكاييل اطلاعا كافيا».

«وليعرف أجر الخدم ولغات الناس، وماتحفظ به السلع، وكل مايمتُّ إلى البيع والشراء بصلة».

الشودرا :

«يجب على الشودرى أن يمتثل امتثالا مطلقاً أوامر البراهمة، سادة الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل، فترجى له السعادة بعد موته ببعث أسمى».

«لايجوز للشودرى أن يجمع ثروات زائدة ولو كان على ذلك من القادرين، فالشودرى إذا جمع مالا آذى البراهمة بقحته.

«ويجب نفى ابن الطبقة الدنيا الذى تحدثه نفسه بأن يساوى رجلا من طبقة أعلى من طبقته وأن يوسم تحت الورك.

«وتقطع يده إذا علا من هو أعلى منه بيده أو بعصاه، وتقطع رجله إذا رفسه برجليه».

«وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته بدون تقدير أُدْخِل إلى فمه خنجرٌ محمًّى متلوث النصل طوله عشرة قراريط.

«ويأمر الملك بصب زيت حار فى فمه وفى أذنيه إذا بلغ من الوقاحة مايبدى به رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم».

ولايزال النظام الطبقى سائدا فى الهند وقد اتخذ أحيانا أسسا جديدة، فمن ذلك مثلا أتباع مذهب «السيك» الذى أنشىء لخلق دين موحَّد من الهندوسية والإسلام، ولم يفلح هؤلاء فيما قصدوا إليه؛ ولكنهم سرعان

ماالتخذوا من مذهبهم أساسا لنظام طبقى، فقد عدوا أنفسهم طبقة ورفضوا التزاوج مع سواهم، ووضعوا كذلك نظام القرية الذى لايسمح أحيانا بالزواج بين سكانها وسكان قرية أخرى[1].

وهناك محاولات تَزَعَّمها الزعيم غاندى للتخفيف من حدة هذه الطبقات أو إزالتها، وكذلك لإنصاف طبقة المنبوذين بوجه خاص، ولكن هذه المحاولات لم يُقَدَّر لها النجاح بعد، وكان الزعيم غاندى ضحية من ضحاياها، وتعتمد هذه المحاولات على اتجاه فلسفى جديد لهذا التقسيم، بأن تذكر بأنه ليس خلقياً ولا طبيعياً، وليس إلا توزيعاً للأعمال حسب طبع كل إنسان وميله واستعداده[2] كما مرّ.

٤ - أهم عقائد الهندوسية

أهم العقائد فى الديانة الهندوسية أربعة، هى :

١ - الكرما. ٢ - تناسخ الأرواح أو تجوال الروح.

٣ - الانطلاق. ٤ - وحدة الوجود.

وسنشرح فيما يلى رأى الهندوس فى كل من هذه العقائد :

١ - الكارما :

يقول البروفسور أتريا[3] : أن الشهوة أقوى عامل فى حياتنا، ولكن شهواتنا تؤثر على الآخرين، فنحن فى أعمالنا التى تفرضها الشهوات نحسن إلى الآخرين أو نسىء، فلابد أن ينطبق علينا «قانون الجزاء» المسيطر

(١) See Hinduism p. 34 - 35.

(٢) انظر كتاب كرشنا كيتا (ثقافة الهند يونيو ١٩٥٠ ص ٥٢، يونيو ١٩٥٢، ص ٥٧).

(٣) ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ص ٤٢ - ٤٣.

على حياة سائر الأحياء الحرة في الكون، وقانون الجزاء يسمى في اللغة السنسكريتية (Karma) وليس لأحد أن يتملص منه، وقد جاء في كتاب «يوجا واسستها» مايلي: ليس في الكون مكان - لا الجبال، ولا السموات، ولا البحار، ولا الجنات - يفر إليه المرء من جزاء أعماله، حسنة كانت أو سيئة[1].

وجميع أعمال البشر الاختيارية التي تؤثر في الآخرين، خيرا كانت أو شرا، لابد من أن يُجازى عليها بالثواب أو العقاب طبقا لناموس العدل الصارم، فنظام الكون إلهي قائم على العدل المحض، وأن العدل الكوني قَضَى بالجزاء لكل عمل، وأن في الطبيعة نوعا من النظام لايَتْرُك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء في هذه الحياة[2].

ولكن الهندوس لاحظوا من واقع الحياة أن الجزاء قد لايقع، فالظالم قد ينتهي دون أن يُقْتَصَّ منه، والمحسن قد ينتهي دون أن يُحْسَن إليه، ولذلك لجأوا إلى القول بتناسخ الأرواح - وسنشرح هذا فيما بعد - ليقع الجزاء في الحياة القادمة إذا لم يتم في الحياة الحاضرة.

ويبدو أن بروفسور أتريا لاحظ صعوبة فهم هذا القانون فتدارك هذا قائلا: لا صعوبة علينا معشر الهندوس في فهم هذا الناموس، ناموس كارما وإن لم يسهل على غيرنا فهمه.

وتحاول فلسفة اليوجا تقريب موضوع الكارما إلى الأذهان فتذكر أن حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعاً لما نقوم به من أعمال، وهذا يشبه مايقال عندما تقع مصيبة على شخص فإننا نقول: «من عمله» إذ الجزاء من جنس

---

(١) Yogs Vasistha III p. 95.

(٢) Edward Thomas: The History of Buddhist Thought p. 107.

العمل، ولكنا نعرف هذا فى نفس الحياة فالظالم يُظْلَم والمُعين يُعان، ولكن الكارما تجعل جزاء حياة فى حياة أخرى[١]

٢ - تناسخ الأرواح :

يطلق بعض الباحثين على هذه العقيدة تعبيرا اصطلاحيا آخر هو «تجوال الروح» وقد يطلق عليها «التناسخ» فقط، ويطلق عليها كذلك «تكرار المولد»، والتناسخ رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضى فى جسم آخر.

وسبب التناسخ أو تكرار المولد هو (أولا) أن الروح خرجت من الجسم ولاتزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادى لم تتحقق بعد، و(ثانيا) أنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة فى علاقاتها بالآخرين لابد من أدائها. فلا مناص إذاً من أن تستوفى شهواتها فى حيوات أخرى، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التى قامت بها فى حياتها السابقة[٢].

فالميل يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم الفعل فى هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا ففى جسد غيره، فقد خلقت الميول لتُستَوفَى، وإذا لم تستوف لم ينج الإنسان من تكرار المولد، وإذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما، وأزيلت الديون فلم يرتكب الإنسان إثما ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب، نجت روحه وتخلصت من تكرار المولد، وامتزجت بالبرهما، سواء كان الاكتمال فى جسد واحد أو أجساد متعددة[٣].

---

(١) فلسفة الكارما تأليف يوجى راما شاراكا، تعريب عريان يوسف، ص ١٦٧، وراجع هامش المترجم.

(٢) بروفسور انربا : ثقافة الهند ووجهاتها الروحية ص ٤٢.

(٣) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند، مارس ١٩٥٣، ص ٣٠).
وانظر كذلك : Berry: Religions of the World p. 41.

فجسد الإنسان المادى هو الذى يولد من جسدى الوالدين، وأما الذى يحركه وينشطه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الآلية المحركة، والعناصر اللطيفة، والعقل. فإذا حدث مانسميه الموت، مات الجسد المادى وتوقف وبلى، أما الجسد اللطيف فلا يموت بل يخرج ويعمل مدة من الزمن فى آفاق الكون اللطيفة التى تشبه حالة أحلامنا، فيجرب هناك الجنة والنار التى تكلمت عنها الكتب الدينية، ثم يعود - مسوقا بالميول والأعمال الماضية - كرَّةً أخرى إلى هذه الحياة متقمصا جسداً جديداً، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية، فتوجد الروح فى إنسان أو حيوان أو ثعبان، ويسعد أو يشقى نتيجة لما قدم من عمل فى حياته السابقة[١] .

ومن الشروط اللازمة لتجوال الروح، أن الروح، أن الروح فى عالمها الجديد لاتذكر شيئا عن عالمها السابق، فكل دورة منقطعة تماما بالنسبة للروح عن سواها من الدورات[٢] .

وهنا نجد الديانة الهندوسية تلتقى مع الأديان السماوية فى جانب، ولكنها سرعان ماتبتعد عنها، فنقطة الالتقاء هى خلود الروح وحسابها على ماقدَّمَتْ، ولكن الأديان السماوية ترى الروح كائنا مستقلا بجسم، فهو يحاسب على ماارتكب مع هذا الجسم، ويتم الحساب بعد أن يعترف الإنسان بأخطائه ويذكِّره بها لسانه الذى نطق، ويده التى امتدت، ورجله التى سارت ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣]، أما فى الهندوسية فهناك انقطاع تام بين الدورتين، ومعنى هذا أن الروح تعاقب على ذنب لاتعرفه، لاتذكره.

---

(١) بروفسور اتربا: المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) ويدانت، ص ٤٣ و Berry: Religions of the World p. 41

(٣) سورة النور، الآية ٢٤.

وترى الأديان السماوية أن الأرض دار بلاء واختبار، وأن الآخرة دار حساب وجزاء، ولكن البرهمية اعتبرت الأرض دار جزاء وثواب.

وقد تسرب القول بالتناسخ إلى قلة من المسلمين، يقول ابن حزم[1]: افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين، فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجسام أخرى، وان لم تكن من نوع الأجساد التى فارقت، وهذا قول أحمد بن حافظ وأحمد بن ناموس تلميذه وأبى مسلم الخراسانى ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب الذى صرح بذلك فى كتابه الموسوم «العلم الإلهى» وهو قول القرامطة، وقال الرازى فى بعض كتبه: لولا أنه لاسبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شىء من الحيوان أو ذبحه البتة..

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه وهو القول بالتناسخ بأنه دعاوى وخرافات بلا دليل.

ومما تسرب إلى بعض فرق الشيعة متصلا بالتناسخ، القول بالرجعة، فهى عودة الروح لحياة جديدة ولكنها فى الرجعة تعود فى الجسم، أى أن الشخص نفسه جسما وروحا يعود للحياة بعد الموت، وقد قال بعض الإمامية بعودة على بن أبى طالب وقال أكثرهم بعودة الإمام الثانى عشر وهو المهدى وسموه «المهدى المنتظر» وقالوا أنه سيعود للأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت ظلما[2].

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ١، ص ٩٠.
(٢) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه، جـ٢، ص ٤٠٨ والجزء الثانى من التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى، ص ١٦٥.

٣ - الانطلاق :

سبق أن تكلمنا عن اكتمال الميول، ونريد هنا أن نزيد هذا الموضوع وضوحاً، فنقرر أن معنى اكتمال الميول والشهوات هو توقفها وتغلب الإنسان على نفسه بحيث لايُبْقِى له شهوة ولاميلا، بل يقنع بما حصل عليه ولايتطلب مزيدا فإذا تمَّ ذلكَ مع انقطاع عن الأعمال وعن علائق الدنيا ومافيها من ملاذ وعصيان تلك التى تستلزم تكرار المولد، إذا تم له ذلك نجا من تكرار المولد، وامتزج ببرهما. وهذه الحالة هى التى يعبرون عنها بالانطلاق، فالانطلاق هو الامتزاج ببرهما كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم، وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج فى الكائن الأسمى. وهذا الانطلاق لا يكتسب بالأعمال لأن الأعمال الصالحة يجازى عليها الإنسان عن طريق الميلاد المتكرر كالأعمال الشريرة تماما[1].

وقد ورد فى «أرنيك» مايلى: من لم يرغب فى شىء ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء، واطمأنت نفسه، فإنه لايعاد إلى حواسه، ويتحد بالبرهما فيصير هو، ويصبح الفانى باقيا.

ويؤخذ على هذا المبدأ أنه جعل التصوف والزهد والسلبية أفضل من صالح الأعمال، فهى الطريق للاتحاد بالله، أما صالح الأعمال فتنتج دورة جديدة فى الحياة تثاب فيها الروح على ماقدمت من خير فى الدورة السابقة.

٤ - وحدة الوجود :

هذا المبدأ وثيق الصلة بالمبادئ السابقة، بل يمكن القول إن هذه المبادئ كلها وثيقة الصلة بعضها ببعض، وقد سبق - عند الحديث عن الله فى

---

(١) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى، ص ٣٣.

التفكير الهندوسي - أن شرحنا كيف انبثق الكون عن الله، ثم - شرحنا - عند الكلام عن مبدأ الانطلاق - كيف يمكن أن يعود الإنسان إلى الاتحاد بالله، وفي الويدا مزيد لإيضاح الصلة بين الكون وبرهما مما أدى إلى اعتقادهم بوحدة الوجود، ولنقتبس من فلسفة الهند الخطوات التي قادت إلى هذا التفكير. فقد كان الناس يؤمنون بأن في العالم قوة عظيمة يلزم التقرب لها بالعبادة والقرابين. وكانت هذه القوة تسمى «براهما» وفي مرحلة تالية لم تعد القرابين المادية ضرورية بل حل محلها مراقبات على ظواهر كونية تخيلها الناس ضحايا وذلك كالشمس والنار والهواء، وفي مرحلة ثالثة راقب الإنسان نفسه وتصورها قرباناً يوصل إلى برهما، وفي مرحلة رابعة تجردت المراقبات عن تصور القرابين، بل صار الناس يراقبون أنفسهم على أنهم القوة الكامنة العالمية المؤثرة، ثم وصلوا من التمثل إلى العينية، وأذعنوا أن النفس الشخصية هي عين القوة الحيوية العالمية أو البرهما، فصار المفتكر والموضوع الخارجي شيئا واحدا[1].

وقد صور أستاذ هندي متخصص هذا الموضوع في مقال طويل نقتبس منه بعض الفقرات:

خُلقت الحياة هذه من الروح (Atma)، فالإنسان ليس جسمه أو حواسه، لأن هذه ليست إلا مركَّبة، وهي تتغير وتموت وتبلى، بل الإنسان هو الروح وهي سرمدية أزلية أبدية مستمرة غير مخلوقة. وذكرت شروح الويدا أن الإنسان من حيث روحه جاء على فطرة الله (Brahaman)، وكما أن شرارة النار نار فإن الإنسان من نوع الإله، وروحه لا يختلف عن الروح الأكبر إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة، وعندما تُجرِّد الروح من الظواهر المادية تبدأ رحلتها للعودة إلى الروح الأكبر، ولذلك يسمى تخلصها من الجسم «طريق العودة» والإله في التفكير الهندي له صفات ثلاث: فهو

(١) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة، ص ١٩ - ٢٠، ٣٠.

برهما (خالق) وشنو (حافظ) وسيفا (مهلك)، وهذه الصفات الإلهية الثلاثة كامنة فى الإنسان، فهو يخلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات، ويحافظ عليها، ويستطيع تدميرها ليعيد خلقها فى شكل آخر[1] .

وفى فلسفة الهند الأخلاقية المسماة «ويدانت» وردت العبارة التالية : هذا الكون كله ليس إلا ظهوراً للوجود الحقيقى الأساسى، وإن الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، وأن الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الأصيلة، وأن الجبال والبحار والأنهار.. تفجُّرٌ من ذلك الروح المحيط الذى يستقر فى سائر الأشياء[2] .

وهذا التفكير هو ماقال به سانكرا (Sankara) فى القرن الثامن الميلادى إذ وضح فلسفة الهندوس فى وحدة الوجود وحاول أن يدلل على رفض الازدواج وأن الروح الإنسانية هى جزء من الروح العالية (Brahaman)[3] .

وقد تسرب هذا التفكير إلى بعض طوائف المسلمين من الصوفية والشيعة وقد لقى الحلاج حتفه بسبب اعتناقه هذا المذهب ودعوته له، ومما يروى من شعره فى ذلك :

عجبت منك ومنى ... أفنيتنى بك عنى
أدنيتنى منك حتى ... ظننت أنك أنى

ويروى الشهرستانى[4] أن ابن سبأ قال مرة لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه: أنت أنت. يقصد أنت الإله. فنفاه علىّ إلى المدائن. وربما يقال ان

---

(١) محمد على حافظ : الحياة فى رأى الآريين (ثقافة الهند، سبتمبر سنة ١٩٥٠، ص ١٣٣ - ١٣٤).
(٢) ويدانت، ص ٤١ و ٤٣.
(٣) Hinduiem Ed. by Lewis Renou p. 24
(٤) الملل والنحل جـ ١، ص ١٥٥.

عقوبة النفى لم تكن كافية، ولكن يجاب على ذلك أن فسق ابن سبأ لم يكن قد وضح بعد، وأن الجملة التى قالها «أنت أنت» لم تكن ظاهرة الدلالة على المقصود الضال الذى كانت هذه الجملة معبِّرة عنه، ولذلك نجد موقف علىّ قوياً بالغ القوة عندما اتضح ذلك المقصود فيما بعد، فيروى ابن حزم[1] أن قوماً من أصحاب عبد الله ابن سبأ أتوا علياً وقالوا له: أنه هو. فقال لهم: ومن هو؟ فقالوا: أنت الله. فثار علىٌّ وحكم عليهم بالإعدام حرقاً، وأمر بإشعال نار وألقاهم فيها[2].

٥ - من صور الأخلاق عند الهندوسيين

إن أغلى مايطمع فيه البرهمى هو الانطلاق والاندماج فى برهما كما قلنا، ودستور العقل الهندى للوصول إلى هذه الغاية كان دائما الزيادة المفرطة بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس[3]، كما كان بأن يعيش أسير الحرمان، ويحمِّل نفسه ألوان البلاء، وبأن يبدو دائما كثير الهموم والخوف والتشاؤم، وهو لايتمنى الموت، لأن الموت ينقله إلى دورة جديدة من دورات حياته، بل يرجو لنفسه الفناء فى برهما.

ومن أجل ذلك حفلت حياة كثير من الهنود بالبؤس، ومحاربة الملاذ، والسلبية، والتسول، وتعذيب النفس، وقسّمت الفلسفة الهندية الحياة أربع مراحل، وجعلت لكل مرحلة منهجاً يليق بها، وكل دور مدته خمسة وعشرون عاما باعتبار متوسط العمر مائة عام، فالدور الأول دور التربية الجسدية والعقلية والروحية، والدور الثانى دور الحياة العائلية، فيتزوج المرء فى هذا الدور ويكون له أهل وذرية ويقوم بواجباته الأهلية، وفى الدور

---

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل، جـ ٤، ص ١٨٦.

(٢) انظر: «التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» للمؤلف جـ٢، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) Nells: A short History of the World p. 123

الثالث يتنحى عن الحياة العائلية هو وزوجته ويشغلان أنفسهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطمع شخصى أو نفع عائلى، أما الدور الرابع فيتجرد المرء فيه من كل ماهو دنيوى ويتفرغ للرياضة الروحية[1] .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل نوع من الزهادة، ولكن الزهادة فى المرحلة الأخيرة أقسى وأصعب، وسننقل من شرائع «منو» بعض مافرضه الفقه الهندوسى على الهندوس من الزهادة، وبخاصة فى المرحلة الأخيرة:

- إن الذى تغلّب على نفسه فقد تغلب على حواسه التى تقوده إلى الشر، إن النفس لأمارة بالسوء، والنفس لاتشبع أبدا، بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاها.

- أن الذى أوتى كل شيء، والذى تخلّى عن كل ما كان فى يده، فهذا خير من ذاك.

- على طالب العلم أن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، وكذلك يجب عليه ألا يدلك جسده بما له رائحة طيبة، ولايكتحل، ولايلبس حذاء، ولا يتضلّل بالشمسية، وعليه ألا يهتم برزقه بل يحصل رزقه بالتسول.

- وعندما تدخل فى الشيخوخة، عليك بالتخلى عن الحياة الأهلية وبالإقامة فى الغابة، وإذا أقمت فى الغابة فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك شواربك، ولا أن تقلم أظافرك.

- وليكون طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولاتقطف الثمر بنفسك بل كُلْ منه ما سقط من الشجرة بنفسه، وعليك بالصوم، تصوم يوما وتفطر يوما، وإياك واللحم والخمر.

---

(١) بروفور اتريا: ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ص ٥٥.

- عـود نفسك على تقلبـات الموسم، فـاجلس تحت الشـمس المحـرقـة، وعش أيام المطر تحت السماء، وارتد الرداء المبلل فى الشتاء.

- لاتفكر فى الراحـة البـدنيـة، اجـتنب سـائر الملذات، لاتقـتـرب من زوجتك، نم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذى أنت فيه.

- إذا مشيت فامش حـذرا حتى لاتتخطى عظمـاً أو شعـراً وحتى لاتدوس نسمة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبتلع نسمة.

- لاتفرح للذيذ ولاتحزن على الردئ.

ولعل مما يكمل صـورة البـؤس والتـشـاؤم عند الهـنود أن نقـتـبس بعض عبارات من كتـاب يعد عند الهندوس أعظم كتاب ألف تحت السمـاء كما قال بذلك سـوامى رام تيـرتهـا Swami Ram Tirtha القــديس الهـندوسى المعاصر، وهذا الكتاب هو يوجا واسـتها Yoga Wasistha الذى - كأكثر الكتب المقدسـة لدى الهنود - لايعرف مـؤلفه ولا زمن تأليـفه، يقـول هذا الكتاب[1] :

«السعـادة لاسبيل لها فى هذا العـالم الذى خُلقَتْ كل نفس فيه لتموت، كل شيء فى هذا العـالم سائر إلى الزوال والفناء، مسرات هذه الحياة ليست إلا خدعا وأوهاما، وقد سقطت الأفراح على الأحزان، أجل لم يشترنا أحد كما تشترى العبيد، ولكننا نعمل كأننا عبيد مسخرون.

«الرغبـة فينا متقلقلة دائما كالقرد، والنفس لاتشبع أبدا، ولاتقنع بما فى اليد، ولاتزال وثابة إلى مالا تناله، ومهما أشبعتها ازدادت جوعا وطموحا.

«لاخير فى الجسد، إنه محل للعاهات، ووعـاء لسائر الآلام وهو سـائر

---

(١) Yaga Wasistha مكتـوب باللغة السنسكريتيـة وقد ترجـمت أجـزاء منه إلى اللغـة العـربيـة اقتطفنا منها هذه الفقرات، وسنعود فيما بعد إلى هذا الكتاب بدراسـة أوسع عند التعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس.

إلى الانحلال، اتصفت الطفولة بالضعف والتوقان والعجز، وعدم القدرة على الكلام، والتجرد من العلم، وياترى ماذا يجود علينا به زمن الشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تخطف أبصارنا ثم لاتلبث أن تختفى، مفسحة الطريق للشيخوخة بآلامها الثلجية القاسية.

«ما الحياة إلا كنور السراج الموضوع فى الخلاء، تلعب به الرياح من كل جهة، وليس بهاءُ الأشياء كلها إلا كومضة برق تنير لحظة ثم تختفى إلى الأبد.

«وما هى قيمة الجسد والأفراح والثروة والجاه والملك إن كان محتما علينا أن نموت عاجلا أو آجلا، وأن الموت سيقضى على كل شىء».

٦ - نماذج من الفقه الهندوسى

لإعطاء نماذج من الفقه الهندوسي سنعتمد على مصدر مهم جدا هو كتاب «منو دهرما ساستر» (Manu Dbrama Sastra) وهو كتاب جامع يحتوى على الشرائع التى تتبعها الطوائف الهندوسية، ويقول ناشر الكتاب:

أنه مؤلَّف عتيق. لانعرف مبدأه، ولا مؤلفه، وقد زعم البعض أنه من تأليف أول إنسان على الأرض، أو أول عارف، وضعه بإلهام من الله فى زمان غارق فى القدم، ولكن الأصح أنه وضع فى فترات متتالية بعيد مابينها، فقد ورد ذكره فى المؤلفات التى يرجع عهدها إلى القرن السابع قبل الميلاد مما يدل على أن بعض أجزائه كتب قبلها، وبه ذكر لما وقع فى العصر البوذى، وهو على العموم يحوى الشرائع التى لايحيد عنها الهندوس المتدينون حتى الآن.

وسنقتبس من هذا الكتاب بعض النظم والقوانين الخاصة بالسلطة الحاكمة وبالمرأة، ثم بعض النظم المالية:

الملـك : خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك لاتحتقرون ملكاً وإن كان طفلا رضيعاً، لأنه إله فى صورة إنسان فوق الأرض.

وقـد منح الله الملكَ السلطانَ الذى يعـاقب به المذنبين، فـلا ملك إلا بسلطان، ولا طاعة إلا بسلطان العقاب.

وعلى الملك أن يصطفى لنفسه الوزراء من الأسر الطيبة، ممن اتصفوا بالعلم والشجاعة والنزاهة، وإنما جاز له ذلك لأن الرجل الواحد يصعب عليه القيام بأعباء الملك الثقيلة.

وعلى الملك أن يختار سفراءه من أهل العلم والفراسة الذين تكفيهم الإرشادات للنفوذ إلى الأسرار العميقة.

وليعلم الملك أن البرهمى وإن ساءت سيرته فله أن ينصح الملك إذا شاء.

وعلى الملك الرفق بالطيبين والشدة مع الأشرار، فالملك العادل الذى لايداهن الناس، يحبه الناس.

المـرأة: تعيش المرأة وليس لها خيار، سواء كانت بنتا صغيرة أو شابة أو عجوزاً، البنت فى خيار أبيها، والمتزوجة فى خيار بعلها، والأرملة فى خيار أبنائها، وليس لها أن تستقل أبدا، وعلى المرأة أن ترضى بمن ارتضاه لها والدها بعلا، فتخدمه طول حياته ولاتفكر فى رجل آخر بعد وفاته، بل عليها حينئذ أن تهجر ماتشتهيه من الأكل اللذيذ، واللبس الحسن والزينة كلها، وتعيش أرملة إلى آخر عمرها.

وإن وجدت زوجها لايعتنى بها ويحب امرأة غيرها، فلا تحقد عليه، ولاتقصر فى خدمته ونيل مرضاته، فقد نيطت جنة المرأة برضاء بعلها، فلا تفعلن شيئا لايرضاه بعلها.

وليس لوالد البنت أن ينال شيئاً من المال أو المتاع عند تزويجها، لأن من يفعل ذلك فكأنه باع بنته.

والأسرة التى تحترم المرأة فإن الآلهة تخصها بعطفها، وأما الأسرة التى تحتقر فيها المرأة، فإن حسناتها تذهب سدى.

والأوفق أن تشهد النساء للنساء، والرجال للرجال، وشهادة النساء وان كنَّ نزيهات لايقام لها كبير وزن. لأن عقولهن لاتوازن فيها.

ليحب الزوج زوجته، وليعلم أنها تلده فى صورة ابنه فهى خليقة بحب زوجها.

والمرأة سيدة بيتها فعلى الرجل أن يسلمها مقاليد البيت، وواجباتها أن تلد وأن تربى أولادها وتدبر أمور منزلها.

ولتعلم المرأة أن عظمتها منوطة بعظمة زوجها.
والذى قال لرجل أنى أزوجك بنتى فلا يحل له أن يرجع عن قوله ويخلف وعده، وإن فعل ذلك يبوء بإثم الذى يقتل ألف نفس بريئة.

وإذا ابتلى أحد بزوجة شريرة، خداعة، قاسية القلب، فله أن يطلقها ويطردها من بيته.

وليعش الزوجان بالحب والوفاء لأنهما لم يقترنا على اسم الله ليفترقا أو يتباغضا.

مسائل اقتصادية : لايجوز أكل الربا الفاحش، ولصاحب المال أن يأخذ روبية وربع روبية ربا عن مائة روبية فى كل شهر.

وإذا حاول عم صبى صغير أن يستولى على أملاكه، فيمنعه الملك من ذلك، ويحوّل الأملاك إلى إدارته حتى يبلغ الصبى الرشد.

والعقار الذى لايوجد له صاحب يُبقيه الملك في يده ثلاث سنوات، فإن لم يعرف صاحبه خلال هذه المدة يصبح ملكا للملك بعدها.

وإذا وجدت لُقَطة فى مكان، أمر الملك بحفظها حتى يوجد صاحبها، والذى يسرق مثل هذا المال يُلقَى أمام فيل ليدوسه نكالا لجنايته.

وكما تمص العلقة الدم قليلا قليلا كذلك يجب على الملك أن يكتفى بالقليل من الضرائب على رعيته، فيأخذ من أرباح الفضة والذهب النصف، ومن الحبوب الثمن أو السدس. ومن ثمار الأشجار السدس وكذلك قصب السكر والعطور والعقاقير. أما الصُّناع والعمال والمنبوذين فيسخرهم الملك يوما واحدا فى كل شهر لأعماله، فهذه هى الضريبة التى عليهم أن يدفعوها.

والولد الأكبر هو الذى يرث والديه، أما اخوته وأخواته فكلهم يعيشون تحت أمره، لأن الأخ الأكبر بمنزلة الأب.

والذى ليس له ابن يجوز أن يقول لزوج بنته أن وَلَدَ له ولد: هو الذى يرثنى ويقوم مقام ابنى.

ولينظم الملك، بواسطة الخبراء، أثمان السلع المتقلبة كل خمسة أيام إلى خمسة عشر.

ولا يملك الولد والزوجة والرقيق شيئاً، وكل مايحرزونه ملك لعائلهم.

ولايجوز للملك أن يفرض ضريبة على الأعمى والأبلة والأكسح وابن السبيل ومن يساعد المتبتلين إلى الكتاب المقدس.

٧ - تعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس

الفكر الهندى يتسلط عليه اتجاه روحانى، ومن هنا كثرت الآلهة لدى الهنود، وبالتالى كثرت الكتب المقدسة حتى جاوزت المئات ووصلت إلى

الألوف، وفى الديانات السماوية يكون مصدر تقديس الكتب أنها كلام الله أوحى به إلى أنبيائه، بالمعنى فقط كالتوراة والإنجيل، أو بالمعنى واللفظ كالقرآن الكريم، أما مصدر تقديس الكتب عند الهندوس فليس لأنها موحىً بها من الله، فهى لم يوح بها، بل لايعرف لأكثرها واضع معين، وإنما اشترك فى تأليفها عدد كبير من الناس على مر القرون، وليس مصدر التقديس إبداعها فى الفكرة أو الأسلوب، فكثيرا ماشملت هذه الكتب أفكارا بدائية وأساليب ركيكة، بل أن مصدر تقديس هذه الكتب هو على العموم الاتجاه الروحانى لدى الفكر الهندى، والموافقة على تأليه أى كائن، أو تقديس أى كتاب دون حاجة إلى إبداء الأسباب.

ومن الناحية العملية كان مصدر هذه الكثرة تفسير كتاب «الويدا» الذى يعتبر أعظم الكتب المقدسة لدى الهندوس، فإن مرور الزمن على هذا الكتاب جعله عسير الفهم غريب اللغة، فألفت كتب كثيرة لشرحه وتفسيره، وعدَّها الهندوس مقدسة، ومرت قرون أخرى فاحتاجت هذه الشروح إلى شروح جديدة وإضافات، فكتبت كتب أخرى، واستساغ العقل الهندوسى أن يجعلها مقدسة أيضاً، وتضخمت «الويدا» فاحتاجت إلى وضع مختصرات قدسها العقل الهندوسى كذلك. هذا بالإضافة إلى كتب وضعت غير متصلة بالويدا بل تصف حدثاً دينياً أو تاريخياً جديداً.

على أن الكتب المقدسة لدى الهنود ليست كلها - بطبيعة الحال - فى مستوى واحد، فمنها كتب قليلة الانتشار، أو لاتحظى بتقديس جميع الهندوس، ومنها كتب أقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح، ومن أعظم كتبهم المقدسة على العموم الويدا وقوانين «منو» وقد تحدثنا عنهما واقتبسنا منهما اقتباسات كافية لإظهار أهميتها، وبقى أن نعرِّف بكتب أربعة أخرى تعتبر فى القمة بين كتب الهندوس المقدسة، وهذه الكتب هى :

مها بهارتا - كيتا - يوجا واسستها - رامايانا.

ومن الواجب فى هذا المجال أن أتقدم بصادق الشكر إلى وزارة التربية والتعليم بالهند وإلى رجال السفارة الهندية والمكتب الثقافى الهندى بالقاهرة وإلى كثير من أصدقائى الهنود، فقد أمدونى بأهم الكتب المقدسة، وبمراجع أخرى قيمة، وبأعداد كثيرة من الدوريات وبخاصة «ثقافة الهند» التى تحوى أحدث الأبحاث وأهمها عن الكتب المقدسة وغيرها من الدراسات العميقة حول تراث الهند، وعلى هذه المصادر المتنوعة - بالإضافة إلى بعض المراجع الأوربية - تعتمد دراستنا هنا.

مهابهارتا Mahpharta*

مهابهارتا ملحمة الهند الكبرى، تشبه الإلياذة والأوديسة عند اليونان، وهى من الكتب الهندية القليلة التى يعرف مؤلفها، ان اسمه «وياس» وهو ابن العارف الكبير «برسرا» وقد أملى «وياس» هذا النشيد المقدس على «كنيتى» الذى دونّه. وقد وقعت هذه الملحمة الكبرى حوالى سنة ٩٥٠ق. م وهى تصف حرباً بين أمراء أسرة ملكية واحدة، ولكن جميع ملوك الهند اشتركوا فيها مع هذا الجانب أو ذاك، بل اتخذ الآلهة دوراً فى المعركة أيضاً كما تروى الأقاصيص ذلك. ومن أعظم المعلمين الذين عنوا بتدريس مهابهارتا «سوت» الذى ألقاها على جماعة من العلماء والنساك المرتاضين؛ وقد افتتحها بقوله: إننى أوفر حظاً وأسعد طالعاً بإبلاغى إليكم رواية مهابهارتا التى وضعها «وياس» ليعلمكم الدين الإنسانى ويرشدكم إلى الحياة وغاياتها، وقد سمعت رواية مهابهارتا بجوهرها، والقصص الاستطرادية المشتملة عليها، ثم بعد ذلك حدث أن قمت برحلة طويلة زرت فيها الأماكن المقدسة، وزرت ساحة القتال التى دارت فيها رحى الملحمة الكبرى التى تتحدث عنها وتصفها هذه الأنشودة الحماسية.

(*) ترجم الأستاذ عبد الحميد النعمانى الكتاب المقدس (مهابهارتا) إلى اللغة العربية.

ويبدأ «سوتا» يروى هذه الملحمة التي يعتبرها الهندوس أنشودة حماسية نادرة لاحتوائها على كثير من الروايات التمثيلية والتعاليم الجليلة، ولأنها - كما يقولون - كالبحر الذى في قاعه من الدرر البهية والأحجار الكريمة ما لايعد ولايحصى، وهى ينبوع يتفجر، تفيض منه الثقافة وتنهمر منه الأخلاق والآداب.

وعندما نقرأ رواية «سوتا» يشق علينا فهمها ويصعب علينا متابعتها لكثرة الأسماء الصعبة وتشابهها، ولكثرة الاستطرادات والغموض، وسنحاول هنا أن نعطى موجزاً للقصة ثم نتبعه بنماذج منها.

تجرى حوادث هذه الملحمة فى «هستنابور» حيث كان للملك ولدان الكبير منهما يدعى «دهرى تاراشترا» وكان مكفوف البصر، ولذلك آل الملك إلى الصغير المسمى «باندو» ولكن هذا اقترف ذنبا وهو ملك فحُكِمَ عليه بالنفى للتكفير عن الذنب إلى مجاهل الصحراء، وإلى هناك انتقل الملك وزوجتاه، وآل الملك إلى أولاد أخيه ويطلق عليهم «كورو».

ومات باندو فى المنفى بعد أن أعقب خمسة أولاد كانوا يُعْرَفون بخمسة باندو، وتربى هؤلاء فى كنف الناسكين بالكهوف والفيافى حتى وصلوا إلى مرحلة عالية فى الدراسة الدينية، وفى إجادة الويدا وغيرها من الثقافات، ولما بلغ أكبرهم سن الرشد عاد بإخوته إلى «هستنابور» وطالب بميراثه فى الملك بعد أن تمت الكفارة، فناصبهم «كورو» العداء وانقلبوا حاسدين لهم، ساعين جهد المستطاع لكل مايضرهم ويؤذيهم.

وبدأت المناوشات تدب بين الفريقين ولكن مساعى الصلح وفّقت بينهما فاشتركا فى الحكم، ثم هُزم «آل باندو» فى لعبة النرد التى كانت تعد طبق التقاليد السائدة شرفاً وكرامة لكشتريا، فقضى عليهم بالنفى عن مملكتهم إلى غابات الصحارى ثلاثة عشر عاماً، وسافر هؤلاء إلى المنفى، ولما انتهى

الأجل المضروب رجعوا إلى المملكة وطالبوا بحقهم، ولكن «دريودهن» المنتمى إلى «كورو» رفض أن يرد لهم حقوقهم، فاحتكم الطرفان إلى الحراب، وشهدت ساحة القتال حرباً ضروساً بين الفريقين انتهت بهزيمة «دريودهن».

هذا هو جوهر الملحمة الكبرى، وفى طيات القصة تأتى آداب هامة عن لعبة النرد، والوفاء بالعهد، والتكفير عن الخطايا، وتتدخل الآلهة والجن فى الموضوع من حين إلى آخر، كما يظهر مايمكن أن نسميه خرافات وخيالات، ولنختر بعض الأحداث لنقصه فيما يلى كنموذج من هذا الكتاب العظيم:

كانت هناك حرب سجال بين الآلهة وطائفة «أسورا» وعلى رأس كل من الفريقين المتحاربين قيادة حازمة تدبر الحيل وتعمل بيقظة لتكسب النصر، فكان «برهسبتى» الخبير بأسرار الكتب المنزلة ومعارفها قائد الآلهة، وكان «سوكر آجاريا» المحنَّك البصير يقود «أسورا» فى كفاحهم ضد الآلهة، ولكن «سوكر آجاريا» كان يجيد عملية «سن جيونى» التى تعيد الميت حياً، وعلى هذا فطالما رجحت كفة «أسورا» بسبب إعادة الحياة لمن يموت منهم فى الحرب، وكان هذا يرجِّح كفته على الآلهة.

التمس الآلهة من «كاجا» - وكان قد اعتزل الحرب - أن يتصل بسوكر آجاريا ويتقرب إليه ويتعلم منه عملية «سن جيونى» ولو بطريق الخداع، فقبل «كاجا» ويمم وجهه شطر «أسورا» ودخل على سوكر آجاريا وهتف به: قصدت إليك لأتلقى دروس الحكمة والعرفان تحت وصايتك. ولم يردَّه سوكر آجاريا لأن الأستاذ المتضلع لايرد طلب التلميذ النبيل. والتحق كاجا ببيت سوكر آجاريا يتعلم ويخدم.

وكان لسوكر آجاريا بنت جميلة اسمها «ديويانى» كان أبوها يحبها حباً جماً، وكان كاجا يقضى أكثر أوقاته معها يسليها بالغناء والرقص

والقصص، ويقضى لها كل حاجاتها، فتعلقت به «ديويانى» وشغفت بحبه.

وخافت «أسورا» من عاقبة هذه العلاقة بين «كاجا» و «ديويانى» وتخيلت أن «كاجا» سيستطيع تحت ستار طلب العلم والخدمة أن يعرف سر عملية «سن جيونى» ولذلك قررت «أسورا» قتل «كاجا» وانتهزت فرصة خروجه يرعى ماشية أستاذه وهجم عليها أفراد منها وقتلوه ومزقوا جسمه شر ممزق، ولما عادت الماشية بدونه انزعجت «ديويانى» وأسرعت إلى أبيها صارخة باكية وقالت: يا أبت، إن الشمس قد غابت، وعادت الماشية، ولم يأت كاجا، إنى أخاف أن يكون شر نزل به، وأنى لاأستطيع أن أعيش ولا أراه بجانبى. فرقّ قلب الأب لابنته، واصطنع عملية «سن جيونى» وسرعان ماحضر كاجا وقصّ عليهما ماحدث له وهو يرعى الماشية من هجوم أسورا عليه وقتله.. ولكن أسورا دبرت طريقاً جديداً للتخلص من «كاجا» فذهب مرة ليحضر الأزهار الجميلة من الغابة إلى «ديويانى» فانقض عليه بعضهم وقتلوه وحرقوه وألقوا رماده فى اليم، وطال انتظار «ديويانى» له دون جدوى فهرعت لأبيها باكية ناحبة، فأحياه لها مرة ثانية.

ولكن أسورا دبرت أمراً خطيراً فقد أمسكت بكاجا وقتلته وحرقت جثته وأذابت رماده فى كأس خمر، وقدمت الكأس إلى سوكر آجاريا فشربه، وهرعت ديويانى إلى أبيها لثالث مرة عندما طالت غيبة كاجا، وحاول أبوها أن ينصحها بالرضا بالقضاء والقدر، ولكنها بكت بنشيج وحسرة، ولما حاول أبوها أن يحييه هذه المرة اضطرب كاجا فى أحشائه، فقال أبوها، إن عودة كاجا للحياة لاتتم إلا بموتى ليخرج هذا من بين أحشائى. وشمل الحزن ديويانى إذ أدركت أنها لابد أن تفقد حبيبها أو والدها، واضطربت لهذا الأمر الفاجع، ولكن أباها وجد حلا للمشكلة فقد علّم سر «سن جيونى» إلى كاجا وهو فى أحشائه، وقال له الآن تُشَقّ بطنى لتخرج أنت من

أحشائى وأموت أنا، ثم تعيد لى الحياة باصطناع «سن جيونى» معى، وتم ذلك بنجاح، ولما عاد سوكر آجاريا للحياة انحنى تلميذه أمامه وقال: ان الشيخ الذى يعلم التلميذ الساذج، يقوم مقام الأب، فأنت أبى، وحيث أنى خرجت من داخلك فأنت لى كذلك أم حنون.

ذلك نموذج من الأقاصيص التى اشتركت فيها الآلهة ودوّنتها مهابهارتا، وكما قلنا آنفا أنها تتخللها أحكام وقوانين وآداب، فشرب الخمر يصبح معصية بعد أن خُدِعَ بسببه سوكر آجاريا، ومن هتاف سوكر آجاريا محذراً من الخمر: لاتقترب الفضيلة شارب الخمر، ويزدريه الناس احتقاراً. هذا بلاغ.

وقتل برهمى غدراً يعتبر عملا منكراً يتحدث عنه سوكر آجاريا طويلا محذراً أسورا من ارتكابه، وكان ذلك بمناسبة الاعتداء على كاجا.

كيتـــا Gita

هذا الكتاب جزء من الملحمة الكبرى مهابهارتا التى تحدثنا عنها آنفا، والتى - كما قلنا - تصف حرباً شعواء بين فريقين من الأمراء ينحدران من أسرة ملكية واحدة، ويُنسب هذا الكتاب أو أكثره إلى كرشنا أحد أبطال الهندوس المقدسين، وكان قد اتخذ جانباً فى هذه الملحمة تحت قيادة البطل أرجُنا ومن قراءة كيتا يلاحظ اهتمام هذا الكتاب لا بالجانب القصصى أو الخرافى الذى لاحظناه فى النموذج السابق، بل بالجانب الفلسفى والاجتماعى، وكيتا لهذا يعتبر من الروافد التى قدّمتْ إلى مهابهارتا أروع التعاليم وأرقى الثقافات، ومنه استُمدّت تعاليم كثيرة رويناها فى دراستنا السابقة؛ والكتاب يقدم لنا صورة الهيئة الاجتماعية الهندية فى ذلك العصر، فنعلم منه ماكان عليه الشعب من المعتقدات الدينية، والعادات الاجتماعية، والأفكار الفلسفية، ووجهة نظره العامة فى الحياة وما بعد الممات. وهو يخبرنا أن الناس ضلوا عن سواء السبيل ووقعوا فريسة للتقاليد

والأوهام، فتركوا لب الدين وتمسكوا بقشوره. كانوا يتشدقون بألفاظ ويدا، ويعملون بظواهرها، فيقيمون الطقوس والعبادات الرسمية، وهم مع اعتقادهم بوحدة الله يعبدون آلهة أخرى، وليس هذا فحسب، بل يعبدون أسلافهم وكذلك يعبدون العفاريت، ويتطيرون ويعتقدون فى الفأل، وبجانب هؤلاء وعلى العكس منهم يوجد إناس ينعون على متبعى الظواهر اتجاههم، ولكن هؤلاء غلوا كذلك فى مذهبهم، فأنكروا العبادات والظواهر على الإطلاق، زاعمين أنها قشور، وكان أكثر هؤلاء وأولئك مقلدين جامدين. ويوجد أناس آخرون يرون فى الرهبانية والتجرد من الدنيا، النجاة، فيهجرون الكسب ويعيشون عالة على الناس.

وكان أرجُنا زعيم أحد الحزبين المتحاربين متأثراً بأحوال بيئته، مؤمناً بمعتقدات عصره، وخاضعاً للأفكار الشائعة، فلما اصطفت الصفوف، ودقت الطبول، وآن أوان القتال، تلجلج فى مباشرته، وجرى بينه وبين «كرشنا» حوار، فوعظه كرشنا، وحثه على القتال. وكتاب كيتا اشتمل على هذا الحوار الذي جرى فى ساحة الحرب.

قال أرجنا لكرشنا، وهو واقف بين الصفين، ينظر إلى الذين جاءوا لمحاربته:

«سيدى! أرى أمامى أقاربى الأعزاء وأصدقائى القدماء، ففيهم الأخ وابن الأخ، والخال وابن الخال، والعم وابن العم، فيهم الأبناء والأحفاد، وفيهم الشيوخ الذين نشأت على تبجيلهم، أراهم أمامى، وقلبى يرتعد، ويدى ترتعش، وأشعر بحلقومى كأنه قد جف، هل يليق بى أن أحارب هؤلاء الأحباء الأعزاء، والأسلاف الأجلاء؟ كلا، لأنى إن حاربتهم، أُحْرَم من راحة البال أبداً، إن حياة الذل والفقر خير من النصر الذى أناله بقتلهم، أجل، لايحل لى قتلهم، وإنهم لو قتلونى فإنى لا أرضى برفع يدى عليهم، لا ريب إنهم ظالمون، ومع ذلك لا يطاوعنى قلبى فى قتالهم. ثم

إنى إن حاربتهم، فنيت أسرتنا العريقة في المجد بأسرها، وبفنائها تفنى سائر عاداتها وتقاليدها، وإذا ذهبت العادات والتقاليد، فما الذى يمنع البقية الباقية منها، ولاسيما النساء من الضلال والغواية؟ فينتشر الشر وتعم الفتنة في النساء، وبفساد النساء تختلط الأنساب وتزول فروق المراتب البشرية، إن هذا لشر مستطير، وهو ماينتج من هذه الحرب وسفك الدماء.

فالذين يتحاربون ويسببون هذا الفساد، لابد من أن يجازوا بالجحيم. وليس هؤلاء وحدهم الذين يُصْلَوْن بالنار، بل يدخلها أسلافهم كذلك، لأنهم قد فقدوا أخلافهم الذين عليهم أن يقدموا لأرواح الأسلاف ما يجلب لها الراحة والسعادة وهكذا تفنى الرسوم والعادات، وهكذا يذهب الدين فيصير نسياً منسياً، ونحن مازلنا نسمع أن الذين كانت حالتهم هكذا، يدخلون الجحيم الأبدى، ولذلك فمباشرتنا الحرب، إثم ليس فوقه إثم!».

ويجيب كرشنا قائلا:

«إن خَوَرَك، يا أرجنا! فى هذه الساعة الرهيبة، لعار ليس فوقه عار، وأنت لن تجد بعده راحة البال طول حياتك، وسيكون ذلك سمة سوداء على جبينك لايمحوها الدهر أبداً، أيها البطل الشجاع! ما هذا الجبن الذى لايليق برجل مثلك؟ وطد نفسك على الحرب وسر إلى النصر الذى ينتظرك».

فقال له أرجنا:

«كيف يحل لى أن أحاربهم وأنا أرى فيهم أساتذتى، وأعمامى، وأخوالى الذين يجب علىَّ احترامهم؟ أليست حياة التسول خيراً من الملك الذى أناله بقتلهم!».

فيبتسم كرشنا من قول أرجنا، ويقول له:

«تتكلم بكلام العقلاء ثم أراك تهتم بما لايهتم به العقلاء! ألا تعلم أن العاقل فى مثل هذا الموقف لايبالى بالحياة ومصيرها؟ هل تظن أننى أنا، وأنت، وجميع هؤلاء الملوك، وسائر هؤلاء الناس، وجدوا بعد أن لم يكونوا شيئاً؟ هذا ما لا يقوله عاقل، لايمكن وجود شىء من لا شىء، كل من هو موجود الآن وجد من قبل، وسيبقى موجوداً دائماً، وكما ترى الحياة تطرأ عليها الطفولة، والشباب، والشيخوخة، كذلك ينتقل الروح من جسد إلى جسد آخر، وهذا التنقل هو الذى نسميه بالموت، ولذلك فإن العقلاء لايزعجهم الموت.

«يا أرجنا! إن الألم واللذة، مناطهما بالمشاعر التى مآلها إلى الفناء، فلا ينبغى لك أن تقيم لها وزناً، والذى يرتفع فوق الألم واللذة هو الذى ينال السعادة الدائمة والنجاة الأبدية، لايمكن أن ينعدم ماهو موجود ولايمكن وجود شىء من العدم، عليك بهذه المعرفة.

«يا أرجنا! يفنى الجسم ولا فناء للروح، فالروح ليس له بداية ولا نهاية، فعليك يا أشجع الشجعان، أن تُبعد الأفكار الباطلة عن نفسك وأن تتأهب للتقال، لأن واجبك هذه الساعة هوَ القتال!

«عليك أن تعلم أن الروح لايقْتُل ولا يُقْتَل. إنه ليس بأمر حادث، بل قديم، أزلى، أبدى، لايتغير ولايتبدل، ولايموت بموت الجسد، فالذى يرى الروح خالداً يعلم كذلك أنه لايَقْتُل أحداً ولايقتله أحد، وكما يبدِّل الإنسان لباسه، كذلك الروح يغير قشرته، فينتقل من جسد إلى جسد.

«أكرر لك يا أرجنا، أن الروح لايموت ولايزول، إنه خالد، لا النار تحرقه، ولا الماء يغرقه، ولا السلاح يقطعه، هو دائما على حالة واحدة، لايقبل التغير والتبدل، وإن كنت فى ريب مما أقول، وترى الروح كالأجسام، يموت ويولد، فبالحرى ألا تتأخر عن الحرب. لأن الذى ولد

لابد من أن يموت، والذى مات، لابد من أن يولد مرة آخرى، فإن كان هذا مقدراً لامناص منه، فلم هذا التردد منك؟ إن هؤلاء الذين تراهم، لم يكونوا فى الماضى، ولايكونون فى المستقبل. إنهم أبناء الحال لاغير، فلم تبكى لهم وتهتم بهم؟ إن الحياة سر! تحيرت منه الألباب ولكن لا يفهمه أحد.

«ثم إن تأخرك عن الحرب، يا أرجنا، مناقض لواجبك كرجل من كشترى (طبقة المحاربين)، إن القدر قد ساق إليك هذه الحرب التى ليست إلا بابا للجنة، والسعيد من تسنح له فرصة كهذه، وأنت إن ضيعتها، تبوء بإثمك، ويعيرك الناس بالجبن. يظن المحاربون أنك قعدت عن الحرب خوفا وجبنا، فتسقط من الأعين التى مازالت تبجلك. تَفكَّرْ أى أسى يكون فوق هذا الأسى؟ وهل هناك عار على الرجل أكبر من أن يقال إنه جبان؟ وأنت إن قُتلت، دخلت الجنة، وإن عشت، فزت بملك عظيم. فوطد نفسك على القتال، وباشره غير مبال بالعاقبة»!

ثم قال كرشنا:

«لقد أضلَّت كلمات ويدا عقلك، فصرت لاتفهم قيمة الفرض ومايتبعه من الواجبات، والذين يتمسكون بألفاظ ويدا وحدها ويرونها كل شىء، يركبون شططاً. إنهم إنما يجرون وراء أهوائهم النفسية. يمنون أنفسهم بالجنة، لأنهم حريصون على لذائذ الحياة، فيقومون بطقوس يرونها تضمن لهم الجنة، ولذلك تبلبلت عقولهم، وتشبعت سبلهم، وضلت أعمالهم، فهم فى حيرة وارتباك، يجرون وراء شهواتهم، ولايستطيعون حصر أفكارهم فى نقطة واحدة.

«أما أنت، فكن فوق القشور الويدية. لاتقلقك أفكار الراحة أو التعب، النجاح أو الخيبة، بل كن مطمئناً منشرحاً فى روحك، والعاقل

الذى وصل إلى الحقيقة، ليست الكتب الويدية له إلا كبئر فى مكان ذى أنهار، فعليك أن تقوم بواجبك، لأنه واجب عليك، واجمع عقلك على هذه النقطة وحدها..».

سأل أرجنا: كيف للمرء أن يجمع عقله؟

فأجابه كرشنا قائلا:

«إن الذى تغلّب على أهوائه النفسية، وملك حواسه كلها، فلا يخاف شيئاً ولايطمع فى شىء ولايحب أحداً ولايكره أحداً، لهو الذى نال العقل وجمعه، إن الحواس تتبع ميولها، فعلى المرء أن يجذب إلى قبضته حواسه من مشتهياتها كما تجذب السلحفاة أطرافها إلى بعضها، أجل، إن النفس لطاغية جامحة، إلا أنه يجب السعى لضبطها وتحويلها إلى الله. فالذى لا علاقة له بشىء، ولايخاف شيئاً، ولايطمع فى شىء، وحواسه تحت أمره، فهو المطمئن حقاً. وإن كان يقوم بأعمال الحياة الدنيا كغيره من الناس، إما العمل الحقيقى، هو التحرر من سلطة النفس، فمن تحرر منها، فقد فاز بالطمأنينة الحقيقية، واهتدى إلى الله، وفاز بالنجاة».

فقال أرجنا: «إن كانت النجاة لاسبيل إليها إلا بالتغلب على الحواس وقهر النفس، فلماذا نهتم بأمور الناس؟».

فأجابه كرشنا قائلا:

«إن الذى يتجرد من الدنيا بترك واجبه، لايصل إلى الكمال أبداً، والأعمال التى تأسر الإنسان، هى التى يقوم بها لإرضاء نفسه. لا لأجل المصلحة العامة. فعلى المرء أن يجعل سائر أعماله خالية، منزهة من أهواء النفس وما عاشت هذه الدنيا إلا بمثل هذه الأعمال النبيلة النزيهة، والذى يطبخ الطعام ليأكله وحده، لآثم، وإذا أكل فلا يأكل إلا إثمه. والذى لايهتم بمصلحة غيره فهو سارق. والذى يحيا لإرضاء حواسه، فحياته كلها

إثم. ليس لأحد أن يسخر غيره لإشباع ميوله. وإنما الطريق إلى الله أن تكون الأعمال خالصة له ولنفع خلقه.

«اعلم أن أشد أعداء الإنسان، اثنتان: الشهوة والغضب. وهما اللذان يدفعانه إلي الذنوب، وكما يغطى الدخان النار، ويكدر الغبار صفاء المرآة، كذلك الشهوة والغضب يغطيان عقل الإنسان، فعلى الإنسان أن يقتل هذين العدوين.

«لا شيء يطهر الإنسان أكثر من هذا العرفان، والعارف يدرك بالتدريج أن الله معه وفيه، وأكبر مايحتاج إليه الإنسان فى سلوكه إلي الكمال، هو الإيمان وقهر النفس».

وسأل أرجنا مرة أخرى: «ما الأفضل للإنسان: التجرد من الدنيا ومراقبة النفس، أو تطهير النفس مع التعلق بأمور الدنيا؟».

فأجابه كرشنا قائلا:

«إن الذين يفرقون بين الطريقتين، أطفال لايعقلون، أما العالم العاقل، فلا يفرق بينهما، والإنسان يصل إلى الكمال بأى طريق سلكه إن قام بشروطه حق القيام. والذى يرى الطريقين سبيلا إلى المقصود فهو المصيب.

«والناسك الحق هو الذى لايبغض أحداً، ولايشتهى شيئاً، ولايرى غير الله شيئاً، إنه يجرى وراء واجبه دائما، قد طهَّر قلبه وتغلب على حواسه، فنفسه فى قبضة يده، لاتنازعه ولاتحيد به عن الصواب، وهو يرى جميع الأرواح كروحه، ولايفرق بينهما، ولايقصد بعمله إلا وجهه تعالى وحده.

«والذى يقوم بواجبه كما قلت، يبزغ نور العرفان فى داخله كما تبزغ الشمس فى السماء، فيرى ربه بعين قلبه، ويسعد بالنجاة بعد أن تذهب ذنوبه وتحل محلها الحسنات.

«واللذائذ الحسية، عاقبتها الألم والحزن، فلا يجرى العاقل وراءها. والذى ملك حواسه ونفسه فى هذه الحياة، فهو الناسك حقاً، وهو الذى فاز بنعمة راحة البال. إنه يجد الطمأنينة والراحة، والنور فى روحه، ويصل إلى النجاة بفنائه فى الخالق، ولا يسعد بهذا إلا من نسى نفسه، وقهر هواه، ولا يزال فى عمل مستمر لمصلحة الناس عامة.

«وليس الناسك من يتشبث بظواهر النسك وحدها، فلا يمس النار، ويفعل هذا ولا يفعل ذلك كالمتنطعين. إنما النسك كيفية قلبية، لاهيئة خارجية، فالذى لايبالى بالعواقب فى أداء واجبه، فهو الناسك الصادق، والذى يتخلى عن واجباته فى الدنيا، فهو ليس من النسك فى شىء.

«ليس للإنسان صديق إلا نفسه، وليس له عدو إلا نفسه، ومن تغلب على نفسه فهو صديق نفسه، ومن قهرته نفسه، فهو عدو نفسه، فمن غلب نفسه فأصبح لايبالى بالحر والبرد، بالراحة والألم، بالسراء والضراء فهو صاحب الروح الأكبر، ومن يرى الصديق، والعدو، والقريب، والبعيد، والسعيد، والشقى، بعين واحدة فهو المهتدى.

«ليست النجاة للذين افتتنوا بالدنيا، ولا للذين هجروا الدنيا فارين من واجباتهم، بل هى للذين يلزمون الطريقة الوسطى، فلا يفرّطون ولا يُفْرطون، فى مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ومسكنهم، إنهم وسط فى كلِّ شىء، فيستريحون كما ينبغى، وينصَبون كما ينبغى.

«والناسك الحق هو الذى يرى وجوده فى وجود الآخرين، ووجودهم فى وجوده، وهو الذى لايفرق بينه وبينهم، بل يدرك الله فى الجميع ويدرك الجميع فى الله. فمن كان هكذا، فعلاقته بالله وثيقة لا انقطاع لها. فالذى يحمد الله فى خلقه وينسى نفسه، فهو مع الله أينما كان وحيثما كان. ومن يرى سعادة الآخرين وشقاءهم، سعادته وشقاءه فهو حبيب الله حقاً».

وسأل أرجنا «أليس قهر النفس الأمارة، كما تقول، لمن أصعب الأمور؟».

فأجابه كرشنا قائلا :

«أجل، ياعزيزى! إنه لمن أصعب الأمور، لايكون قهر النفس إلا بصدق النية، والتمرين، والرغبة عن لذائذ الدنيا، والذى حرم قوة الإرادة والعزيمة، فلا يتمكن من قهر نفسه، ولاينال النسك. والشرائع الظاهرية والطقوس الرسمية لا تنفعه شيئاً، إن مجرد الرغبة فى هذا السلوك، يغنى المرء عن ويدا وعن شرائع ويدا؛ هذه الرغبة تجعله فوق كل هذا، ومن سعى مع هذه الرغبة سعياً صادقاً، وإن كان قليلا، ينتفع به. وإن اضطرب قلبه ولم ينجح فى النسك كل النجاح، لأن طريق التقدم الروحى ينفتح أمامه، يسلكه إذا وطد عزمه.

«والعارف الذى يعبد الله، يرى الكثرة فى الوحدة والوحدة فى الكثرة وأينما يتجه بوجهه يرى وجه الله، الحى الذى لايموت والرب الذى به يقوم كل شىء».

وهكذا يتضح لنا أن الكتاب المقدس «كيتا» يُعَدُّ من أهم الكتب المقدسة لدى الهندوس، وهو حافل بأدق المعتقدات والأفكار الهندوسية.

يوجاواسستها Yogavasistha

ألقى قديس هندوسى معاصر هو سوامى رام تيرتها Swami Ram Tirtha الذى أشرنا إليه من قبل، محاضرة بأمريكا عن كتاب يوجاواسستها قال فيها : إن أعظم وأنفع كتاب ألف تحت السماء هو بلا ريب كتاب يوجاواسستها الذى يمكن من يقرؤه من أن يعرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه.

ولايُعرَف مؤلف هذا الكتاب كالشأن فى أكثر الكتب الهندية المقدسة، وهو منظوم يحتوى على أربعة وستين ألفاً من الأبيات، مما يرجح أن يكون من عمل مجموعة من الناس لا من نظم شخص واحد: وزمن تأليفه غير معروف أيضاً وإن مال بعضهم إلى أنه ألف فى القرن السادس الميلادى بسبب إشارات وردت فيه تشير إلى أحداث وقعت فى هذا القرن، ولكن الذى نميل إليه أنه ألف فى فترة زمنية طويلة، وأن هذه الإشارات ليست إلا للأجزاء التى ألفت فى القرن السادس، وليست دليلا على تحديد وقت لتأليف الكتاب كله.

وموضوع الكتاب هو الفلسفة واللاهوت، ودراساته عميقة جداً، ويفترض الكتاب تلميذاً اسمه «راما» تنتابه الشكوك والأوهام فيسأل أستاذاً له عما يساوره، ويطلب بياناً لإيضاح ما غمض عليه، ويجيبه أستاذه شارحاً موضحاً، ولنبدأ بنقل هواجس التلميذ وانفعالاته، ثم نورد الردَّ عليها.

قال راما :

«لقد جربنا مراراً وتكراراً أنه لايمكن أن تُنتَظر سعادة حقيقية دائمة من حياتنا هذه، لقد تيقنا ذلك، ولا نرتاب فيه، ومع هذا يسوقنا الهوى إلى أن نأمل من هذه الحياة كل سعادة.

«إن اكتناز الثروة لا يجعلنا سعداء بل كثيراً ما يجرنا إلى الشقاء وليست الحياة إلا سحابة صيف تمر سريعاً، أو كنور سراج فَقَدَ زيته، ومع هذا فرغبتنا فيها دائمة لا تشبع أبدا، ولا تقنع بما فى اليد، وكلما زادت من شبعها ازداد جوعها وطموحها، وليس فى العالم شر أكبر من الرغبة، إنها تجرُّ حتى أعقل الناس إلى الفتنة.

«لا خير فى الجسد لأنه محل العاهات، ووعاء لسائر الآلام، وهو سائر إلى الانحلال.

اتصفت الطفولة بالضعف والتوقان، والعجز، وعدم القدرة على الكلام والتجرد من العلم، والرغبة فيما لاينال، والتقلب الفكرى، وقلة الحيلة. وياترى ماذا يجود علينا به ذلك الزمن الذى نسميه بالشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تختطف أبصارنا ثم لا تلبس أن تختفى؟ وتجىء بعدها الشيخوخة بآلامها القاسية.

«تتراءى النساء جميلات فاتنات لحين من الزمن فقط، وذلك أيضاً للذين على أبصارهم غشاوة من الجهل، وإلا فالحقيقة التى لا مراء فيها أنه ليس فى أجسادهن شائبة من الجمال، وإنما هو جهلنا الذى يخدعنا فيظهرن لنا كأنهن جميلات.

«فيا ترى ما الفائدة من الحياة التى لا مناص فيها من الشيخوخة والموت؟ لا مفر لإنسان من الشيخوخة، إنها تصرع حتى الأبطال الذين لايعرفون الهزيمة قط فى ساحة الميدان، وتلحق حتى الذين يختفون خوفاً منها فى الكهوف وماقيمة الجسد، والأفراح، والثروة، والجاه، والملك، إن كان محتماً علينا أن نموت عاجلا أو آجلا وأن يقضى الموت على كل شىء؟

«إن جميع الروابط والعلاقات سلاسل من الأسْر والعبودية، والمسرات كلها أمراض فتاكة، كل إنسان تخدعه نفسه ثم تسوقه إلى شراك الأهواء والرغبات، فيبتلى بمصيبة «تكرار الميلاد».

قال راما لأستاذه بعد أن انتابته هذه الأفكار: أخبرنى ياسيدى المرشد عن أحسن طريق للتحرر من آلام الحياة.

ويدأ الأستاذ يجيب فكان مما قال: «إن علة سائر الآلام والمصائب هى (تريسنا) Trisna أى الرغبة فى المآرب الدنيوية، إن هذه الرغبة تلدغ صاحبها كالحية السامة الفتاكة، وتقطع كالسيف البتار، وتنفذ كالرمح الحاد، وتحرق كالنار، وتطحن كالرحى الثقيلة، ونحن نفتتن بالحياة لأننا

نجهل فطرتنا الحقيقة وماهية الدنيا، فإذن الجهل هو علة العلل لسائر الآلام، إن منبع جميع الشرور هى قلة العلم، وأحسن دواء هو الوصول إلى الحكمة، فالحكمة هى الجسر الوحيد الذى يجتاز عليه المرء بسلام بحر هذا العالم، وتُنال الحكمة بالسعى والجهد، لأن العلم لاينزل علينا بنفسه، فالسعى والجدُّ هما الأساس، وليس هناك شىء يسمى الحظ أو القضاء والقدر فنحنَ الذين نخلق حظّنا بمجهودنا، وليس من سبيل لتجنب الشقاء أو التخلص منه إلا بسعينا وجهودنا، فالذين يتكلون على القضاء والقدر ولايسعون بأنفسهم هم أعداء أنفسهم، وهم الجهلة والكسالى. فالحظ اسم لشىء لا وجود له إلا فى أوهام العجزة البله.

«فإذا كان هناك شىء يصح أن يسمى الحظ فذلك الشىء هو أعمالنا الماضية، ومن أجل هذا يجب على كل واحد منا أن يسعى بعزم ثابت ليحقق مايريد».

«وأول ما يُطالب به الطالب الباحث عن الحق أو الراغب فى تحرير نفسه من انحلال العبودية يتلخص فى كلمات أربع هى : الطمأنينة، والقناعة، وملازمة الحُكماء، والتأمل العميق، ومعنى الطمأنينة أن يصفو قلب المرء من كل كدر، ومعنى القناعة ألا يرغب فى شىء ولا يعادى شيئاً، فالحكمة لا تنزل على العقل الذى استعبدته الأهواء والرغبات، ومصاحبة الحكماء تزيل الظلمات عن القلب، والتأمل العميق هو الوسيلة إلى الحق.

«ويعرَف الشخص الذى تجمعت فيه هذه الصفات بأن يصبح فى حال لا السرور يَسُرُّه، ولا الألم يحزنه، ولا يتأثر قلبه بالرغبة أو الكره، وأنه على رغم انهماكه الظاهر فى الأعمال الدنيوية لايتعلق عقله بشىء من الدنيا، لا يؤذى سلوكه أحداً، ويكون صديقاً للجميع، ترى ظاهره مشغولا ولكن باطنه فى الحقيقة مطمئن تمام الاطمئنان، تحرر من جميع قيود الطوائف والمعتقدات والطبقات والتقاليد والعادات والكتب، استراح فى «المسرَّة

العليا» لايعمل عملا للنفع الذاتى، صدره منشرح والبشاشة لاتفارق وجهه. يعامل سائر الناس بالحسنى، لايشعر باليأس، ولا بالكبر، ولا بالاضطراب الفكرى، ولا بالسرور المفرط، كله عطف وحنان وحب، لايحتقر السرور، ولايجرى للحصول عليه، يشعر بالابتهاج فى جميع أحواله، حتى فى شيخوخته وعجزه وموته، فحياة الشخص المتحرر أنبل حياة، وأشرفها والناس يفرحون برؤيته وسماع صوته(١)».

راماياناRamayana

راماياناكتاب قديم لايعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه بالضبط، وكل مانعرفه عن تاريخه أنه كله أو بعضه أقدم من مهابهارتا الذى تكلمنا عنه فيما سبق، وعُرف تاريخ رامايانا التقريبى بواسطة إشارات إليه فى مهابهارتا، وإن كان ذلك لايحدد تاريخه بالضبط لأن الكتب المقدسة الهندية أُلّفت فى فترات طويلة، فلا يدلُّ حدث بها على تاريخ تأليف الكتاب كله.

ورامايانا يُعْنَى بالأفكار السياسية أو الدستورية للحياة الهندية، فهو يتحدث عن تكوين مجالس الشورى، وطرق اختيار الملوك وولاة العهود، ثم عن واجبات الملك، وعن واجبات مجالس الشورى وسلوك أعضائها. . ونقتبس من هذا الكتاب ثلاث خطب تتصل بأحد ملوك الهند المشاهير وهو الملك راما وتحتوى على تقاليد ونظم هندية تتصل بالسياسة.

«أحس دساراتها ملك الهند بوهن فى صحته، فعقد المجلس التشريعى فى عاصمته «أيودها» وألقى بالمجلس الخطاب التالى :

اخترتمونى ملكا عليكم، وقد بذلت كل جهدى فى القيام بواجباتى نحوكم، وهأنذا قد بلغت من الكبر عتياً، ويحتِّم علىَّ واجبى أن أصارحكم

---

(١) See: Atreya : Yogawasisiha and its Philesophy pp. 96 - 100.

بأن أعباء الملك فوق مقدرتى الآن، وأرانى أضعف من أن أتحملها، وهذه الأعباء تحتاج إلى رجل أقوى منى جسداً وعقلا، وإنكم لتعرفون راما ابنى، ولاتخفى عليكم مزاياه التى تؤهله ليكون ولى عهدى، وينوب عنى فى الحكم مادمت حياً، ويخلفنى بعدى، ويخدم شعبه كأبيه، هذا رأيى أنا، ولكم الحرية التامة فى قبوله أو رده، فإن قبلتموه فذاك ما أريد، وإن رفضتموه واخترتم رجلا غيره فإنى أنزل على إرادتكم، وأقبل قراركم بطيب نفس، لأن غايتكم وغايتى واحدة، هى خدمة الشعب وخير البلاد».

وخرج الملك وترك الأعضاء ليتناقشوا، فاتفقت كلمتهم على قبول راما ولياً للعهد ونائباً عن الملك فى حياته، على أن يكون ملكا بعد وفاة أبيه إن سار سيرة والده فى الحكم.

فلما بُلِّغَ دساراتها ذلك عاد للمجلس ومعه راما وخاطبه أمام قائلا :

«لقد وقع اختيار مجلس الشعب عليك لتكون ولى عهدى ونائبى فى الحكم وخلفى فى الملك بعد مماتى، وبما أنك أكبر أولادى من زوجتى الأولى التى هى كفء لى فى العز والمجد، فأنت أحق أولادى بالشرف الذى رآك المجلس أهلاً له، ومزاياك المعروفة جعلتك خليقاً لتخدم شعبك، فعليك أن تخفض جناحك لرعيتك، وتسهر لراحتها ورفاهيتها، وتعدل فى الحكم، وتنصف سائر الناس، وليكن الصغير والكبير سواء عندك فى الحكم، ولاتؤثرن نفسك على المصالح العامة، ولاتخلدن للراحة والتمتع بلذائذ الحياة، وليكن همك الوحيد رضا الشعب وهناءه، فالملك يجب أن يكون محبوباً لدى شعبه، محموداً فى سيرته وأشقى الناس وأنحسهم الملك الذى تمقته رعيته، لأن من يمقته خلق الله يمقته الله».

وابتدأ راما مسؤلياته بخطاب قال فيه : «لايوجد العدل إلا بالصدق، ويجب أن يكون محضاً صريحاً لاتشوبه شائبة من الكذب والباطل،

وأعضاء هذا المجلس الذين يعرفون الحق ثم يظلون ساكتين هم أكثر الكاذبين شراً، والذين يسكتون عن الحق نظراً لمصالحهم الذاتية أو خوفاً من نقمة الأقوياء هم المجرمون الذين يخلدون فى نار الجحيم».

٨ - لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية

الهندوسية كما سبق القول - مجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الهندية سواء منها ما يرجع إلى السكان الأصليين أو ما جلبه إلى الهند الزاحفون التورانيون أو الفاتحون الآريون، وكانت العقائد الآرية الأولى قد طرأ عليها تغير كثير بسبب اتصال الآريين بالإيرانيين وهم فى طريقهم إلى الهند(١) وقد دُوِّنت هذه المعتقدات وتلك التقاليد فى الويدا فاكتسبت قدسية وجلالا.

والهندوسية دين توحيد من جهة ودين تعدد من جهة أخرى، كما سبق القول، وتظهر فيها أفكار بدائية كعبادة قوى الطبيعة وعبادة الأجداد، وعبادة البقر بشكل خاص.

البرهمية:

وارتقت الهندوسية عندما تجمَّع البراهمة فى القرن الثامن قبل الميلاد، فأعادوا التفكير فى دينهم، ووضعوا مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما.. وكانت الهندوسية تعنى بنظام الطبقات وتقول بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود.. ومن أهم ما عنيت به تقديم القرابين على أن يتم ذلك بحضور برهمي وتبريكه. وبدون القرابين تتلاشى أرواح الموتى ويُطفأ مجد الأسرة إلى الأبد، فالقرابين غذاء للأجداد، وكان الإله «أغنى» يحملها إليهم وكان عدم تقديم القرابين إلى الأجداد يعتبر كمن يترك والديه يموتان جوعاً.

Hinduism Ed. Lowis Renau p. 2. (١)

ظهور البوذية والجينية :

وضعفت الهندوسية عندما خرج غوتاما بوذا ومهاويرا بمذهبيهما أو بدينيهما، ولكن الهندوسية سرعان مانفضت الغبار وعادت إلى الحياة، وقضت على الانتصار المؤقت الذى تحقق للبوذية والجينية، وسنوضح فيما بعد الظروف التى ساعدت على ذلك، ولكن الهندوسية ظهرت هذه المرة فى ثوب جديد نوعاً، بفضل شرائع «منو» التى نسَّقت هذه الديانة وأكسبتها قوة كانت من عوامل انتصارها على البوذية والجينية، وظهرت شرائع «منو» فى القرن الثالث والثانى قبل الميلاد، وقد لانت فيها الآلهة بعد قسوة وعنف، وذلك بتأثير البوذية فى هذا المجال.

ولكن شرائع منو وجهت عنايتها إلى الطقوس وتقديم القرابين أكثر من اهتمامها بالآلهة، ويعتبر هذا تطوراً كبيراً فى الهندوسية التى كانت توجه عناية كبيرة إلى الآلهة، فاتجهت الآن إلى الطقوس والمظاهر، وكان من مظاهر هذا الإهمال أن اعتبر الإله «براهما» ليس مستقلا بل موزعاً فى جميع المخلوقات أطيبها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيباً من آثامها وآلامها وبعثها وتحولها[1] وفى ذلك يقول منو «تستقر الروح العليا فى أرقى المخلوقات وأسفلها».

المسيحية تدخل الهند :

وجاءت المسيحية، وظهر بولس فاقتبس للمسيحية اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيراً عن خطيئة البشر.[2] وانتصر بالقوة والسلطان مذهب بولس لأسباب شرحناها فى كتابنا عن «المسيحية» واضطر المسيحيون الذين قالوا بالتوحيد وبنبوة عيسى أن يهاجروا من الدولة الرومانية، فاتخذ بعضهم طريقه إلى الهند، ومنهم بعض النسطوريين الذين نشروا دينهم عند قلة من الهنود كانت الأساس الذى بَنَى عليه المبشرون

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٣٣.

(٢) أقرأ كتاب المسيحية من سلسلة «مقارنة الأديان» للمؤلف، ص ٧٥ - ١١٢.

الغربيون فيما بعد جهودهم لنشر المسيحية بوسائل التبشير الحديثة، ولكن نتائج التبشير المسيحى فى الحالتين كانت ضئيلة جداً على كل حال.

الإسلام فى الهند وتأثيره وتأثره:

وجاء الإسلام، وللعرب صلات وثيقة بالهند بدأت قبل الإسلام بعدة قرون بسبب التجارة[1]، وعن هذا الطريق، وعن طريق هجرة بعض العرب والفرس المسلمين إلى الشمال الغربى للهند، ثم عن طريق الفتوح العربية والأفغانية والتركية والمغولية، ولسهولة الإسلام ويسر تعاليمه، انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً وسريعاً في الهند، فأصبح يعتنقه ما يزيد عن مائة مليون نسمة، وبالإضافة إلى هذا الانتشار وكسب الأتباع أثَّر الإسلام فى الهندوسية، فتكوَّن من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسى، حضارة جديدة يسميها غوستاف لوبون[2] «الحضارة الهندية الإسلامية».

وكما أثر الإسلام فى الهندوسية، نرى المسلمين الهنود تأثروا بالهندوسية، ويمكن القول إن عامتهم انحرفوا بالإسلام فجعلوه إسلاماً فيه اتجاهات هندوسية، ويُعَدُّ من الانحراف بعض اتجاهات الإسماعيلية وبعض اتجاهات الأحمدية واتجاهات أتباع معين الدين شيستى، وقد نشرت فى كتابى «المجتمع الإسلامى» وثيقة تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام، وتقرر أن الطواف حول ماسماه ابن الشيخ «الروضة الشريفة» كالطواف حول الكعبة، وتسمى الباب المؤدى لساحة الضريح: «باب الجنة» وتقرر بصراحة أن «من المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة إلى الروضة ستفتح لهم أبواب الجنة بعد موتهم»[3].

---

(١) اقرأ عن تجارة العرب مع الهند والصين «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف» جـ١ ص ١٢٨ ومابعدها من الطبعة العاشرة.
(٢) حضارة الهند، ص ٤١٧.
(٣) المجتمع الإسلامى للمؤلف، ص ٣١٩ من الطبعة السادسة.

وذكرت فى هذا الكتاب كذلك معلومات خطيرة عن الأحمدية وقولهم عن خاتم الأنبياء[1] .

أما الإسماعيلية فقد اقتبست كثيراً من اتجاهاتهم وسجلتها فى الجزء الثامن من موسوعة «التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية»[2] .

وليست هذه الانحرافات إلا تأثراً بالهندوسية .

ويعدد غوستاف لوبون بعض ملاحظات له عن تأثر مسلمى الهند بالهندوسية ، فى تدينهم وحياتهم الاجتماعية ، ونقتبس فيما يلى بعض ماقاله :

«ولم يوفَّق الإسلام لنشر المساواة بين جميع الناس فى البقاع الهندية التى يهيمن عليها ، مع أن القول بالمساواة كان من أهم الأسباب التى دفعت الناس لاعتناق الإسلام ، وظل المسلمون فى الهند يعرفون نظام الطبقات عمليا إن لم يعرفوه نظريا .

«واقتبس الإسلام فى الهند بعض التقاليد البوذية والبرهمية ، فمن ذلك أن جميع المسلمين يمارسون تقديس الذخائر المماثلة لتلك التى يعبدها البوذيون ، فعند المسلمين شعرات يقدسونها يقال إنها من لحية النبى محمد كما أن البوذيين يحتفظون بشعرات من غوتاما ، وأتباع الديانات الثلاث : الإسلام والبوذية والهندوسية يقدسون مواقع أقدام ينسبونها لبراهما وبوذا ومحمد ﷺ»[3] .

وقد كتبت هذه الكلمات لأول مرة وفى كشمير ثورة عارمة لأن شعرة يقدسها المسلمون لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول محمد صلوات الله

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ومابعدها من الطبعة السادسة .
(٢) ص ١٦٧ - ١٧٨ .
(٣) حضارة الهند ، ص ١٢٨ .

وسلامه عليه قد سرقت، وقد أدى اختفاء هذه الشعرة إلى حوادث اضطراب متصلة، وتظاهر المسلمون، وثاروا ثورة عنيفة احتجاجاً على سرقة هذا الأثر المقدس، ويصور البيان الذى أصدرته حكومة كشمير يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٦٣ مدى سخط المسلمين وهياجهم لضياع هذا الأثر العظيم، يقول البيان :

إن المتظاهرين قد زحفوا على محطة إذاعة كشمير وأشعلوا - وهم فى طريقهم إليها - النار فى المبانى الحكومية، ومكاتب شركات التأمين، ومراكز البوليس، ودارين للسينما، وفندق. ولما أسرعت سيارات المطافئ لإطفاء الحرائق هاجمها المتظاهرون وضربوا جنودها وأشعلوا فيها النار أيضاً.

وفى اليوم التالى أضربت جميع المصانع والمتاجر الإسلامية فى سريناجار عاصمة المنطقة الهندية من كشمير، احتجاجاً على سرقة شعرة النبى محمد من مسجد حضرة بال. وقامت مظاهرات ضخمة عقب صلاة الجمعة ظلت تطوف شوارع العاصمة، ثم عقد المتظاهرون اجتماعاً استنكروا فيه سرقة شعرة النبى.

وقامت الحكومة باتخاذ إجراء بوليسى فى كشمير، وطلب المتظاهرون أن تقوم الأمم المتحدة بتعيين لجنة لبحث ما أسموه بأعمال القمع. التى تتخذها الهند ضد الشعب المسلم فى هذه المنطقة من كشمير بعد سرقة شعرة النبى.

ولم تهدأ الأحوال فى كشمير إلا بإعادة هذا الأثر العظيم إلى مكانه، فقد طلع صبح اليوم الرابع من يناير فوُجِدَتْ الشعرة فى نفس صندوقها موضوعاً فى مكانه بمسجد حضرة بال.

وحادثة الشعرة هذه التى أثارت المسلمين لاعتقادهم أن الهندوس سرقوها، تعتبر نموذجاً لحدة الخلاف بين المسلمين والهندوس، ومن أسباب

الخلاف العنيفة كذلك نظرة الهندوس والمسلمين للبقرة، فالهندوس يقدسونها، ولكن المسلمين يذبحونها، ومن أسباب الخلاف كذلك نظرة هؤلاء وأولئك للتماثيل. فمعابد الهندوس مكتظة بالآلهة، ومساجد المسلمين لا تماثيل فيها، وكان من نتائج هذا الخلاف أن تمّ تقسيم الهند سياسياً إلى دولتين على أساس الدين، فأعلنت الباكستان بجزأيها الشرقي والغربي دولة إسلامية[1] ، وتعداد سكانها حوالى مائة وخمسين مليون نسمة ٩٠٪ منهم مسلمون، أما باقي شبه الجزيرة فقد احتفظ بالتسمية القديمة «الهند» وبين سكانه ١٠٪ مسلمون، أما الغالبية العظمى بالهند فتتبع الهندوسية، وتعداد الهند حوالى ٧٠٠ مليون نسمة (الآن حوالى ألف مليون).

ويقول غوستاف لوبون[2] إن الجهود التي بذلت لحمل الهندوس على التوحيد عندما دخلوا الإسلام لم تنجح، بل أدّت إلى إضافة إله جديد إلى الآلهة التي كانوا يعبدونها، وكثير من الهندوس المسلمين يؤلهون محمداً، ثم أخذوا يؤلهون علياً، وأبناء الطبقات الدنيا من مسلمي الهندوس يؤلهون كثيرا من الأولياء. فيخلطونهم بالآلهة البراهمية القديمة.

بقي أن نقرر حقيقة لاتحتاج إلى كبير عناء، هي أن انحراف مسلمي الهند الذي أورده غوستاف لوبون، إنما ينطبق على بعض العامة، أما مثقفو الهند فيتبعون الدين الإسلامي القويم، ومن بين مثقفي المسلمين الهنود برزت صفوة مختارة من الباحثين المسلمين، فإقبال ومولاى محمد على وخود ابخش وسيد أمير على وغيرهم ليسوا إلا نماذج ممتازة في موكب الباحثين والمفكرين المسلمين من الهنود.

---

(١) استقل الجزء الشرقي عن الغربي واتخذ لنفسه اسم بنجلاديش وقد تحدثنا عن حركة الاستقلال وتاريخ الباكستان وبنجلاديش في الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الإسلامي.
(٢) المرجع السابق ص ٦٢٦، وانظر كذلك Hinduism p. 30 - 32.

مذهب السك :

ولنعد الآن إلى تحول آخر في الهندوسية ، فلقد ثار بعض الزعماء والملوك ، على كثرة الأديان ، فأرادوا أن يخلقوا ديناً جديداً يكون مزيجاً منها جميعاً أو من أهمها ، ويعلق غوستاف لوبون على هذه المحاولة بأنها لم تنجح ، وأن كل ما عملته هو أنها أضافت ديناً جديداً لأديان الهند التى ضارعت أوراق الأشجار فى كثرتها[1] ، وأعظم هذه المحاولات هى المحاولة التى قام بها المصلح نَانَك لخلق ديانة واحدة من الإسلام والهندوسية ، عرفت بمذهب السك ، وقد ولد نانك فى أواخر القرن الخامس عشر ، ولما شبَّ دعا لمذهبه الجديد فاتبعه ناس كثيرون ، وبعد قرنين على وفاة نانك ظهر المرشد غووند وهو الذى نظم المذهب ونشره ودافع عنه حتى استقر فى الهند كدين جديد يضاف للأديان السابقة دون أن يستطيع أن يجمع بينها .

ويمكن أن يُعَدَّ ضمن هذه المحاولات ما قام به الإمبراطور أكبر (١٥٤٢ - ١٦٠٥) أعظم أباطرة المغول بالهند ، فإن هذا الإمبراطور لم يتمسك بالدين الإسلامى ، بل أعلن سنة ١٥٨١ ديناً جديداً أسماه «الدين الإلهى» وحث رعاياه على اتباعه ، ولكن هذا الدين اختفى بوفاة الإمبراطور .

وانتعشت الهندوسية متغلبة من حيث العدد على كل الأديان التى قامت فى الهند ، فالهندوسية ليست دينا فحسب ، إنها - كما قلنا من قبل - مجموعة عادات وأفكار ، إنها التراث الوجدانى والعقلى والاجتماعى الذى يتوارثه الهنود جيلا عن جيل ، على أن انتعاشها فى الزمن الحديث جاء وقد تشربت من البوذية والجينية والإسلام صوراً من أفكارها ، وألواناً من معتقداتها وآدابها ؛ ويبلغ عدد الهندوس الآن حوالى خمسمائة مليون نسمة[2] .

---

(١) غوستاف : حضارة الهند ، ص ٦٢٧ .

(٢) Berry : Religions of the World p. 42

وينبغى ألا نقع فى خطأ وقع فيه بعض الباحثين عن الهندوسية، فقد ظن هؤلاء أن الهندوسية - وهى تقاليد الهنود وفلسفتهم- لم يكن لها تأثير إلا على سكان شبه الجزيرة الهندية، فكما كانت اليهودية دين بنى إسرائيل كانت الهندوسية دين الهنود وفلسفتهم، وهذا صحيح إذا لوحظت الهندوسية نفسها التى يمكن القول أنها لم تخرج من الهند، ولكن الحقيقة أن الهندوسية أثرت بدرجات متفاوتة فى البوذية وفى أفكار بعض المسلمين وفى بعض الأديان والمعتقدات الهندية الأخرى، ومن الهند خرجت هذه الأديان تحمل ملامح من الهندوسية فانتشرت فى الأقطار المجاورة للهند، وبخاصة شرقى آسيا وجنوبيها الشرقى، فالإسلام الذى وفد من الهند إلى بعض مناطق إندونيسيا والفيلبين فيه بعض عناصر من الهندوسية، والبوذية التى هجرت الهند إلى كمبوديا وتايلاند وبورما ونيبال ليست بوذية خالصة ولكن بها عناصر كثيرة من الهندوسية، وفى بالى بإندونيسيا دين مزيج من الهندوسية والبوذية والأفكار البدائية التى سبقت الويدا وعاصرت قرونها الأولى. وكذلك انتقلت عناصر من الهندوسية مع المهاجرين الهنود الذين ينتشرون فى أماكن متعددة من إفريقية وآسيا[1] .

وبمناسبة تأثر الهند بالأفكار الخارجية وتأثيرها فيها، يقرر Rylands أن الهند اتصلت بطريق التجارة أو الحروب بالعراق وفارس وقلب آسيا وبورما والصين وسومطرة وجاوة واليونان وروما، ولكن التفاعل الفكرى كان ضئيلا جداً، فقد كان دستور الهند دائما هو إحاطة الفكر الهندى بسور بحيث لايتسرب منه ولا له شىء من الخارج، وفيما عدا البوذية لم تصدر الهند شيئاً من أفكارها وفلسفاتها[2] .

---

(١) Hinduism Ed. by Lowis Renau p. 2

(٢) The People and Religions in India

إن دراسة الهندوسية تبرزها معقدة غير معقولة، تهتم بالخرافات، وتهبط فى مستواها متأثرة بالسحر وبالألفاظ الجوفاء، وهذا مأخذ يؤخذ على الهندوسية، ومما يؤخذ على الهندوسية كذلك تأثيرها البالغ فى هبوط المستوى الاقتصادى لمعتنقيها، فبعض طبقاتها لاتعمل لأن العمل لايليق بمكانتها السامية كطبقة البراهمة وطبقة الحكام والجنود، وبعض طبقاتها لاتعمل لأن مهمتها أن تخدم السادة وأن تسهر على رفاهيتهم، ويتبقى للعمل طبقة واحدة يتحتم عليها أن تعمل للطبقات الأربع، على أن نظام الطبقات نفسه يعاب على الهندوسية لتعطيله تكافؤ الفرص وحرمانه كثيراً من الناس من حقوقهم فى السبق والتفوق إن أهَّلتهم مواهبهم لذلك.

ويؤخذ على الهندوسية كذلك السلبية العميقة، والتسامح الذى يصل إلى درجة الرضا بالضيم، وربما عُدَّ فضيلة ولكن المبالغة فيه تنقله إلى محيط الرذائل.

ومن العادات المقيتة فى الهندوسية التبكير فى الزواج، فقد كان الأطفال يعقد لهم بالزواج وهم يحبون، وإذا مات الولد - وكثيراً ما كان يموت الصبيان - ترملت زوجته وأمضت حياتها أرملة حزينة عليه، وكثيراً ما كانت الزوجة تلقى بنفسها فى النار لتحرق نفسها بنفس النار التى أشعلت ليحرق بها جثمان زوجها الميت.

وبمناسبة الحديث عن حرق أجسام الموتى الهندوس نقرر أن كثيراً من الناس يرون فى حرق الجثمان مهانة وقسوة، وقد تحدث الناس فى البلاد العربية عن ذلك فى الفترة التى سبقت إخراج الطبعة الأولى من هذا الكتاب بمناسبة حرق جثمان الزعيم الهندى «نهرو» ونذكر هؤلاء بما سبق أن أوردناه من أن الفكر الهندى لايهتم بالجسد حتى فى حال الحياة، أى فى حال حمله للروح التى هى موضع الاهتمام والتقديس، فإهمال الجسد بعد خروج الروح منه أيسر وأسهل.

والهندى يفضل الانفراد والأنانية، والفلسفة فى الهندوسية تدريب روحى، وهى تتطلب من الشخص أن يهذب نفسه وما حوله أكثر من أن تتطلب منه أن يفكر، فالعلاقة بين الفيلسوف وبين العالم ليست إلا علاقة سحر وافتنان.

وليس للفرد أهمية تذكر فى الهندوسية، ويكاد يكون مهملا لأنه ليس إلا عضواً فى جماعة هى بدورها عضو فى جماعة أكبر، وكل العناية تتجه للجماعة لا لأفرادها، ثم إن أهداف الهندوسية الرئيسية هى الحالة العامة (The Situation) وليس للأفراد ولا حتى للجماعات أية قيمة إلا فى ضوء الحفاظ على الحالة العامة.

والهندوسية دين غموض وخفاء، والصدق أهم معالم الهندوسية على اختلاف شُعبها، والزهد والحرمان طريق الهندوسية المفتوح للجميع كوسيلة للنقاء، والهندوسية دين الحكمة، ومن أجل الحكمة فى الهندوسية تأثر الإغريق بها عندما ذهبوا إلى الهند واتصلوا بثقافاتها وتستطيع الحكمة فى الهندوسية أن تمدَّ ثقافة العصر الحديث بعناصر نافعة خيِّرة، ويرى بعض الباحثين أن اتصال الهندوسية بالحكمة أكثر من اتصالها بالروح.

وقد مرت على الهندوسية آلاف السنين، ولاتزال محتفظة بتعاليمها، ولم يستطع إصلاح داخلى أن يُغير من جوهرها، ولا سمحت بإصلاح من الخارج ليقتحم عليها رقعتها، فإذا هبت حركة إصلاحية داخلية كالبوذية، أو جاءت من الخارج حركة إصلاحية كالإسلام، كان تأثير الهندوسية فى حركة المقاومة أكثر من تأثرها بها. على أن الهندوسية ستضطر لتنحنى أمام الأفكار التى تقاوم اتجاهاتها الآن، فلم يعد مستقبل أية أمة من الأمم فى يدها وحدها، ولعل نظام الطبقات سيكون أسرع نظم الهندوسية إلى الزوال(1).

---

(1) Hisduism Ed. Lowis Renou pp. 36-38.

الجينية

القرن السادس قبل الميلاد :

يعتبر القرن السادس قبل الميلادى من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة ، ففى كل مكان به كانت عقول الناس تُظهر جرأة جديدة ، وفى كل مكان كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان والقرابين ، ويسألون أشد الأسئلة تعمقاً ونفاذاً ، وكأنما الجنس البشرى قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة . ففى هذا القرن ظهر بالهند مهاويرا معلم الجينية ، وظهر غوتاما مؤسس البوذية ، وظهر بالصين كونفوشيوس المربى العظيم ، وفى إيران ظهر زرادشت ، وبين بنى إسرائيل قام أشعيا وغيرُه من المعلمين ، وفى بلاد الإغريق ارتفع صوت فيثاغورس ، وفى مدينة إفيسس تجلى هيراقليتوس يواصل تأملاته وأبحاثه الفكرية فى طبيعة الأشياء ، وهكذا هبّت موجة فكرية تجاوبت أصداؤها فى كل مكان (١) .

النشاط الفكرى بالهند :

ومن بين ألوان النشاط الفكرى التى انبثقت فى القرن السادس (ق . م) كان ـ كما قلنا ـ ظهور مهاويراً وبوذا بالهند ، ويلاحظ على أفكار هذين المعلمين ، بل على أفكار جميع المصلحين والفلاسفة الهنود أنها دارت فى الفلك الهندى ولم تتجاوزه ، فالجميع يرون أن الحياة الدنيا تعاسة ، والعيش فيها ويل ، والتغير والزوال أساس الحسرات وأصل الآلام ، والجميع يقولون بتكرار المولد ، وبالزهد وسيلة . . . وإذا شذَّ أى مفكر هندى عن هذا الإطار ضاع صوته دون غناء ، ويقول الفيلسوف الهندى عبد السلام الرامبورى عن فرقة الصرواكيين : إنهم شرذمة خالفوا كيان تربيتهم فأكلتهم (٢) ومن أجل هذا التشابه اختلط أمر الجينية مثلاً على

---

(١) Wells : A Short History of the World p.l 121 .
وثقافة الهند (مارس سنة ١٩٥٠) ص ١٧ .
(٢) فلسفة الهند القديمة ص ٦٠ .

غوستاف لوبون فعدّها نوعا من البوذية [1] ، ومن أجل هذا أيضاً لم تستطع البوذية الصمود فى معركتها ضد الهندوسية حول موضوع الطبقات ، وغادرت البوذية وطنها ثمنا لهذا الخلاف ، ودخل نظام الطبقات إلى البوذية بشكل عملى وإن أنكرته نظرياً ، أما الجينية فقد اضطرت بعد فشل مقاومتها إلى العودة لقبول نظام الطبقات بشكل ما ، فقررت الاعتراف بالبراهمة ورسمت إجلالهم ، وبذلك استطاعت البقاء فى الهند [2] .

منشأ الجينية والبوذية :

وضع البراهمة نظام الطبقات كما قلنا فى حديثنا عن الهندوسية ، وخص البراهمة أنفسهم بكثير من الامتيازات التى ذكرنا بعضها عند الكلام عن نظام الطبقات [3] ، وفى ظل هذا النظام استبد البراهمة وظهر عسفهم وطغيانهم أحياناً ، وضج الناس من استبداد البراهمة وجورهم وتمنّوا ظهور قائد روحى جديد يخلصهم من ظلم البراهمة وطغيانهم ؛ وكانت طائفة الكشتريا أكثر الطوائف إحساساً بهذا الظلم لشدة ما بين الطائفتين من تنافس كنتيجة لقرب المسافة بينهما . ويمكننا هنا أن نشير إلى أسطورة وردت فى مهابهارتا تدل على مدى ما بين الطائفتين من أضغان ، وتتصل هذه الأسطورة بالأميرة «ديويانى» التى سبق أن تحدثنا عنها عند التعريف الذى أوردناه بمهابهارتا ، وموجز الأسطورة أن «ديويانى» وهى من طبقة البراهمة خرجت فى نزهة فى فصل القيظ ، مع «سرمستها» بنت ملك أسورا ومعهما بعض الأتراب ، ووصلن بحيرة ، فخلعن ملابسهن ونزلن للاستحمام ، فهبت عاصفة حملت ملابسهن وخلطتها بعضها ببعض ، وخرجن من البحيرة ، فأخطأت «سرمستها» بنت الملك ولبست ملابس «ديويانى» البرهمية فقالت لها «ديويانى» : ألا تعلمين أيتها الجاهلية أن كسوة بنت

---

(1) حضارة الهند ص ٦٢٢ .
(2) المرجع السابق ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .
(3) ص ٥٢ .

الشيخ أكبر من أن ترتديها بنت التلميذ هل أنت بلهاء إلى هذا الحد ؟ فغضبت «سرمستها» وأجابت : أنا بنت ملك يذكره الناس شاكرين أياديه ، وأنت بنت رجل يعيش على الإحسان ، عشيرتي عشيرة البر ، وعشيرتك عشيرة الاستعطاف والتسوّل . . . . وأخرجت كلٌ منهما ما في جعبتها من الحقد ، ولم يقنع البراهمة بعد ذلك إلا بعقوبة قاسية تقع على بنت الملك ، واختارت «ديوياني» العقوبة التي تُرضيها ، وهي أن تصبح بنت الملك خادمة لها في المنزل الذي ستتزوج فيه .

وهكذا كان هناك سخط من كل الطبقات ضد استبداد البراهمة ، وكان الكشتريا أكثر الطوائف سخطاً ، ثم كانوا - لقوتهم - المسئولين عن مقاومة طغيان البراهمة وجبروتهم ؛ وهكذا دبٌ في نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثورة ، وقَويَ هذا الإحساس على مر الزمن ، حتى جاء القرن السادس فإذا بالإحساس يصبح واقعاً ؟ فهبت ثورتان كبيرتان في وجه الهندوسية ، يقود مهاويرا إحدى هاتين الثورتين ، ويقود غوتاما ثانيتهما ، فلنبدأ بالحديث عن الأولى .

مهاويرا زعيم الجينية

بيت مهاويرا وولادته ونشأته :

ينحدر مهاويرا من أسرة من طبقة الكاشتريا التي تسيطر على أمور السياسة والحرب ، وكانت أسرته تقيم في «بيساره» وهي بالقرب من المدينة المسماة الآن «بتنا» بولاية «بيهار» وكان أبوه «سدهارتها» عضواً في المجلس الذي يحكم المدينة أو قطاع المحاربين فيها ، وتزوج «سدهارتها» من بنت رئيس هذا المجلس واسمها «ترى سالا» وارتقت مكانة «سدهارتها» حتى وصفته بعض الروايات بأنه كان أمير المدينة أو ملكها ، وكان مهاويرا الابن الثاني لوالديه ، ولذلك آلت الإمارة إلى أخيه عقب وفاة الأب .

وكان مولد مهاويرا سنة ٥٩٩ق . م . وفى اليوم الثانى عشر لولادته اجتمع أعضاء الأسرة فى حفل كبير ، ودعيت عمة الطفل لتختار له اسما كالعادة ، غير أن والديه ذكرا أن الأسرة نعمت بالرخاء والخير منذ حملت به أمه ، واقترحا لذلك أن يسمى «وردهاماتا» أى الزيادة ، ولكن أتباعه يدعونه «مهاويرا» مدعين أنه الاسم الذى اختارته له الآلهة ومعناه البطل العظيم ، ويدعى كذلك «جينا» أى القاهر والمتغلب ، وبهذا الوصف سميت الفرقة كلها وسميت به الديانة الجينية لأن مؤسسيها عرفوا بقهر شهواتهم والتغلب على رغباتهم المادية (١) .

ونشأ مهاويرا فى بيته المجيد ، وسط الرخاء وطيب العيش ، وكانت أسرته تستقبل من حين لآخر وفود الرهبان وجماعات النساك حيث يجدون فى دار الأمير إقامة طيبة وحسن ترحيب ، وكان مهاويرا منذ نعومة أظفاره يحب مجالستهم ويستمع إلى حكَمهم وإرشاداتهم ، وتأثر مهاويرا بهم وبفلسفاتهم فعزف عن المتع والملاّذ الدنيوية ، ومال إلى الرهبانية والتبتل والزهد ، ولكن الظروف لم تكن تسمح له بالتعمق فى الرهبنة والخوض فى الزهد نظراً لمكانة أسرته التى كانت ترعى شئون السياسة والنضال ، وتعيش فى الترف والبذخ .

ودفعته حياة أسرته إلى الزواج ، فتزوج بفتاة اسمها «يسودا» وولدت له بنتاً سميت «أبوجا» وظل مهاويرا طيلة حياة والديه يكبت إحساسه وشوقه للرهبنة ويعيش فى الظاهر كما يعيش أبناء طائفته ، وينطوى باطنه على رغبة فى الزهد والصفاء ، فلما توفى والده أتيحت له الفرصة ليعلن ما أخفى ، وكان أخوه الأمير قد تولى الإمارة ، فطلب منه مهاويرا أن يأذن له فى الرهبنة ، ولكن الأمير خشى أن يظن الناس أن تصرُّف مهاويرا كانت نتيجة

---

(١) حامد عبد القادر . بوذا الأكبر ص ٢٦ .
و . Berry : Religions of the World p. 41

لقسوة أخيه عليه أو تقصيره فى مطالبه ، فطلب الأمير من مهاويرا أن يؤجل ذلك عاماً ، فاستجاب له مهاويرا ، وفى الموعد المحدد عُقد اجتماع كبير تحت شجرة أشوكا اشترك فيه أفراد الأسرة وأهالى البلدة ، وأعْلَن مهاويرا فيه رغبته فى التخلى عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا ليخلو للزهد والتبتل ، وكان هذا مطلع حياته الروحية الصريحة ، فخلع ملابسه الفاخرة ، ونزع حليه ، وحلق رأسه ، وبدأ حياة جديدة وكانت سنه آنذاك ثلاثين عاماً .

ترهيب مهاويرا ودعوته :

صام مهاويرا يومين ونصف يوم ، ونتف شعر جسمه ، وبدأ يجوب البلاد حافياً ، وفى زى الزهاد والنساك ، ولجأ إلى الزهد والجوع والتقشف ، وغرق فى التفكير ، واهتم بالرياضة الصعبة القاسية والتأملات النفسية العميقة ، وبعد ثلاثة عشر شهراً من ترهبه خلع ملابسه دون حياء ، إذ كان قد قتل فى نفسه عواطف الجوع والإحساس والحياء ، وكان أحياناً يعتكف فى المقابر ، ولكن أكثر وقته كان يمضيه متجولاً فى طول البلاد وعرضها ، وكان يغرق فى المراقبة إلى حد لا يشعر فيه بالحزن أو السرور ، ولا بالألم أو الراحة ، وكان يعيش على الصدقات الطفيفة التى تقدم إليه .

ودرجات العلم عند الجينيين خمسة سنتكلم عنها فيما بعد ، ويرى الجينية أن مهاويرا ولد مزوّداً بثلاث منها فلما واصل تأملاته وتقشفه حصل على الدرجة الرابعة ، واستمر مهاويرا يصارع المادة ويزيد فى تبتُّله ، فراح يجوب البلاد دون راحة ، وحرص كل الحرص على ألا يقتل حياً ، وكان يراقب نفسه مراقبة دقيقة فى صمت تام ، وبعد اثنى عشر عاماً أصبح - كما يقول عنه أتباعه - سَيْرُه مستقيماً كسَيْر الحياة ، لا يبالى بالعراقيل كالعاصفة ، وكان قلبه نقياً كماء البِرْكَة فى الشتاء ، لا يلوثه شىء كورق اللوتس ، مشاعرُه محميَّة كأعضاء السلحفاة ، وحيداً فريداً كقرن الخرتيت ، حراً

كالطبر ، جسوراً كالفيل ، قوياً كالثور ، مهيباً كالأسد . ثابتاً كالجبل ، عميقاً كالبحر ، وديعاً كالقمر ، بهياً كالشمس ، طاهراً كالإبريز .

ووصل مهاويرا إلى حالة الذهول وعدم الإحساس بما حوله ، وأفنى كل اتجاه مادى ، فحصل من درجات العلم على الدرجة الخامسة وهى درجة العلم المطلق ، ونَيْل البصيرة أو النجاة ، وبعد سنة أخرى من الصراع والتأملات فاز بدرجة «المرشد» أو Tirthankara . تيرثانكارا ، وبهذا بدأ مهاويرا مرحلة جديدة هى الدعوة لعقيدته ، وقد اتجه أول الأمر إلى أسرته وعشيرته فاستجابوا له ، ثم استجاب له أهل مدينته ، وأخذت دعوته تنتشر بين الملوك والقواد الذين رأوا فى هذه الدعوة ما يعبر عن خواطرهم فى الثورة على البراهمة ، وسار فى دعوته بنجاح حتى بلغ الثانية والسبعين ، فنزل مدينة بنابورى فى ولاية بَتْنا فألقى على الناس خمساً وخمسين خطبة وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالاً غير مسئولة ، ولما تمت خطبه حان أجله فقضى نحبه سنة ٥٢٧ ق . م فى خلوة وحيداً ، فتحرر من قيود الحياة وتَسَلْسُل الولادة والشيخوخة والموت ، وترك تراثاً ضخماً من الوصايا والحكم والفلسفات جديرة بالتقدير .

جينا الرابع والعشرون :

ويرى الجينيون أن الجينية مذهب قديم جداً ، وأنه قد تمَّ نضجه على يد أربع وعشرين من الجينيين ، وكان جينا الأول اسمه «رسابها» وقد ظهر منذ أمد بعيد ، ولا يحفظ التاريخ عنه شيئاً ، ولا ترتبط به إلا بعض الأساطير ، وتتابَعَ الجيناوات الواحد بعد الآخر حتى ظهر الجيناوان الأخيران فى العصور التاريخية ، أما أولهما وهو جينا الثالث والعشرون فاسمه «بارسواناث» وقد ولد فى القرن التاسع قبل الميلاد ومات فى القرن الثامن ، وقد أسس نظاماً رهبانياً شدَّد فيه بضرورة الرياضيات الشاقة المتعبة ، وجعل أتباعه قسمين : خاصة وعامة ، فالخاصة هم الرهبان والمتبتلون الذين

التزموا الرياضة الشاقة والحرمان ، وتركوا الأهل والمسكن ، وأخذا يجوبون الأقطار ويطوفون فى القرى والأمصار ، وهذا القسم هو عمود النظام ، والعامة هم الذين يؤيدون النظام بأموالهم ويمدون الرهبان بحاجاتهم ، مع بعد عن الفواحش وانشغال بالمكاسب من غير عنف ولا إضرار بأحد ، مقتدين بالرهبان ما وسعهم ذلك .

وجاء مهاويرا وهو جينا الرابع والعشرون ، فاعتنق مبادئ «بارسواناث» وزاد عليها من فكره وتجاربه وإلهامه ، وعلا شأنه ، واشتهرت الطريقة باسمه ، وعرف النظام بلقبه ، فلا تعرف الجينية إلا منسوبة إليه [1] .

عقائد الجينية

يقول أحد الفلاسفة الهنود [2] عن الجينية : هى حركة عقلية متحررة من سلطان الويدات ، مطبوعة بطابع الذهن الهندوسي العام ، أسسَ بنيانها على الخوف من تكرار المولد والهرب من الحياة اتقاء شائماتها ، منشؤها الزهد فى خير الحياة فزعاً من أضرارها ، عمادها الرياضة الشاقة والمراقبات المتعبة ، ومعولها الجمود للملذات والمؤلمات ، وسبيلها التقشف والتشدد فى العيش ، وطريقها الرهبانية ولكن غير رهبانية البرهمية ، وقد داوى الجينيون الميول والعواطف بإفنائها ووصلوا فى ذلك إلى إخماد شعلة الحياة بأيديهم ، وافتقدوا النجاة فى وجود من غير فعلية ، وسرور من غير انبعاث .

ذلك موجز القول فى عقائد الجينية ، وسنعطى فيما يلى من دراسات ، بعض التفاصيل لعقائد الجينية :

---

(١) هذه المعلومات خلاصة دراسات وأبحاث كثيرة نشرها فلاسفة الهند عن الجينية ، اقرأ كذلك . History of Budd its Thought by Edward Thomas .

(٢) مولانا محمد عبد السلام الراميورى : «الجينية» ضمن مقالاته وأبحاثه القيمة من «فلسفة الهند القديمة» .

الجينية والإله :

سبق أن ذكرنا أن الجينية كانت نوعاً من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة ، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة ، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة ، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، ومن هنا سمى هذا الدين دين إلحاد ، واتجهت الجينية إلى الاعتقاد بأن كل موجود إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً يتركب من جسم وروح ، وأن كل روح من هذه الأرواح خالدة مستقلة يجرى عليها التناسخ الذى اتفقت فيه الجينية مع الهندوسية (١) .

هذا هو أساس الفكر الجينى تجاه الإله ، غير أن الجينية دين مسالم ، يبالغ كل المبالغة فى البعد عن العنف حتى أنه يكره قتل الهوام والحشرات الصغيرة . وعدم العنف عهد من العهود الأربعة التى وضعها «بارسواناث» وهو جينا الثالث والعشرون ، وبسبب هذه المسألة اعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثالوث (برهما ـ وشنو ـ سيفا) ، وكانوا فى بادئ الأمر ـ كما يظهر من كتبهم ـ يعترفون بآلهة الهندوس للهندوس ، ويحترمونها للمجاملة والمسالمة ، ولكنهم عادوا فأجلوها لذاتها ، وإن لم يَصِلوا فى إجلالها إلى درجة الهندوس بطبيعة الحال (٢) .

غير أن العقل البشرى يميل إلى الاعتراف بإله ، ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التى يحتاجها إثبات الآلهة ، ومن هنا وُجد فراغ كبير فى الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يُكْمِل به صورة الدينَ الذى دعا إليه ، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلَهاً ؛ بل عدوا الجيناوات الأربعة

(١) Weech : The Peoples and Religions of India p. 317 .

(٢) انظر : «مهاويرا ، مؤسس الجينية» فى ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ١٠ .

والعشرين آلهة لهم ، ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندى الذى يميل فى الأكثر إلى تعدد الآلهة .

والجينية تتفق مع الإسلام فى جزء يسير يتعلق بروح الإنسان ، ذلك هو خلود الروح خلوداً أبدياً ، وخضوعها للثواب أو العقاب لما يرتكبه صاحبها، وإن اختلف الإسلام مع الجينية فى طريق الثواب والعقاب .

وعدم الاعتراف بالإله استتبع عند الجينيين اتجاهات مهمة سلبية تتعلق بالعقائد ، فهم لا يقولون بالصلاة ، ولا بتقديم القرابين ، ولا يعترفون بالطبقات ، ولا بما تدعيه الطبقة العليا فى النظام الهندوسى وهى طبقة البراهمة من امتيازات ومزايا . ولكنّ خُلُقَ المسالمة الذى دفع الجينيين إلى الاعتراف بآلهة الهندوس كما ذكرنا آنفاً ، دعاهم هنا إلى الاعتراف بالبراهمة ، وأن من الواجب احترامهم المطلق ، وليس معنى هذا وجود طبقة براهمة فى الجينية . بل المقصود احترام براهمة الهندوس كطائفة لها مكانتها فى الدين الهندوسى ، أما الطبقات فى الجينية فلم تتعد ما وضعه «بارسوانات» من تقسيم الجينيين إلى خاصة وهم الرهبان وعامة وهم من يؤيدون النظام من غير الرهبان ، ولم تجعل الجينية للرهبان امتيازات كما فعلت الهندوسية ، بل إن الجينية جعلت الرهبنة مشقة وتضحية وتكليفاً وسنشرح ذلك فيما بعد .

الكارما والتناسخ :

سبق أن شرحنا الكارما والتناسخ عند الهندوس ، وقد قلنا إن أديان الهند تسير غالباً فى فلك الهندوسية ، ومن هنا قالت الجينية بالكارما والتناسخ ، ولكن الجينية لم تعتقد ما اعتقده الهندوس من أن الكارما أمر اعتبارى يحقق قانون الجزاء الذى يحمِّل الإنسان تبعة أعماله ، ويجزيه عليها عن طريق تناسخ الأرواح ، بل قالت الجينية بأن الكارما كائن مادى

يخالط الروح كأنه يمسك بتلابيبها أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة ، ولا سبيل لتحرير الروح من ربقة هذا الكائن إلا شدة التقشف والحرمان من الملذات فى كل مرحلة من مراحل الحياة ، فهذه وحدها هى وسيلة تحرير الروح وحياتها حياة أبدية حرة ، وفى ذلك تقول النصوص الجينية المقدسة «كما تتحد الحرارة بالحديد ، وكما يمتزج الماء باللبن ، كذلك يتحد الكارما بالروح ، وبذلك تصير الروح أسيرة فى يد الكارما» (١) .

وللوصول إلى تخليص الروح من الكارما يظل الإنسان يولد ويموت حتى تطهر نفسه وتنتهى رغباته ، وإذ ذاك تقف دائرة عمله ومعها حياته المادية فيبقى روحاً خالداً فى نعيم خالد ، وخلود الروح فى النعيم بعد تخلصها من المادة يسمى عند الجينيين «النجاة» ، وهو ما يعادل الانطلاق فى الهندوسية والنزفانا فى البوذية .

الحسنة والسيئة :

الحسنة عند الجينيين هى فعل الخيرات كإطعام المساكين ومساعدة المحتاجين ، وبخاصة فيما يتصل بالرهبان الجينيين ، وقسم الجينيون الحسنات تسعة أقسام ، وذكروا أن الحسنات تُجزَى باثنين وأربعين طريقاً ، منها ما هو فى حياة الإنسان الحالية كالبركة والغنى والصحة ، ومنها ما هو فى حياة قادمة ، وأما السيئة فهى ارتكاب الأعمال الخبيثة والفواحش ، وقسموها ثمانية عشر نوعاً ، منها الكذب والسرقة والفسق والفجور والخيانة والجشع وما إلى ذلك ، وأشد أنواع الجنايات وأفظعها لدى الجينيين هو الاعتداء على الحياة والعنف والتشدد ، ووضعوا كفارات خاصة لكل نوع من السيئات ، منها الفقر والتناسخ فى أشخاص تعساء أو فى قوالب الحيوانات والجمادات (٢) . وتختلف الحسنات والسيئات باختلاف طبقتى

---

(١) حامد عبد القادر : بوذا الأكبر ص ٢٨ .

(٢) محيى الدين الألوائى : الفلسفة الجينية ص ٢٠ بتصرف .

الجينية اللتين سبق أن تحدثنا عنهما وهما طبقتا الخاصة والعامة ، على ما يشبه في الفكر الإسلامى الأثر القائل «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فما يجوز للعامة لا يجوز صدوره من الخاصة ، ويُطلب من العامة الخلق الحسن وعمل الحسنات ويكافئون عليها بما يضمن لهم حياة أو حيوات طيبة ، أما «النجاة» فالسبيل إليها شاق عسير ، وهى من خصائص الخاصة ، وسنتكلم عنها فيما يلى :

النجاة وسبل الوصول إليها :

النجاة هى غاية الكون ، وهى التطهر من أوساخ العواطف والشهوات الحيوانية ، والتخلص من قيود الحياة ؛ ومن تكرار المولد والموت ، وهى التمسك بالخير ، والتخلى عن ارتكاب الشر ، و «النجاة» طور من الوجود يختلف عن أطوار الحياة الدنيا الفانية . وهى الفوز بالسرور الخالد الذى لا يشوبه ألم ولا حزن ولا هم ، ولا تكون للأرواح الناجية مطامع خاصة ولا أهداف تستميلها ، والشخص الناجى ليس بذى جسم مادى ، وليس بطويل ولا قصير ، ولا لون له ، يحيط بكل شىء ، مطلق من جميع القيود ، يكون دائماً فى سرور وطمأنينة واستقرار ونعيم مقيم ، مكانه فوق الخلاء الكونى ، وليس للنجاة نهاية فهى أبدية سرمدية . ولا تحصل النجاة إلا بعد عبور المرحلة البشرية بما فيها من عوائق ومتاعب . ولا نجاة بالمعنى الحقيقى إلا للبشر كما قال مهاويرا فى وصفه للحياة والنجاة [1] ، ولا توصف النجاة بوصف نعلمه ، ولا بحال نعقله .

والسبيل إلى «النجاة» شاق عسير كما قلنا من قبل ، ولا يطمع فيها إلا الخاصة من الرهبان . وللوصول للنجاة يتحتم على الناسك ألا يوقع أذًى بإنسان أو حيوان ، وعليه أن يدرك أن احترام الحياة أقدس ما عنى به مهاويرا

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

وعلى هذا يحرم عليه قتل الحيوان وبالتالى أكل اللحوم ، ولعل لهذا صلة بصوم المسيحيين عما فيه روح ، فأغلب الظن أن صوم المسيحيين على هذا الوجه انحدر لهم من الفكر الجينى ، ويبالغ الرهبان فى الحيطة والحفاظ على ما فيه روح ، فيمسك بعضهم بمكنسة ينظف بها طريقه أو مجلسه خشية أن يطأ حشرة فيها روح فيؤذيها أو يقتلها ، ويضع بعضهم غشاء على وجهه يتنفس خلاله حتى لا يستنشق أى كائن حى وهو يلتقط أنفاسه .

ولابد للنجاة كذلك من قهر جميع المشاعر والعواطف والحاجات ، ومؤدّى هذا ألا يحس الراهب بحب أو كره ، ولا بسرور أو حزن ، ولا بحرٍّ أو برد ، ولا بخوف أو حياء ، ولا بجوع أو عطش ، ولا بخير أو شر . والجينى بذلك يصل إلى حالة من الجمود والخمود والذهول فلا يشعر بما حوله ، ودليل ذلك أن يتعرى فلا يحس بحياء ويُنتَف شعره فلا يتألم ، لأنه لو أحس بما فى الحياة من خير وشر أو نُظُم متَّفَق عليها ، فمعنى هذا أنه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها ، وهذا يبعده عَن النجاة . ولما كان أبرز ما فى هذا التنظيم هو العرى ، والجوع حتى الموت ، سميت الجينية دين العرى ودين الانتحار .

العرى والانتحار فى الجينية :

وعلى فكرة العرى يقول أحد علماء الجينية فى محاضرة له عنها [1] : يعيش الرهبان الجينيون عراة ، لأن الجينية تقول : مادام المرء يرى فى العرى ما نراه نحن ، فإنه لا ينال النجاة ، فليس لأحد أن ينال نجاة مادام يتذكر العار ، فعلى المرء أن ينسى ذلك بتاتاً ليتمكن من اجتياز بحر الحياة الزاخر ، فطالما تذكر الإنسان أنهُ يوجد خيرٌ أو شر ، حُسْنٌ أو قبح . فمعناه أنه لا يزال متعلقاً بالدنيا وبما فيها فلا يفوز بـ «موشكا» أى النجاة ويُبيِّنُ هذا خيرَ بيان الحكايةُ المعروفة عن طرد آدم وحواء من الجنة ، فقد كانا يعيشان فيها عاريين

(١) نقلاً عن ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ١٣ ، ١٤ .

بطهر كامل ، لا يعرفان همًّا ولا غماً ، خيراً ولا شراً ، حتى أراد عدوهما الشيطان أن يحرمهما مما كان فيه من البهجة والسرور والسعادة ، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر ، فأُخرجا من الجنة ، فالذى حرمهما من الجنة هو علمهما بالخير والشر وبأنهما عاريان (١) ، ويرى الجينيون أن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم وعلى العكس من ذلك فعدم الشعور بالحياء معناه عدم تصور الإثم وذلك زيادة فى النقاء ، فعلى كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عارياً ، ويتخذ من الهواء والسماء لباساً له .

أما الانتحار فقد كان نتيجة للتخلى عن كل عمل ، وترك كل ما يغذّى الجسم لعدم الإحساس بالجوع ، ولقطع الروابط بالحياة ، وللتدليل على أن الراهب أو الراهبة لم يبق له اهتمام بهذا الجسد الفانى ، فهو يجيعه ، وينتف شعره ، ويعرضه لظواهر الطبيعة القاسية حتى الموت . وقد انتشر الانتحار بالجوع بين رهبان الجينيين قديماً (٢) .

ويعتبر الانتحار غاية أو جائزة لا تتاح إلا لخاصة الرهبان الذين اتبعوا النظام الجينى الذى سنشرحه عند الكلام عن فلسفة الجينية ، وإتاحة الفرصة للانتحار معناها قطع الأعمال التى هى مظنة إلحاق الضرر بأى كائن ذى روح ، ولا يكون ذلك إلا بعد قضاء اثنى عشر عاماً أو ثلاثة عشر عاماً داخل الناموس الصارم المرسوم للرهبان الجينيين .

---

(١) هذا هو رأى الجينيين ، ونرى نحن المسلمين أن خروجهما كان لعصيان آدم أمر ربه «وعصى آدم ربه فغوى» .

(٢) هذه المعلومات نظمت على هذا النسق بعد جهد ، وجمعت من المراجع الآتية :

«أ» خطب جينا .

«ب» أعداد كثيرة من «ثقافة الهند» .

«جـ» تاريخ الإسلام فى الهند للأستاذ عبد المنعم النمر .

«د» Weech : The Peoples and Religions of India

«هـ» Berry : Religions of the World فى عدة صفحات .

أليس تناقضاً عجيباً أن يحرص الجينيون بالغ الحرص على الحياة لكل حشرة وكل دابة ، ثم يجعلون انتحار الرهبان جوعاً قربى من القربات؟ مهما قيل من الأسباب فإنى أراه إيذاء للإنسان وقضاء على حياته ، مع أن الجينية لا تلحق الأذى بأحد ولا تقر القضاء على الحياة ، ويظل تساؤلنا هذا قائماً مع تذكرنا أنهم يعملون ذلك رغبة فى الخلود أو النجاة ، أو نتيجة للخمود والجمود .

ولنعد للعامة من الجينيين ، هؤلاء لا يلزمهم أن يقوموا بكل هذه المناسك والسبل ، ولكن عليهم أن يقوموا ببعضها فى حدود طاقتهم ، فعليهم ألا يوقعوا الأذى بإنسان أو حيوان ، وعليهم ألا يقتلوا النفس وألا يأكلوا اللحم وأن يقهروا رغباتهم ، ولكن لا إلى درجة الجمود والخمود والذهول التى يتبعها الرهبان .

فلسفة الجينية من كتبهم المقدسة

المصادر المقدسة لدى الجينيين هى خطب مهاويرا ووصاياه ثم الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والعرفاء والرهبان والنساك الجينيين ، وقد انتقل هذا التراث المقدس من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة ، ثم خيف ضياع هذا التراث أو ضياع بعضه أو اختلاطه بغيره فاتجهت النية إلى جمعه وكتابته ، واجتمع لذلك زعماء الجينية فى القرن الرابع قبل الميلاد فى مدينة «باطلى بترا» وتدارسوا هذا الأمر وجمعوا بعض هذا التراث فى عدة أسفار ، ولكنهم اختلفوا بعضهم على بعض فى بعض المصادر ، كما لم ينجحوا فى جمع الناس حول ما اتفقوا عليه ، ولذلك تأجلت كتابة القانون الجينى حتى سنة ٥٧م فدونوا آنذاك ما استطاعوا الحصول عليه بعد أن فقد كثير من هذا التراث بوفاة الحفاظ والعارفين ، وفى القرن الخامس الميلادى عقدوا مجلساً آخر بمدينة «ولابهى» حيث تقرر الرأى الأخير حول التراث الجينى المقدس .

أما لغة هذا التراث فكانت اللغة المسماة «أردها مجدى» فلما اتجهت النية إلى حفظه وتدوينه اختيرت اللغة السنسكريتية لهذا الغرض ، وكانت لغة «أردها مجدى» هى لغة هذا التراث قبل الميلاد ، أما الغة السنسكريتية فقد حلّت محلها فى القرون الميلادية الأولى .

وسنختار من هذا التراث المقدس بعض نماذج تشرح لنا أهم اتجاهات الفلسفة الجينية :

اليواقيت الثلاثة :

يقول الجينيون : إن الحياة الدنيا تعاسة مستمرة وشقاء متصل ، نعيمها زائل والعيش فيها باطل ، نطمح فيها إلى الخير فننال شراً ، ونبتغى السعادة فتصيبنا الشقاوة حتى نموت ولم تنته حسراتنا ! ثم نحيا حياة قد كسبتها أيدينا ، خيرها تَهْلُكة فكيف بشَرِّها ، وتدوم عجلة الموت والحياة فيالنا من خاسرين ، ولا دواء إلا بأن نَنزع ، ونزهد فى الحياة وترفها ، ولكن هناك شيئاً يجعلنا نتمسك بالحياة ، ويزيِّن لنا باطلها ، ما هو؟ إنه الغواية (Mittpaiua) التى تخلق العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة ، والجهل المشين ، وهذه تكسو الروح بظلام ، ويتراكم الظلام فتعمى الروح بظلام ، ويتراكم الظلام فتعمى الروح وتسير على غير هدى ، تحب الحياة وشهواتها ، وتسير فى طريق الضلال ، وتظل الروح على هذا الوضع بين الموت والولادة ، حتى ينبثق النور ، إما من أعماق الروح بطريق الصدفة أو الإلهام ، وإما بقيادة العرفاء والمبشرين وهدايتهم ، وليس هذا النور إلا السبيل المثلث أو اليواقيت الثلاثة التى من اتبعها وصل إلى بر السلامة ، وهذه اليواقيت هى :

١ـ **الياقوتة الأولى الاعتقاد الصحيح** : وهو رأس «النجاة» ويقصدون به الاعتقاد بالقادة الجينيين الأربعة والعشرين ، فإن ذلك هو المنهج المعبَّد والصراط السوى ، ولا يكون الاعتقاد الصحيح إلا إذا تخلصت النفس من

أدران الذنوب اللاصقة بها ، والتى تحول دون وصول الروح إلى هذا الاعتقاد .

٢ـ الياقوتة الثانية العلم الصحيح : ويقصد به معرفة الكون من ناحيته المادية والروحية والتفريق بين هذه وتلك ، وتختلف درجة المعرفة باختلاف قوة البصيرة وصفاء الروح ، ويستطيع الشخص الذى يَفصلُ أثر المادة عن قوته الروحية وإشراقها أن يرى الكون في صورته الحقيقة ، وتتكشف لديه الحقائق ، وترتفع عنه الحجب الكثيفة فيميز الحق من الباطل والظن من اليقين ، ولا تشتبه عليه الأمور ، ولا يكون العلم الصحيح إلا بعد الاعتقاد الصحيح .

٣ـ الياقوتة الثالثة الخلق الصحيح : ويقصد به التخلص بالأخلاق الجينية من التحلى بالحسنات والتخلى عن السيئات ، وعدم القتل وعدم الكذب وعدم السرقة ، والتمسك بالعفة ، والزهد فى الملكية .

واليواقيت الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض ، وإذا اكتملت فى إنسان فإنه يجد لذة لا تعد لها لذة وسعادة ليس مثلها سعادة .

المبادئ الأساسية لطهارة الروح :

وضع الجينيون سبعة أصول رئيسية لتطهير الروح ، وتعتبر هذه الأصول أمهات المبادئ الجينية . وهى :

١ـ أخذ العهود والمواثيق مع القادة والرهبان بأن يتمسك المريد بالخلق الحميد ويُقْلع عن الخلق السيئ .

٢ـ التقوى ، وهى المحافظة على الورع ، والاحتياط فى الأقوال والأعمال ، وفى جميع الحركات والسكنات ، وتجنب الأذى والضرر لأى كائن حى مهما كان حقيراً .

٣ـ التقليل من الحركات البدنية ، ومن الكلام ، ومن التفكير فى الأمور الدنيوية الجسمانية ، حتى لا تضيع الأوقات والأنفاس الثمينة فى صغار الأمور .

٤ـ التحلى بعشر خصال هى أمهات الفضائل ووسائل الكمال وهى : العفو ، والصدق ، والاستقامة ، والتواضع ، والنظافة ، وضبط النفس ، والتقشف الظاهرى والباطنى ، والزهد ، واعتزال النساء ، والإيثار .

٥ـ التفكير فى الحقائق الأساسية عن الكون وعن النفس ، وبعض أمور الكون وأمور النفس يُتَوصَّل لها بالحواس الخمسة المادية ، وبعضها لا يُتَوصَّل إليها إلا بمنظار الذهن ومن هنا لزم استعمال الحواس المادية واستعمال الفكر كذلك .

٦ـ السيطرة على متاعب الحياة وهمومها التى تنشأ من الأعراض الجسمانية أو المادية ، كمشاعر الجوع والعطش والبرودة والحرارة ، وسائر أنواع الشهوات المادية ، وعليه أن يضرب حصناً متيناً حوله للتخلص من هذه الأعراض والحواس والتأثر بها .

٧ـ القناعة الكاملة والطمأنينية والخلق الحسن ، والطهارة الظاهرية والباطنية .

وتدَّعى الجينية أن هذه المبادئ تطلق الإنسان من الوثاق الذى يشده بالحياة ، ويسلب عنه الراحة الذهنية والطمأنينة القلبية ، وإذا اتصف أحد بهذه الصفات السبع فإنها تخرجه من الظلمات التى تحيط به بسبب هموم الدنيا ومشاكلها العديدة ، حتى تصير روحه حرة طليقة تنساب فى سماء المعرفة والنور العلوى ، وتحيط بالعلوم الربانية والكشف الباطنى ، فتكون فى سرور دائم ولذة معنوية مطلقة ، وهذه هى الطريقة الجينية للنجاة .

درجات العلم فى الفلسفة الجينية :

تقسِّم الفلسفة الجينية العلم خمسة أقسام حسب مصادره ، وتُكثرُ الفلسفة الجينية من التفريعات لكل قسم ، ولنكتف هنا بإيراد الأقسام الخمسة الرئيسية :

١ـ الإدراك بطريق الحواس أو بطريق الذهن ، ويشتمل هذا الإدراك على طريق القياس والاستقراء المبنيين على المشاهدة ، كما يشتمل على الفهم والحفظ والاحساس ، ويستلزم هذا العلمُ حضورَ الأشياء المعلومة للحواس أولاً حتى يتم إدراكها .

٢ـ العلم عن طريق الوثائق المقدسة ، ويعرف هذا القسم بالعلم غير المباشر لتوسط المستندات والوثائق بين من يَعْلَم وما يُعْلَم ، وتدعى الجينية أن كتبهم المقدسة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة .

٣ـ العلم بالوجدان المحدود ، وهو إدراك ذى الصورة من الأشياء الموجودة بطريق الروح ، فالمدرك هنا موجود يمكن أن يرى ، ولكن لبعده مثلاً لا تراه العين ، وتراه الروح فى هذه المرحلة من مراحل العلم . وللوصول إلى هذه المرحلة لابد من تطهير الروح من الأدران والأوساخ والسمو بها عن الوساوس والأوهام .

٤ـ العلم بالوجدان المحيط ، وهو إدراك بطريق الروح لما ليست له صورة الآن ، فهو إدراك يتخطى مسافات الأزمنة والأمكنة ، يعلم ما فى السماء وما فى الأرض من ظاهر وباطن وما كان فيهما ، وهى مرحلة أعلى طبعاً من سابقتها وتستلزم مزيداً من الطهر والصفاء .

٥ـ العلم بمخبآت الضمائر والتصورات فى السرائر ، فهو علم بما لم يوجد إلا من حيث أنه خاطر فى الذهن ، وهو أرقى درجات العلم ، ولا

يتم إلا للذين هجروا الأهل والوطن وطهروا أنفسهم بالرياضة الشاقة [1].

لمحة تاريخية

كانت الجينية فرقة واحدة طيلة حياة مهاويرا ، ولم يحدث بها إلا خلافات غير عميقة الجذور سرعان ما كانت تلتئم ، وبعد وفاة مهاويرا حدث انقسام خطير شطر الجينية إلى فرقتين تسمى إحداهما ديجامبرا Digambara أي أصحاب الزى السماوى أى الذين اتخذوا السماء كساء لهم (والمقصود بهم العراة) والثانية تسمى سويتامبرا Svetambara أى أصحاب الزى الأبيض ، وعن هاتين الفرقتين حدثت فرقة أخرى كثيرة غير مهمة ، ويلاحظ أن تعدد الفرق لم يمس الفلسفة الأصيلة للجينية أو العقائد الرئيسية التى سبق أن تحدثنا عنها ، وإنما اتصل بأمور ونقاط غير مهمة ، وتحدث عن تفاصيل الأساطير وممارسة التقشف ، ففرقة ديجامبرا ترى أن مهاويرا حملت به أمه «ترى سالا» من بدء الأمر لا أنه استُلَّ جنيناً من رحم ديونندا البرهمية ثم ألقى به فى رحم «ترى سالا» كما تعتقد فرقة سويتامبرا، وتنفى فرقة ديجامبرا عن مهاويرا ما تراه غير لائق به ، فتقول إنه لم يتزوج قط ، وإنه هجر البيت والدنيا منذ مطلع حياته غير مبال بعواطف والديه ، ويَعتقدون أن العرفاء الكاملين لا يقتاتون بشىء ، ويقولون إن من يملك شيئاً من متع الدنيا ولو كان ثوباً واحداً يستر به عورته لا ينجو ، ويرون أن النساء لاحظ لهن فى النجاة ما دمن فى قوالب النساء ، أى إلا إذا دخلت أرواحهن فى قوالب أخرى فى حياة من الحيوات المتكررة ، ويعتقدون أن التراث الدينى المقدس للجينية قد ضاع كله : وأما ما تتلوه فرقة سويتامبرا فموضوع ومختلق .

---

(1) هذه المعلومات مستقاة من مراجع متعددة بعد جهد واسع فى المقابلة والتنقيح والتنظيم وأهمها دراسات الأستاذ مولانا محمد عبد السلام الرامبورى عن «فلسفة الهند القديمة» والأستاذ محيى الدين الألوائى عن الفلسفة الجينية ودراسات Weech و Ryland عن The Peoples and Religions of India ودراسات Allen عن The Buddh's Philosophy

أما فرقة سويتامبرا ففرقة معتدلة ، ترى أن مهاويرا وإن كان ميالا من وقت أن بدأ شعوره إلى هجر الدنيا وقطع العلائق ، إلا أنه لم يفعل ذلك في حياة والديه احتراما لإحساسهما ، ويروون عنه قوله في ذلك : ولا يليق بي وأنا الابن البار أن أنتف شعري وأقبل على حياة التشقف والحرمان تاركاً البيت والأسرة احتراماً لعواطف والديَّ ، وهم يبيحون الطعام للعرفاء ، ويرون إمكان النجاة للنساء .

وهناك افتراق حدث للجينيين بسبب مجاعة شديدة نزلت بموطنها الذي كانوا يتجمعون فيه في بلاد مكدا ، فلجأ عدد كبير منهم إلى الهجرة طلباً للعيش وتخفيفاً للعبء عن سكان المنطقة ، وذهب هؤلاء إلى الجنوب بزعامة بدرا باهوا Bhadra Bahu وأقام الآخرون تحت رقابة استولابدرا Sthula Badra[1] .

وقد سبق أن ذكرنا أن الجينية فرقتان : خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل ، وعامة وهم الذين يؤيدون النظام الجيني ، ويساعدون الرهبان مادياً ، ويباشرون حياة العمل ، مع تخلفهم ما استطاعوا بأخلاق الفكر الجيني ، وقد كان لهؤلاء وأولئك نصيب في تاريخ الجينية ، ومن أهم ما قالت به الجينية ، مما حبب هذا الدين للحكم والملوك ، أن الجينية مع أنها لا توقع أذى بذي روح توجب أن يطيع الشعب حاكمه ، وتقضي بذبح من يعصي الملك أو يتمرد عليه ، ولعل هذا هو الذي جعل للملوك والرجاوات يقبلون على الجينية يعتنقونها ويؤيدونها سواء في وادي الأندوس أو في الدكن[2] .

---

(١) الرامبوري : فلسفة الهند القديمة ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) Weech : The Peoples and Religions of India p. 317 .

وفى ابتداء العصور الوسطى حصلت للجينية رعاية من كثير من السلاطين ، وأصبح للرهبان الجينيين نفوذ كبير فى بلاط كثير من الملوك والحكام ، لاسيما فى بلاط الملك سدراج والملك كماربلا ، وبعد سقوط امبرطورية ديجانكر بقى فى الجنوب حكام صغار من الجينيين إلى أن ظهرت سلطة الإنجليز ، وفى عهد الحكم الإسلامى نالوا كذلك الاحترام والتقدير ، واستخدمهم الملوك المسلمون فى بلاطهم وفى كثير من الأعمال ، وجاء الامبراطور الشهير أكبر (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م) . الذى أدار ظهره للإسلام واتجه إلى خلق دين جديد مزيج من جميع الأديان ، وبخاصة أديان الهند الأصلية ، فاحتضن الجينية ، وخلع على المعلم الجينى «هيراويجيا» لقب (معلم الدنيا) ومنع ذبح الحيوانات أيام أعياد الجينيين فى المناطق التى يوجد بها أتباعٌ لهذه الطائفة [١] .

والجينيون من طبقة العامة ، أى الطبقة التى تباشر الأعمال وتساعد الرهبان ، يكثر أن يُعْرضوا عن الزراعة خوفاً مما تستلزمه من قتل بعض الديدان وإلحاق الضرر بما فيه روح ، ويتجه هؤلاء غالباً إلى التجارة وإقراض النقود وأعمال البنوك مما يقل فيه الاعتداء على ذوى الأرواح ، وقد ضمنت لهم هذه الأعمال نصيباً كبيراً من الثراء والرقى الاقتصادى ، حتى أصبح معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس فى التجارة والمعاملات المالية ، وقد مكنهم ثراؤهم من أن يعلبوا دوراً هاماً فى خدمة الثقافة الهندية والتراث العلمى والفنى على العموم .

وللجينيين أياد واضحة بصفة خاصة فى خدمة فن المعمار ، فقد برعوا فى النحت وإقامة التماثيل وتشييد العمائر والمعابد براعة فائقة ، وقد نحتوا الكهف العظيم المسمى «هاتى كنبا» فى منطقة أوريسة فى القرن الثانى قبل

---

(١) انظر بحثا عن «الطائفة الجينية» فى «ثقافة الهند» سبتمبر سنة ١٩٥٦ ص ٦٩ ، ٧٠ .

المسيح . والكهوف الجينية كثيرة ومنتشرة فى مختلف أنحاء الهند ، والجينيون مولعون بتعمير المعابد ، والمعبد ضرورى للمجتمع الجينى ، كما أن تعميره فرض دينى لديهم [1] .

وعن معابد الجينيين يقول غوستاف لوبون [2] : ولا تجد ديانة تعتد بالمعابد اعتداد الجينية ، ولا تجد ديانة شادت من المعابد الكبيرة الفخمة أعظم مما شادته الجينية ، فالحق أن معابد الجينية فى كهجورا وجبل آبو هى عجائب فن البناء فى الهند ، والحق أنه يخيل إلى الناظر فى أروقتها شبه المظلمة ، اهتزاز قوم من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يُشعُّون حياة ويكتنفون أحد الجيناوات البادى هادئاً رزيناً متربعاً فى جلوسه علَى العموم ، وهو فى حالة عرض كامل .

ويبلغ تعداد الجينيين الآن حوالى المليون ، وكلهم فى الهند ، فالجينية كالهندوسية لم تخرج من الهند ، ومستواهم الاجتماعى والثقافى راقٍ فى الغالب ، وعنايتهم بالثقافة لا تقل عن عنايتهم بالمال والفنون .

وعلى الصفحات التالية نماذة من رسومٍ وصورٍ للعمائر الجينية والفن الجينى .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) حضارة الهند ص ٦٢٣ .

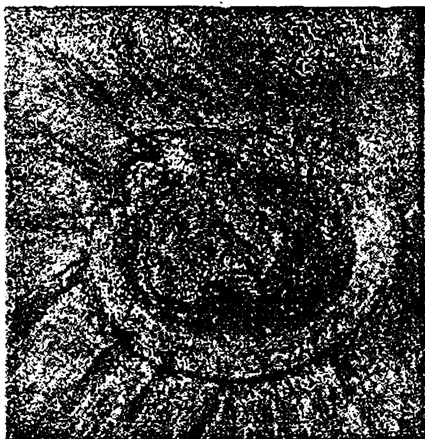
البوذيــة



مدخل المعبد الجينى فى كلكتا



سقف من الرخام لمعبد جينى فى دلوارا



سقف آخر من الرخام لمعبد جيني



دعائم لمعبد جيني في دلوارا

ذكرنا من قبل أن البوذية كانت أحد الاتجاهات الفكرية التى نبعت فى القرن السادس ، وذكرنا كذلك أنها كالجينية سارت فى إطار الفكر الهندى فى أكثر مبادئها ، وذكرنا أيضاً أنها كالجينية كانت ردَّ فعل لعسف البراهمة واستبدادهم مما أثار عليهم الطبقات الأخرى وبخاصة طَبقة الكشتريا ، حيث الأمراء والمحاربون : وقد انتهينا من الحديث عن الجينية إحدى الحركتين الفكريتين المتعاصرتين ، فلنبدأ الآن فى الحديث عن البوذية .

بيت بوذا وحياته

مولده ونشأته :

فى الناحية الشرقية من الهند ، وبجانب مملكة كوسالا Kausala بين مدينة بنارس وجبال الهملايا ، شمال نهر الكنج المقدس ، حيث تقع الآن آجام كثيفة على حددو نيبال ، كانت تمتد أرض خصبة مخضرة نافعة فارعة الأشجار طيبة الخمائل ، وكانت هذه الأرض موطن قبيلة ساكيا (Sakya) من الطبقة الكشترية ، وكان أمراء القبيلة هم أصحاب السيادة على هذه البقعة ، وسلاطينَها المسموعى الكلمة ، النافذى الرأى .

وكانا سدودانا (Suddhodana) أحد نبلاء هذه القبيلة ، يقطن قرية تدعى كبيلاواثور Kapilavathu له فيها ضياع فسيحة ، وزروع نضرة ، وقصور شاهقة ، وجاه عريض ، وكان متزوجاً من نبيلة اسمها مايا Maya يعيش معها فى هذا النعيم المقيم والمجد العظيم .

وفى سنة ٥٦٣ قبل الميلاد [1] أنجب هذان الأبوان طفلاً أطلقا عليه سذهاتا (Siddharta) وماتت أمه فى الأسبوع الأول من ولادته فحضنته خالته مهاياباتى (Mahayapati) ، وشب الطفل فى هذا النعيم العظيم كما يشب

(١) هذا التحديد ذكره Edward Thomas وبناء على عمر بوذا عند وفاته فى سن الثمانين سنة ٤٨٣ق . م وعلى عمليات حسابية أخرى تجعل هذا التحديد أقرب إلى الدقة (انظر : The Life of Bnddha p. 27)

أترابه من أبناء السادة والملوك ، ووجد الدنيا كلها تحت أمره ، والنعيم رهن إرادته ، وتهيأت له مفاتن الحياة ، وانبسط الأمل أمام عينيه ، وتدفقت المسرات تحفُّه من كل جانب ، وبلغ مطلع الشباب وهو يرفل في هذه النعمة ، كلمتُه مسموعة ، ورأيه مطاع ، وسارع أبوه فزوجه من ابنة أحد الأمراء واسمها ياسودهرا ولم يطل الوقت حتى ولد له ابن سموه راهولا (Rahula) .

كان من الممكن أن يَعْبُرَ سذهاتا الحياة كما عبرها ويعبرها آلاف مثله من الأمراء والملوك وكان من الممكن أن تنسيه مفاتنَ الحياة التى نعَمَ بها تلك الآلامَ التى يعانيها البؤساء والأشقياء ، وكان من الممكن أن يلهَيه شبابهُ عن هرم الشيوخ ، وصحته عن آلام المرضى ، وحياتُه المرحة عن صور الموت والفناء ، كما لها سواه وشُغفَ بالحياة كأن الشباب لا يهرم والصحة لا تنحلّ والحياة لا تزول[1] .

كان من الممكن أن يحصل هذا ولكن سذهاتا لم يستسلم للملاذ والشهوات ، ولم يَفْرُغ لنفسه ويستغرق فى شهواته ، وإنما عاش فرداً فى مجموعة يفكر فيها ويحس بإحساسها ، لا بل الحق أن نقول إن سذهاتا جذبه جانب الشر والألم فى الحياة أكثر مما جذبه جانب النعيم والسرور ، فلم يرضخ للحياة التى رسمت له ، وإنما رسم هو لنفسه حياة من طراز آخر على ما سيأتى تفصيله فيما بعد .

أفكار سذهاتا وفلسفته :

تروى الأقاصيص أن سذهاتا التقى مرة بشيخ عجوز واهن يتوكأ على عصاه ويوشك أن ينكفئ على صدره . وقد احدودب ظهره وتقوّس ، وثقل عليه رأسه فلا يطيق حمله ، فاضطرب له سذهاتا وتألم له ، فقال له

(١) G. A. Rylands : The Peoples and Religions of India p. 318 .

رفيقه شانا (Channa) : هكذا نهج الحياة ولا مفرّ لنا من هذا لامصير ، وتروى قصة أخرى أن سذهاتا رأى مريضاً يتلوى من المرض ، ويئن من الألم ، ويشكو من العناء ، وأهلهُ حوله لا يستطيعون إيقاف الألم ، بل لا يرون الداء ، ولا يحسّون بالعناء ، فقال له رفيقه شانا : هكذا نهج الحياة ، وتروى قصة ثالثة أن سذهاتا شاهد جثة أمعن فيها البلى ، وبعثت منها رائحة مؤذية ونَتَنٌ كريه ، فاستغرق في التفكير ، فقال له شانًا : هكذا نهج الحياة .

وفكّر سذهاتا في هذا العناء وهذا الشقاء ، ما مصدره؟ وكيف يمكن التخلص منه؟ وبخاصة أن كل إنسان لابد أن يعاني المرض يوماً ، ولابدّ أن يعاني سكرات الموت ، وكثير من الناس يمتد بهم العمر فيعانون الهرم والشيخوخة .

وأحس والده باتجاهه ، فحاول مقاومة هذا الاتجاه ، بأن يبعد مناظر الألم عن ابنه ، وأن يسبغَ عليه مزيداً من الملذات والمسرات لتجذبه عن التفكير في الآلام والشجون ، ولكن هذه الأحاسيس كانت قد تمكنت من فكر سذهاتا ، فلم يكن من السهل أن ينثنى عنها ، ثم إن سذهاتا عَمُق فيه هذا الطابع ، وكان اتجاهه صدى لأحاسيس نفسية قوية ، ولهذا فإن إبعاده عن هذه المناظر لم يأت بأية ثمرة[1] .

واستقر رأى سذهاتا على أن يدع صخب الحياة وأن يبدأ حياة الزهد والفكر لعله يصل إلى معرفة سر الكون ، وفي إحدى الليالي حيث كان القصر يموج بالبشر والمسرات بسبب ولادة ابنه ، قال سذهاتا : وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها ، وحزم سذهاتا أمره على أن يفارق هذه الملاذ وأن

(١) من رأى Edward Thomas مؤرخ البوذية أن الفترة الأولى من حياة غوتاما غامضة ، وأن ما كتب عنها ليس إلا من الأساطير التي حاكتها أقلام تلاميذه ومريديه بعد أن حصل على المعرفة وبدأ دعوته (انظر : The Life of Buddlha ص ٣-٥) .

يبدأ تأملاته ، وفى هجعة القصر بعد ما شاهده من مرح وغناء ، ألقى سذهاتا نظرة أخيرة على زوجته وطفله ، وتسلل من القصر ، وامتطى جواده ، وانطلق إلى مرحلة جديدة ، وكانت سنه آنذاك تسعة وعشرين سنة [١] .

سار سذهاتا فى تلك الليلة شقة بعيدة ، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضى عشيرته على ضفة نهر ملية ، وهناك ترجل ، وقطع بسيفه ذوائبه المتهدلة ، وأماط عنه كل حلية ، وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله ، ثم واصل سيره حتى التقى براهبين من البراهمة ، فبقى معهما وتتلمذ عليهما ، وأراد عن طريقهما أن يصل إلى غايته ، ولكن بعد فترة تأكد له أن ما يعيشان فيه من زهادة وتقشف شىء مقصود لذاته ، كأنه الغاية التى يتطلعان إليها ، وكان سذهاتا يريد الزهادة وسيلة لمعرفة أسرار الكون ، ولذلك هجرهما سذهاتا ، وقرر أن يسعى بنفسه لنيل المعرفة وكشف أسرار الكون ، وقد سلك من أجل هذا وسائل متعددة كالتصوف والفلسفة [٢] ، ثم انجذب نحو دنيا الرهبنة ، فبدأ حياة الترهب ، لذلك يحسن بنا فى هذه المرحلة من حياته أن نسميه غوتاما Gautama أى الراهب[٣] ، أو غوتاما أسير الفلسفة الهندية .

وقبل أن نسترسل فى هذه المرحلة من حياة سذهاتا يحسن بنا أن نتساءل : لماذا اتجهت فلسفة جوتاما إلى الآلام والأشجان حتى أصبحت الحياة كلها فى نظره جحيماً لا يطاق ، ونسى ما فى الحياة من معروف وخير وتخفيف ضر وتحقيق أمل ؟

---

(١) Edward Thomas : The Lufe of Buddha p. 54 .

(٢) Berry : Religions of the World p. 43 .

(٣) هذا ما نرجحه ، وتذكر بعض المراجع أن «غوتاما» كان اسم أسرته ، ومن الألقاب التى أطلقت عليه أيضاً لقب «مونى» أى المنفرد المنعزل عن الناس فكان يقال عنه «ساكيا مونى» أى المتبتل المنعزل من قبيلة ساكيا .

ثم لماذا اتخذ التقشف والانقطاع والتبتل سبيلاً للوصول إلى كشف الحجاب عنه ؟

كل هذه الأسئلة تدفع الباحث إلى الاعتقاد أن غوتاما كان على الأقل فى هذه الفترة أسير الفلسفة الهندوسية ، قرأها ، وعرف اتجاهاتها وتأثر بميولها إلى العزلة والزهد والانقطاع عن الناس ، بتفكير أو بدون تفكير ، فلما رأى غوتاما منظر المرض والشيخوخة وجثة الميت ضعف دافع المقاومة فى نفسه ، ورجح عنده الميل إلى سلوك نفس الطريق الذى سلكه الهندوس من قبل .

غوتاما فى تقشفه :

لجأ غوتاما إلى العزلة والتقشف ، وخلع ثيابه ، واكتفى برقاع أو أوراق شجر يستر بها عورته ، وألقى بجسمه بين الأشواك والحصا ، وأهمل الطعام والشراب والملاذ ، ويقال إنه كان يتبلغ بمقدار ضئيل جداً من الطعام بلغ أحياناً حبة من الأرز فى اليوم ، واتخذ ذلك طريقاً رجاء أن تُكْشفَ له أسرارُ الحياة . ويعرف السبيل للنجاة من عنائها ، وقام بألوان من الرياضات النفسية ، رغبةً فى أن يطهر نفسه حتى تصل إلى سر الكون ، وقد كلفته هذه الأعمال اضمحلالاً فى جسمه وانحلالاً فى قواه ، وزامله فى هذه الفترة القاسية خمسة من النساك ، وكانوا يرونه أكثرهم قسوة على نفسه ، وأصبرهم على الآلام ، ولذلك وضعوه فى موضع الزعامة بينهم ، إذ كانت الزعامة فى ذلك الحين لمن يستطيع أن يكون أشد صرامة وقسوة على جسمه . وأمضى غوتاما سبع سنين فى هذا الصراع العنيف لم يحس فى أثنائها ولا فى نهايتها بأى أثر يسير به إلى غايته ، وأدرك أن ما يفعله ما هو إلا إجهاد لجسمه لا يغنى فتيلاً ، وهنا أقدم غوتاما بشجاعة على ما لم يكن معهوداً فى نسَّاك عصره ، هؤلاء النساك الذين يرون محاربة الجسم كأنها غاية وليست وسيلة ، ويستمرون فى هذه الحرب حتى الفناء ، وربما عُدّوا

قديسين بسبب ذلك الموقف ، أما غوتاما فكان كما قلنا قد اتخذ الزهد وسيلة، ثم رأى أنها وسيلة غير مجدية ، فأعلن تمرده على هذه الطريقة ، وعاد إلى طعامه وشرابه وكسائه ، وقرر أن يتوقف عن قتل شهوات نفسه بالجوع ، وأعلن أن خير ما يوصله إلى غايته عقل يتغذى فى جسم سليم . وقد خيب فعله هذا أملَ أتباعه فيه ، ففارقوه آسفين على ما آل إليه أمره .

الاشراقة والكشف عن الأسرار:

على أن غوتاما - وإن كان قد عدل عن إماتة نفسه وتعذيبها - فإنه لم يعدل عن تفكيره ، ومن الواضح أن الإنسان يستطيع فجأة أن يغير أحواله المادية من صوم إلى طعام ، ومن تقشف إلى بذخ ، ولكنه لا يستطيع بسهولة أن يتخلى عن تفكيره وفلسفته، وبينما كان يمشى وحيداً موحشاً مال إلى شجرة فى غابة أورويلا (Uruyala) ليتفيأ ظلالها ريثما يتناول طعامه ، ولكن المقام طاب له فى ظل هذه الشجرة ، ويقال إنه أحس برغبة فى البقاء تحتها بعض الوقت ، فاستجاب لهذه الرغبة وبقى تحت الشجرة ، وفى هذا المكان حدث ما تمناه غوتاما ويقول غوتاما واصفاً هذه المرحلة :

« سمعت صوتاً من داخلى يقول بكل جلاء وقوة : نعم فى الكون حق ، أيها الناسك ، هنالك حق لا ريب فيه ، جاهد نفسك اليوم حتى تناله » .

« فجلست تحت تلك الشجرة فى تلك الليلة من شهر الأزهار ، وقلت لعقلى وجسدى : اسمعا ، لا تبرحا هذا المكان حتى أجد ذلك الحق ، لينشف الجلد ، ولتتقطع العروق ، ولتنفصل العظام ، وليقف الدم عن الجريان ، لن أقوم من مكانى حتى أعرف الحق الذى أنشده، فينجينى » .

وتم له فى هذه الجلسة الإشراقة التى كان يترقبها [1] ، ويراها بعض

Edward Thomas : The Life of Buddha p. 80 . (١)

الباحثين الغربيين وحياً [1] ، ويصورها بوذا بأنها صوت حَادَثَةُ وسنَروى هذا الحديث عند الكلام عن النرفانا [2] .

وهنا ننقل عبارة مولانا محمد عبد السلام الرامبورى [3] وهى : « وكان مستغرقاً فى تأمله خائضاً فى تفكره إذ أخذته نزعة سماوية ، فغاب عن نفسه وعن كل ما حوله ، وطفق يطرأ عليه حال بعد حال ، ويلحقه طور وراء طور ، ثم عاد شعوره يتجلى رويداً رويداً ، فأشرق الكون لديه وأصبح العقل يتجرد عن شوائب المادية ، فانشرح صدره ، ورأى العالم فى تكوناته وتقلباته ومباديه ومناحيه ، وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت ، فذاق سروراً ما خطر بباله من قبل ، ووجد قوة ما استشعر بها قط ، فأبصر ينابع الحياة وأحاط بمنابع الآلام واستوعب منابت البؤس ، واكتشف مقاليد السرور ، ورأى سبيلاً يهدى إلى تلاشى الأحزان وزهوق الآلام ، فأدرك متمناه ونال مبتغاة ، وتخلص من تقلبات الحياة ، ونجا من حزازات الآلام ، وتيقظ شعوره ، وتنورت بصيرته واستوى على عرش البوذية وصار بوذا (Buddha) أى العارف المستيقظ ، والعالم المتنور » .

ومن الآن سنطلق على بطل هذه الديانة (بوذا) وهو الاسم أو اللقب الذى حصل عليه عندما انكشف عنه الغطاء ، ويحسن بنا هنا أن ننتقل العبارة التى سجل بها بوذا هذه اللحظة التى يعتبرها هو ويعتبرها أتباعه لحظة إشراق وفوز . يقول بوذا : «لما أدركت هذا تحررت من الهوى ، تحررت من شرور الكون الأرضى ، تحررت من شرور الخطأ ، تحررت من شرور الجهل، وتيقظ فى المتحرر شعورُ التحرر وشعورُ عدم تكرر المولد ، قد انتهى الصراط المقدس ، قد تمت الفريضة ، فلن أرجع إلى هذه الدنيا رجعة أخرى قد أبصرت هذا » [4] .

---

(1) René Sedillot : The History of the World p. 62 .

(2) فى هذا الكتاب ص ١٦٢ وما بعدها .

(3) فلسفة الهند القديمة ص ٨٩ ، ٩٠ .

(4) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة .

تُرَى ما هذه الإشراقة التى حصل عليها بوذا؟ وما هذا السر الذى كُشفَ له ؟ وما هذه الأنوار التى أحاطت بنفسه؟ وما تلك الوسائل التى استطاعَ بها أن يحل مشكلات الحياة؟ ويوقف المرض والشيخوخة والموت ؟!!

على كل حال لنسر الآن شوطاً آخر قبل أن نتحدث عن الإشراقة أو ما يسميه البوذيون «النرفانا» وهى السر أو الحل لكل هذه الآلام .

ونحب هنا أن نوضح بعض الأسماء والمظاهر الجديدة التى حدثت مع حدوث البوذية ، ومن أهمها إطلاق لقب «بوذا» أى العارف المستنير على غوتاما كما ذكرنا آنفاً ، واللفظ فى الأصل وصف ، ولكن غلب إطلاقه على غوتاما ، فأصبح علماً عليه ، وجاز بذلك استعماله من غير «أل» التعريفة ، وبوذا هو الاسم الذى سنستعمله منذ الآن فى الحديث عن سذهاتا الأمير أو غوتاما الراهب :

أما الشجرة التى كان بوذا يجلس تحتها عندما تمَّ له الكشف ، فقد سميت شجرة العلم ، أو الشجرة المقدسة ، وقد احتلت عند البوذيين مكانة سامية ، مثل مكانة الصليب عند المسيحيين ، وإذا كان المسيحيون قد نشروا الصليب فى حياتهم ورسموه على حليهم وأجسامهم ، فإن البوذيين يرون فى الشجرة المقدسة شيئاً يجب أن يسعى له الناس لا أن يسعى هو للناس ، ولهذا زرعوا فى كل قطر شجرة واحدة من نوع الشجرة المقدسة يحج الناس إليها ، فى مناسبات مختلفة ، وفى معبد بروبودور بالقرب من جو كجاكرتا بأندونيسيا توجد الشجرة الوحيدة فى جاوة من هذا النوع ، والبوذيون يسعون إليها للتبرك والزيارة ، وتحميها إدارة المعبد بسور حولها خوف أن يلتقط البوذيون أوراقها أو أغصانها للتبرك ، أو يعبثوا بجذعها فى تقربهم لها واحتكاكهم بها ويعلق Wells على عناية البوذيين بهذه الشجرة بقوله :

« ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التى أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها[1].

أما غابة أوررويلا فقد فقدت منذ ذلك التاريخ هذا الاسم واتخذت اسماً جديداً يتناسب مع هذا الحدث الجلل الذى حدث بها وهذا الاسم هو بوذاكيا (Buddhagia) .



تمثال بوذا كما يبدو فى اكثر المعابد البوذية

(١) معالم تاريخ الإنسانية : المجلد الثانى ص ٤٧٢ .

الدعــوة للبوذيـة وإعـداد دعاتهـا :

بعـد أن كُـشفَ عن بوذا الحـجـاب وأدرك مُنيـتـه وقف متـردداً بعض الوقت، وسـاءلَ نفـسـه : أيقنع وحـده بهـذا النعـيم الذى انغـمس فـيـه ، ويستمتع وحده بهذا السر الذى انكشف له؟ أم يبشر به ويذيع أمره بين الناس حتى ينعموا معه بتلك السعادة وذلك السرور؟ وفكر بوذا فى قصور البشر عن إدراك هذه الحقائق السامية ، وخشى أن يكذبه الناس ويرموه بالافتراء أو الجنون ، فأوشك أن يكتفى بهذا السر لنفسه ، غير أن جانب الخير - كما يقـول - غلب عليه ، والميل إلى الإيثار رجح فى نفسه ، ورأى أن عليه أن يدعـو الناس ، وليس عليـه أن يفكر فى النتـيـجـة ، إنه يريد الخيـر لهم والهداية ، فإن لم يستجيبوا فقد أدى واجبه وأرضى ضميره [1] . ويَـعُـد البـوذيون هذا الاتجاه من بوذا مطلع خير لهم وللبشرية جمعاء ، ثم يصلون ويكبِّرون ويعلنون سرورهم واغتبـاطهـم كلما وصـلوا فى قصـة بوذا إلى هــذه النقطة [2] .

وعندما استقر رأى بوذا على أن ينشر دعوته ترك غابة بوذاكيا إلى مدينة بنارس حيث كان يعيش رفاقه الخمسة الذين زاملوه فى فترة جهاده وتقشفه ، فلمـا دعـاهم لمذهبه لم يبدوا أية مقـاومة ، فقد كـان ماضيهم معه يدعوهم لقبـول دعوته ، ثم خطا بوذا خطوة أخرى فجمع حوله مجموعة من الشبان بلغ تعدادهم مئتين ، وعلمهم مبادئه ولقنهم دعوته ، ووكل إليهم القيام بنشرها ريثما يكمل رحلته ليرى أسرته ، وقد حاولت أسرته أن تكفه عن هذه الدعـوة التى تصـوروها خيـالات تبدَّت إليـه ، ولكنه لم يكف ، ولم يغيره بريق المال وضروب الإخاء والسعادة . وعاد إلى أتباعه ، حيث بدأت

(١) هذه الانفعالات والتردد سجلتها مراجع البوذية بدقة (انظرها فى The Life of Buddha ص ٨١ - ٨٣) .

(٢) G. F. Allen : Budda's Philosophy p. 30 - 31 .

مظاهر النجاح تبدو له ، فالتف حوله عدد كبير من الرجال والنساء والشيب والشبان ، وكانوا جميعاً يتخذون من بوذا مثالاً لهم ، وكان هو يحيطهم بعنايته ، ويشملهم جميعاً بحدبه ورعايته .

واشتهرت دعوته بتسميتها «النظام» أو «عجلة الشريعة» وقد ظل بوذا يدفع عجلة الشريعة إلى الأمام أكثر من أربعين عاماً حتى وصلت سنه الثمانين ، واختار حياة المبشر المتسول مع كل ما تشتمل عليه من صعوبات وحرمان ، وسخرية ومقاومة ، ولم يكن بوذا وحده هو الذى يدعو «للنظام» وإنما اختار - كما سبق القول - نخبة من أتباعه ليقوموا بالدعوة لها في مختلف النواحى ، وتدلنا المراجع الرئيسية على أن بوذا كان يختبر الذين سيقومون بالدعوة اختباراً دقيقاً قبل أن يرسلهم لهذا الغرض ، ونسوق هنا مثالاً من هذا الاختبار :

كان أحد المريدين واسمه «بورنا» يريد أن يذهب إلى قبيلة «سرونا بارانتا» لدعوتهم ، وكان بوذا يَعْلَم أن هذه القبيلة معروفة بالشراسةوالخشونة ، ولا ينجح معها إلا الثابت الضليع ، فأراد أن يعرف مدى استعداد مريده لتحمل ما قد يُلمّ به من عناء ، فقال له : إن رجال هذه القبيلة قساة سريعو الغضب ، فإذاً وجهوا إليك ألفاظاً بذئية خشنة ، ثم غضبوا عليك وسبوك فماذا كنت فاعلاً ؟

فأجاب بورنا أقول : لاشك أن هؤلاء قوم طيبون ، لينو العريكة لأنهم لم يضربونى بأيديهم ، ولم يرجمونى بالحجارة .

- فإن ضربوك بأيديهم ورجموك بالأحجار ، فماذا كنت قائلاً ؟
- أقول : إنهم طيبون لينون إذ لم يضربونى بالعصى ولا بالسيوف .
- فإن ضربوك بالعصى والسيوف ؟
- أقول : إنهم طيبون لينون إذ لم يحرمونى الحياة نهائياً .

ـ فإن حرموك الحياة ؟

ـ أقول إنهم طيبون لينون إذ خلّصوا روحى من سجن هذا الجسد السيء بلا كبير ألم .

فقال له بوذا : أحسنت يا «بورنا» إنك تستطيع بما أوتيته من الصبر والثبات أن تسكن فى بلاد قبيلة سرونا بارانتا ، فاذهب إليهم ، وكما تخلصت فخلّصهم ، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك ، وكما تعزيت فعزهم ، وكما وصلت إلى مقام النيرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك .

فذهب بورنا إليهم وكانت النتيجة أن آمنوا كلهم بالبوذية واتبعوها [1] .

ومثل هذا ما ترويه الأساطير والقصص عن دعوة قطاع الطريق لدخول «النظام» فهؤلاء الذين فروا من الحكومات والسلاطين ولجأوا للغابات قد وصلتهم الدعوة ، وأنذرتهم ، بأنهم إن فروا من جنود الحكومة ، فلن يستطيعوا الفرار من الهرم والموت والذنوب . وطالما استجاب هؤلاء للدعوة ، وسجدوا لها ، واتبعوها ، ليتحرروا من قيد الخوف ، وليعيشوا فى صفاء ، ولم تصل لهم هذه الدعوة إلا بعد إعداد المريدين إعداداً عجيباً جعلهم يسخرون من كل المتاعب ، ويُقدِمون على نشر الدعوة ببطولة نادرة وشجاعة عديمة المثال [2] .

وكان بوذا يودع مريديه الذين يتخذون طريقهم إلى الدعاية والإرشاد بقوله : اذهبوا وانشروا «النظام» فى البلاد رحمة بسائر الخلق ، وإيثاراً لمصلحة الكثيرين على راحتكم ، ولا يذهبنّ اثنان منكم فى طريق واحد ،

(١) فريد وجدى : دائرة المعارف جـ ٢ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢) انظر بحثنا عن «كيف كان بوذا يصطاد الرجال ويرشدهم» ثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٦١ ص ٥٦ ، ٥٧ .

بل يسلك كل واحد سبيلاً غير سبيل أخيه ، بشّروا بهذه الدعوة النبيلة فى مبدئها ، النبيلة فى وسطها ، النبيلة فى غايتها .

وبهذا الإصرار من بوذا ومريديه استطاعت الدعوةأن تنجح وتنتشر .

نجاح بوذا وانتشار البوذية :

شهد القرن الخامس قبل الميلاد نهاية اثنين من عظماء القادة والمفكرين ، كان بوذا أولهما ، وكان سقراط ثانيهما ، وكل منهما هاجم المعتقدات والطقوس وسخر من الأفكار التى كان الناس يتبعونها فى عهده، ولم يكن بوذا بأقل من سقَراط معارضة وسخرية ، فقد قال بإلغاء الطبقات ، ولم يعترف بالآلهة الويدية ، ولكنا مع هذا نجد أن سقراط يصادف كثيراً من العناء والتعذيب ، بل الحكم بالإعدام وتنفيذ هذا الحكم، ولكن بوذا عاش هادئاً ، ومات هادئاً ، ورأى بنفسه نجاحه وذيوع دعوته ، فما السر فى هذا النجاح الذى صادفه بوذا دون كبير عناء ؟

الإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة سبقت الإشارة إليها عند مطلع الكلام عن البوذية ، وهى أن اضطراب الناس وحيرتهم فى الهند كانا داعيين لقبول أى مذهب يَردُ أو فكرة تخطر بالبال ، ثم إن الغريزة الهندية أكثر احتمالاً للأفكار الدينيَة من الغريزة اليونانية .

على أن نجاح بوذا اشتركت فيه بالإضافة إلى الطبيعة الهندية عوامل أخرى من أهمها قوله بإلغاء الطبقات ، فقد كان ذلك داعياً إلى أن يتبعه كثيرون ممن انحطت طبقاتهم أو ممن كانوا يحسون بثورة ضد هذه الطبقات المتعددة المتفاوتة السيادة فى الهند ، وسنتحدث فيما بعد عن موقف بوذا من الطبقات ونتائج هذا الموقف .

ثم كان لصفات بوذا الشخصية أثر كبير فيما صادفه من نجاح ، ومن أبرز صفاته عداؤه للتعصب الدينى . واعتبار التعصب أعدى أعداء الدين . وقد

رأى مرة أحد تلاميذه غارقاً فى نقاش حادٍّ مع برهمى كان يرمى بوذا بالإلحاد وقلة الورع ، وكان يطعن نظام التسول الذى أسسه بوذا ، ولما رأى بوذا حماسة تلميذه وحدَّته أنكر عليه ذلك وقال : أيها الإخوان ، إن كان هناك من يقدح فى ذاتى أو فى دينى أو فى «النظام» فليس لكم أن تغضبوا أو تحزنوا أو تحقدوا ، لأنكم بهذا تعرضون أنفسكم لخطر الخسارة الروحية أولاً . ثم لا تتمكنون فى ثورة الغضب من تمحيص أقوال القادح ثانياً .

وكما كان عدواً للتعصب الدينى كان عدواً للغضب والطيش ، فلم يعرف عنه أنه سب ، أو سخط ، أو نطق لسانه بكلمة جارحة أو قاسية ، وكان يرى الدنيا جاهلة غافلة ، لا شريرة خبيثة .

كل هذا جمع الأصدقاء حول بوذا ، وسبَّب لدعوته النجاح الذى حظيت به دون كثير من العناء والجهد (١) .

وفـــاة بــــوذا :

بلغت عناية الأدب الهندى الحديث ببوذا والبوذية درجة كبيرة ، وبين يدىَّ مقال رائع أشبه بقصيدة رقيقة ، يصور نهاية بوذا ، ومن هذا المقال نقتطف بعض فقرات (٢) .

عاشت ياسودهرا زوجة غوتاما منذ خرج زوجها ، فى كوخ مثل كوخه على مدخل مدينة (راج غاها) ولما احتشدت الجمعية فى ظل التل الصغير هناك قبيل انهيار الأمطار ، وكان السيد يحرك عجلة الإرشاد أمام الجمع ، جلست ياسودهرا وحدها مختفية بين ذلك الحشد العظيم ، تسمع كلام المبارك ، وكان راهولا ابنها الوحيد يكلمها مرة واحدة كل سنة ، أما السيد فكانت لا تراه .

---

(١) Edward Thomas : The Life of Buddha pp. 97 - 99 .

(٢) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) ص ١٢٤ وما بعدها .

وعندما توجه السيد إلى التل ، وليس معه إلا آنندا ابن عمه ومريده الأول ، أسرَّ إليه السيد قائلاً : يا آنندا ، لقد حانت الساعة التى تجتاز فيها يا سودهرا العين (أى أنها على وشك أن تُنقَل لعالم الروح حيث تصبح غير مرئية بالعين ، وذلك كناية عن الموت) فانتهز آنندا هذه الفرصة وأجاب وهو يرتعد : ألا يرى السيد أن يتكلم معها ؟

فأبدى السيد موافقته دون أن يفوه بكلمة .

وفى الكوخ وجدا عجوزاً شمطاء حليقة الرأس ذابلة ، عيناها كالسراج الذى نضب زيته ، خائرة القوى ، ترتعد ، وهتفت لزوجها قائلة : قد أطاعت الأمة سيدها ، ودخلت النظام منذ أذن لها ، والحمل الثقيل الذى حملتهُ أضعه الآن على الأرض ، إنه لم يبق فى نفسى بذر للحياة .

وسقطت فاقدة الحياة .

قال آنندا : إنها وصفت حملها بأنه ثقيل ، هل كان لها أن تتكلم بمثل هذا إن كانت قد نالت النجاة ؟

وأجابه كانا أحد المريدين : إنها ماتت حيث تولد من جديد .

واستأنف بوذا سيره ومعه تلاميذه ومريدوه ، وظهر التعب والإعياء على السيد ، فخاطب تلاميذه قائلاً :

« كل شىء يؤول إلى الانحلال ، وأنا كذلك أيها التلاميذ قد شخت وأوشك أن أموت ، جدّوا لتحرير أرواحكم بكل ما أوتيتم من الحوْل ، وفى خلال الشهور القادمةَ سأموت ، إن أجلى قد حان ، وإن حياتى يجب أن تنتهى ، وآن لروحى أن تُلقىَ حملها ، أيها الرهبان ، عليكم بالتيقظ والتبصر ، لتكن أفكاركم سَليمة ، راقبوا قلوبكم ، وصونوا نفوسكم ، ولا تغفلوا ، لتكن إرادتكم طاهرة قوية ، واجتازوا بحر الحياة غير

آسفين ولا متحسرين[1] » .

وواصل السيد سيره بين القرى والآجام ، وكان آنندا قلقاً ، فقال له السيد : قل ما الذى يختلج فى صدرك؟

فأجاب آنندا بعد تردد : إن السيد يمشى فى بلاد غير عامرة ، ليس بها إلا الأكواخ ، وأرى أنه لا يستحسن أن يموت السيد فى مكان كهذا ، ليكن ذلك فى مدينة عظيمة حيث يراه الكثيرون ويؤمنون ويهتدون . . .

فأجاب السيد : فى مثل هذا المكان يا حبيبى آنندا شعرت بأعمق السكينة فى نفسى ، هذه الشجيرات هى التى تنشرح روحى بجوارها .

ودخل السيد الغابة وتعمق هو ومريدوه حتى وصلوا مكاناً ترتفع أمامه قمم همالايا الشاهقة المكلّلة بالثلج ، واختار السيد مكاناً بين دوحتين باسقتين ، واستلقى على جنبه فى إجهاد ظاهر وتعب واضح ، وأحس آنندا بأن السيد يقرب من النهاية ، فانتحى ناحية وأخذ يبكى ، فطلبه السيد ، فجاءه وجلس بجواره ، وقال له السيد : ألم أقل لك مرة بعد مرة إن الأشياء كلها لا ثبات لها ، ألم أبين لك أن الأشياء التى نهواها لقربها منا هى التى يجب أن نقطع علاقتنا بها ، لأن زوالها أو الحرمان منها يورثنا الألم والحزن .

وبات السيد تلك الليلة كلها يحرك عجلة العرفان أمام تلاميذه راقداً رقدة الأسد تحت الشجرتين ، وقد جاء كثير من الناس وتلقوا العلم عنه .

وعند فلق الصبح قال المبارك : « قد يقول بعض منكم قبل نهاية اليوم ، لقد ذهب السيد عنا ، وليس لنا معلم . كلا ، لا تقولن ذلك ، فإنى أترككم على المنهاج المعبَّد المستقيم المنور . اسمعوا ، معلمكم بعد ذهابى ، هو الشريعة والجمعية » .

---

(١) النص الكامل فى The Life of Buddha by Edward Thomas ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

ثم استوى جالساً يرنو إلى الجبال الشاهقة البيضاء . وقد سمعوه يتنفس الصعداء ، والطمأنينة بادية على وجهه ، وبعد قليل أخذ ينشد «أنشودة البيت المتضعضع» :

« من بيت وراء بيت سَجَنَنى ، ومن رسالة إلى رسالة أرسلنى ، ولادة بعد ولادة ، وأنا أدور فى دائرة متعبة ، باحثاً عن صانع هذه الخيمة . إن البيت قد ارتجفت أركانه . سقفه يرحب بمطر الموت فى داخله ، وجدرانه من الغبار تنتظر النهاية ، كانت الولادة بعد الولادة أليمة . الخجل والعذاب يتبعنى وأنا أتيه فى بيداء لا نهاية لها . . . الآن يقوم السجين متحرراً . . . يا صانع البيت . . . لقد رأتك العين . . . ها . . . . تهدَّم السقف ، وسقطت الجدران ، وانهارت الأركان . يا شاطر ، . . . . طال اختفاؤك . . . ها قد وجدتك ومسكتك مسكاً قوياً لا تنفلت من يدى أبداً . . . حان لى أن أتخلص من العذاب . . . . لقد خمدت هذه النار إلى الأبد ! » .

عاد بوذا بعد ذلك إلى رقدته الأسدية متعباً . وقد ثقل تنفسه . ومع ذلك تكلم :

« أيها النساك ، كل شىء زائل ، مارٌّ كمر السحاب . تذكروا هذه الحقيقة ، واسعوا لحريتكم بالتواضع والجد ، ناظرين إلى النهاية » .

سكت السيد وأغمض عينيه ودخل فى التفكير العميق! لا يحرك ساكناً ولا يبدو عليه أنه يشعر بما حوله .

« لقد مات السيد ! » قال آنندا أخيراً .

زجره بعض الإخوان قائلاً : « كلا ! إنه لم يمت بل طرأت عليه حالة التفكر الذى لا يبقى معها حس » .

ولكنهم علموا بعد أن راقبوه مدة أن كل شيء قد انتهى ، فما كان من بعض الإخوان الذين ما زالوا فريسة للأوهام ، أن ألقوا أنفسهم على الأرض، يتمرغون في الغبار ويتحبون .

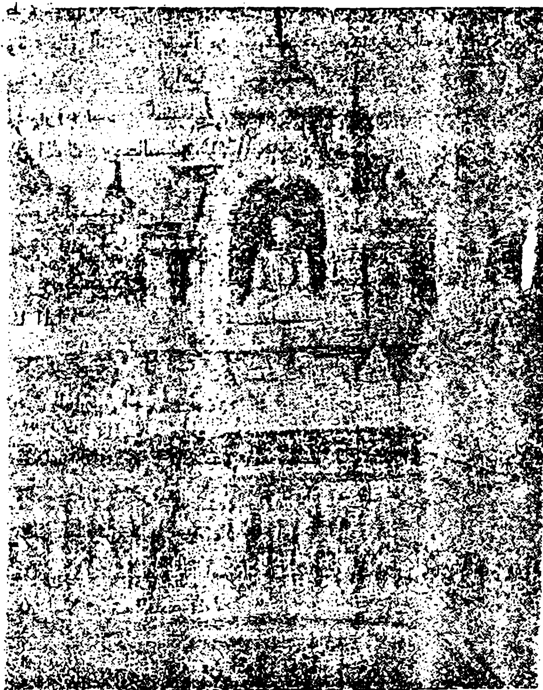
إلا أن آنندا وأصحابه الذين تحرروا من الأوهام قالوا لهم :

« كل شيء زائل ، أيها النساك والعقل الذى تحرر من الهوى يعرف ذلك، ويعرف أيضاً أنه كان لزاماً أن يفارقنا المبارك ، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك » .

سمع الرهبان المتحبون هذا الكلام ، فرجعوا عن سلوكهم المخجل، وأعْلِنَ في البلاد أن السيد قد مات .

وعلى شاطئ النهر ، وعلى الأرض الرملية الفسيحة أحرقوا الجثة ، وأخذ كل واحد منهم يطوف حولها ثلاث مرات ، جامعاً كفيه إزاء صدره ، ثم يقف عند قدم المبارك وينحني احتراماً وإجلالاً ، وقد اجتمع أهالى «كوسى نارا» القرويون ، فاحتفلوا بموت السيد كما يُحتَفَل بموت الملوك ، لأنهم تذكروا أنه كان ابن الملك!

ثم جُمِعَ رماد السيد ، وقسموه إلى ثمانية أجزاء ، وأرسلوا كل جزء منها إلى الجهة التى رأوها لائقة به ، فبنيت فوق الرماد بنايات عظيمة في الجهات الثمانية .



معبد بروبردور بالقرب من جوكجاكرتا بجاوة (أندونيسيا)
حيث ترقد حفنة من رماد بوذا

أخلاق بوذا :

يصور علماء الهند صورة رائعة لبوذا فيقررون أنه كان شديد الضبط ، قوى الروح ، ماضى العزيمة ، واسع الصدر ، عزوفاً عن الشهوة ، بالغ التأثير ، بريئاً من الحقد ، بعيداً عن العدوان ، جامداً لا ينبعث فيه حب ولا كراهية ، ولا تحركه العواطف ولا تهيجه النوازل بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، مؤثراً بالعاطفة والمنطق ، له منزلة كبيرة فى أعين الملوك ، ومجالسه ملتقى العلماء والعظماء .

ومن القصص التى تروى لتدل على تواضعه أن أحد تلاميذه قال له مرة : إننى أيها السيد أومن بكل قلبى أنه لم يوجد قط ، ولا يوجد الآن ، ولن يوجد إلى آخر الدهر مرشد أعظم قدراً وأكثر عقلاً من مرشدنا المبارك .

فأجاب بوذا : هل أنت قد عرفت كل العارفين الذين سبقونى ! وهل عرفت كل العارفين الذين يأتون بعدى ؟

فأجاب التلميذ : لا يا سيدى فلم يتيسر لى ذلك ؟

قال بوذا : هل عرفتنى كل المعرفة ؟ وتوغلت فى نفسى كل التوغل ؟

فقال التلميذ : لا يا سيدى وكيف لى ذلك ؟

فقال بوذا : فَلِمَ إذاً أسرفت فى قولك وجعلتنى خير الناس وأنت لا تعرفنى ولا تعرف الناس ؟

من أقوال بوذا

أوردنا فيما سبق بعض أقوال بوذا فى مناسبات مختلفة ، ونورد فيما يلى مزيداً من أقواله التى تشرح لنا فلسفته واتجاهاته :

(أ) ناموس الطبيعة ودورنا معه :

إن ناموس الطبيعة هو الذى يسير على كل شىء ، وهو يقضى ألا يدوم العذاب والجحيم إلى ما لا نهاية ، كما لا تدوم الجنة ولا النعيم ، ومهما طال عهدهما فإنهما زائلان أخيراً . متى وكيف يتم ذلك؟ هذا يتوقف علينا نحن ، كل محرك سافل يجب أن نقهره ، كل إرادة مهينة نضبطها ، كل ضعف معيب نتغلب عليه ، ولكن ليس معنى هذا أن نغمض عيوننا عما يعانيه البشر من الفقر والشقاء زاعمين أنهم استحقوه بما جنته نفوسهم ، إذ كل من يفكر هكذا ولا يتمسك بالأخوة العامة والمحبة الشاملة مع سائر الخلق ، فلاشك أن ناموس الطبيعة يعاقبه أشد العقاب ، لأنه خارج عليه بعدم بذله الجهد الذى يسبب العفو والمرحمة ، هذا وإن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لذات قدسى ، يتصرف فيه كيفما يشاء ، بل ذلك الناموس مستقل بذاته ، نافذ بنفسه ، لا يتأثر بمؤثر بشرى أو إلهى أبداً .

(ب) فى التناسخ :

الإنسان مركب جسدى ، يملك قوى يتحرك بها ، وآلات يشعر بها فهو يحس ، ويلمس ، ويبصر ، ويسمع ؛ ويشم ، ويدرك ، وهو بهذه الحواس والمشاعر يتصل بالعالم الخارجى ، أما طبعه فيشتمل على النزعات والكفاءات المتَنجَة من الماضى فهى - حسنة كانت أو قبيحة - إرث له من الحياة التى عاشها فى الماضى ، وهى التى تكيف شخصيته التى تبدأ بها حياته جديدة ، وذلك أن الحياة الداخلية للشخص ليست إلا سلسلة من الخيالات والرغبات والعواطف ، فإذا انفصلت الأواصر المادية بالموت تقمصت قوى المادة الأولية جسداً جديداً ، ولا تزال هذه القوى متواصلة إن لم يكن مادياً فنفسياً ، فيسعد الشخص الجديد أو يشقى حسبما تهيأ له من السلوك السابق ، والعناصر التى تشكل شخصاً جديداً لا تزال فى تبدل مستمر ، ولكنها لا تتلاشى كلية ، حتى تفنى تلك القوة التى تتمسك بها وتدفعها إلى الميلاد الجديد . وليست تلك القوة إلا الرغبة فى الوجود المنفرد .

(جـ) نـار الشهوة وكيـف تطـفأ :

« إن الحياة كلها من الولادة إلى الموت لهيب وحريق ، إنها نار الشهوة ونار البـغض والعـداء والهـوى . ومن هم أولئك الخـدم الذين يشـعلون هذه النيـران؟ العواطف الستة والحواس الستة : إن العين ترى الأشياء الجميلة مـزخرفة اللون ، والأذن تسمع الأصوات الحلوة ، والأنف يشم الـروائح الطيبـــة ، واليد تشعر بنعومة الريش أو الحرير ، والفم أو الحلق يقول إن ثمر المانجو هـذا لذيذ حقاً ، والقلب يتأثر بالأشياء المرغوبة ـ هؤلاء هم العبيد الســتة الذين يسعون لتنفيذ أوامر سيدهم ، فيجمعون الحطب ، فتزداد النيران اشتعالاً .

« ولكنَّ هناك طريقاً لإخماد هذه النار . اتبعوا الصراط السوى النير . إن هذا الصراط مستقيم لا عوج فيه . أما بابه ، فهو تطهير الذهن ، ونهايته السلام والحنان لكل الخلق من الأحيـاء . إن الذى يسلك هـذا الصراط ، لا يقول : إننى أنا ، وذلك الإنسان غيرى ، ولذلك ففي نفعه خسارتى كلا ! بل هو يقول «يجب علىّ أنا الذى فزت بالبصيرة ، أن أشعر بالحب والحنان لكل الخلق الذين قُيِّدُوا بهـذه الأغلال ، أغلال العلة وتعدد الحياة ، ولقد كسرت أنا هذه الأغلال بنفسى بقلع الشهوة من قلبى ، فيجب علىَّ الآن أن أسعى للكل وأجعلهم أحراراً » .

النـــرفـــانـــا

تكلمنا من قبل عن الانطلاق فى الهندوسية وعن النجاة فى الجينية ، أما فى البـوذية فتتكلـم عن «النرفانا» ، والكارما والتناسخ أساس لأديان الهند كمـا سبق القـول [1] ، والطريق واحد تقريباً فى هذه الأديان للتخلص من

(١) عن مـزيد من الدراسـة حـول الكارمـا والتناسخ انظر : G. F. Allen: Ghe Buddlba's Philosonhy p. 36 - 37

تكرار المولد ، وهذا التخلص هو أسمى ما يتطلع له الهنود ، وذلك الطريق يتمثل بوجه خاص فى قتل الشهوات والرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر ، وإذا استطاع الإنسان أن يجتاز هذا الطريق ، وصل إلى الانطلاق أو النرفانا التى لا تختلف مدلولاتها اختلافاً ذا بال ، فالمدلول فى الجميع هو التخلص من تكرار المولد ، والحصول على اللذة الصادقة والسعادة الدائمة ، ولنعد إلى النرفانا بالشرح والإيضاح .

تحدثنا من قبل عن «الإشراقة والكشف عن الأسرار» (1) وذكرنا أن غوتاما وهو تحت الشجرة المقدسة ، تمت له الإشراقة ، وانجلت له عقدة الكون ، وبوذا نفسه يصف هذه الإشراقة فيقول : كلمنى صوت من داخلى قائلاً : إن الهوى هو أصل الحزن . والنفس هى التى تجلب الشقاء ، وذلك أن المرء يقول دائماً : أنا أنا ، ويقول أيضاً : زوجتى وأولادى ، فهم أيضاً نوع من أنا ، أما من سواهم فليسوا أنا (2) ، فيهوى ما يرى فيه شهوة نفسه ، وإذا خاب ، شَقِىَ ، وبهذه الفكرة يذهب الناس فى الدنيا كالحريق العظيم المدمر ، فيؤذُونَ وَيَقتُلون ، ويكونون لعنة على الخلق .

قال بوذا للصوت : إن قبلت قولك فهل أنال الحرية ؟
فأجاب الصوت : نعم نعم ، أنه يجلب لك الحرية أيها الناسك (3) .

فهل هذه هى النرفانا؟ هل هى القضاء على الأنانية ؟ والتحرر من الهوى وسلطان النفس ؟

نعم ، هذا هو اتجاه بعض الباحثين ، وعبارتهم فى ذلك هى : إن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس ، وإن الإنسان يستطيع أن

---

(1) ص ١٤٦ .
(2) Allen : The Budda's dPhilosophy p. 42 .
(3) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) ص ١٣٣ .

يكون سيد رغباته لا عبداً لها ، وإن في مقدوره الإفلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين[1] .

واتخذ تلاميذ بوذا هذا الاتجاه أحياناً نظرية لهم توصل للنجاة أو النرفانا، وتقي من تكرار المولد ، وقد حدث أن سأله تلاميذه مرة عن مريد له مات حديثاً : هل نجا من تكرار المولد ؟ فأجاب بالإيجاب ، ولكن أحد البراهمة سمع ذلك فاعترض على هذا الغموض ، فعاد بوذا يعلم تلاميذه ألا يعنوا بالنظريات والعقائد، وألا يتكلموا عما بعد الموت ، وأن يوجهوا عنايتهم للعمل ، وكلماته في ذلك هي : أيها التلاميذ ، لا تسألوا أسئلة كهذه ، فإنها عارية من كل نفع ، ولا يقدر أحد على جوابها ، هل تكلم يوماً الذي مات؟ إن السؤال عن الغيب وتجدد الحياة لا يجدي نفعاً . ولكنه يعذب العقل وينهك القوى ، عليكم بالسبيل النير الشريف . فإنه يوصلكم إلى السلام في هذه الحياة . واتركوا ما بعد هذه الحياة إلى اليد التي تولته من أول الكون[2] .

وعلى هذا عادت النرفانا إلى الغموض ، ويزيد هذا الغموض عند قراءة ما نسب إلى بوذا عنها وهو قوله لمريديه : أيها المريدون ، هي طور لا أرض فيه ولا ماء ، لا نور فيه ولا هواء . لا فيه مكان غير متناة ، ولا عقل غير متناة ، ليس فيه خلاء مطلق ، ولا ارتفاع الإدراك واللا إدراك معا ، ليس هو هذا العالم ، وذاك العالم ، لا فيه شمس ولا قمر ، أيها المريدون ، هي طور لا أقول عنه بإتيان ولا بذهاب ولا بوقوف ، لا يموت ولا يولد ، هي من غير أساس ؛ من غير مرور ، من غير انقطاع ، ذلك نهاية الحزن[3] .

---

(١) حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى (مخلص عن الإنجليزية) ص ٥ .
(٢) ثقافة الهند : (مارس سنة ١٩٥٠) ص ١٢٩ .
(٣) نقلاً عن محمد عبد السلام الرامبوري : فلسفة الهند القيمة ص ١٣٤ .

ويقـول العلامة رادها كرشنن إن بوذا رفض أن يشرح النرفـانا ، وعلى هذا لا يجـدى نفعـاً أن نحاول فـهـمـهـا ، بل ربما كـانت اللغـات البشـرية لا تستطيع شرح النرفانا[1] .

ولكن لا تزال لدينا معلومات تقودنا إلى أسلم طريق لإيضاح النرفانا ، ويبدو مما لدينا من مراجع أن النرفـانا مـرت بمراحل تاريخـيـة ، فـقـد كـان مفهومها عند بوذا أول الأمر أنها الاندماج فى الله والفناء فيه ، ولكن أفكار بوذا تغيرت بالنسبة للتفكير في الله ، فقد تخلى عن القول بأن هناك إلهاً ، بل أنكر وجود الإله كـمـا سيأتى ، وبناء على هذا الإنكار لـم تعـد النرفـانا الاندماج فى الله ، بل اتخذت لها معنى جديداً أو قل أحد معنيين متلاحقين هما :

١ـ وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحانى بتطهير نفسه ، والقـضـاء على جـمـيع رغبـاته المادية ، أو بعبـارة أخرى فناء الأغـراض الشخصية الباطلة التى تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة مروّعة ، ويصبح المقياس هو : كل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها .

٢ـ إنقاذ الإنسان نفسَهُ من ربقة الكارما ، ومن تكرار المولد ، بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر .

وبناء على المعنى الأول يصل الإنسان إلى النرفانا وهو حيٌّ . وبناء على المعنى الثانى ترتبط النرفانا بالموت وبالتخلص من هذه الحياة على ألا يعود لها[2] .

---

(١) بحث بثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥٢) ص ١٨ .

(٢) مراجع كثيرة أسهمت فى إيضاح هذا المعنى منها :

«أ» بوذا الأكبر للأستاذ حامد عبد القادر ص ٨٠ ، ٨١ .

«ب» . Kaunitz : A Popular History of Philosophy p. 40 and 41

«جـ» . Edward Thomas : The Life of Buddha pp. 150 - 190

«د» Edward Thomas : The History of Buddhist Thought pp. 119 - 121

«هـ» . H. G. Wells : The outline of History p. 474

يعتقد بوذا - ككل المذاهب الهندية - في مبدأ التناسخ ، وأهم ما تعمل له البوذية هو - كما سبق - التخلص من تكرار المولد والوصول إلى النرفانا ، والخطاب الأول الذى ألقاه بوذا على رفاقه في بنارس عقب أن تلقى الإشراقة يحوى أهم عناصر الفلسفة البوذية ، ونحن ننقل نصه فيما يلى من «لَليتاوشْتار» كتاب البوذيين المقدس :

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن الألم : المولد ألم ، الهرم ألم ، المرض ألم ، الموت ألم ، الاجتماع بغير المألوف ألم ، الافتراق عن المألوف ألم ، عدم ظفر الرجل بما يهوى ألم .

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن مصدر الألم ، الظمأ ، والشهوة ، والهوى ، والرغبة فى التلذذ ، وفى التكوُّن ، فى القوة ، ذلك الهوى ، وتلك الشهوة تجرُ من مولد إلى مولد ، ومن ألم إلى ألم . ويسوق بوذا سلسلة قضايا تؤدى إلى هذه الحقيقة وهى أن الهوى أصل الألم ، فهو يقول : إذا وُجدت الشهوة والهوى وُجد التحديد والتخصيص ، وإذا وجد التحديد والتخصيص وجد الجهل ، وإذا وجد الجهل وجد الخطأ ، وإذا وُجد الخطأ وجد الحزن ، فالحزن نتيجة للهوى والشهوات [١] .

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن إعدام الألم : إعدام الشهوة والهوى والظمأ والرغبة إعداماً باتاً .

أيها الرهبان ، هذه هى الحقيقة المقدسة عن سبيل إعدام الألم : سلوك الطريق المثمن (ذى الثماني شعب) : الاعتقاد الصحيح ، العزم الصحيح ، القول الصحيح ، العمل الصحيح ، العيش الصحيح ، الجهد الصحيح ، الفكر الصحيح ، التأمل الصحيح [٢] .

---

(١) Berry L Religions of the world p. 44 .

(٢) G. F. Allen : Buddha's Philosophy p. 38 .

ونستطيع من هذا الخطاب الذى يعد فاتحة تبشير بوذا أن نستخلص ما يسميه البوذيون : الحقائق الأربعة [١] وهى :

الحقيقة الأولى : الألم موجود فالولادة والمرض والموت ومتاعب الحياة من فراق أحبه أو لقاء أعداء كلها تأتى بالألم .

الحقيقة الثانية : لهذا الألم سبب : وعلة الألم هى الشهوات والرغبات لأنها التى تنمى فينا الرغبة فى اللذة والتملك والشوق إلى عالم مستقبل [٢].

الحقيقة الثالثة : هذا السبب قابل للزوال . ويبطل الحزن متى بطلت الشهوة وانتفى الظمأ إلى الأشياء .

الحقيقة الرابعة : الوسيلة لزواله موجودة : ولإبطال الألم طريق واحد هو اتباع الشعب الثمانى التى سبق ذكرها ، والتى يصوغها بعض الكتاب فى عبارة أخرى .

الأراء السليمة - الشعور الصائب - القول الحق - السلوك الحسن - الحياة الفضلى - السعى المشكور - الذكرى الصالحة - التأمل الصحيح [٣] .

---

(١) Buddhism Ed. Richard Card p. 94 .

(٢) يقتبس Wells شرحا لهذه الحقيقة من دراسة ما أسماه «إنجيل بوذا» فيقول إن الآلام ترجع إلى اللاتية الجشعة المتلهفة ، وإلى العذاب الناشىء عن الشهوة النهمة ، وإلى أن يستطيع المرء أن يكبح كل ما فى نفسه من نوازع الاشتهاء والتلهف الشخصى تظل حياته عناء واضطراباً ، ويصبح ختامه أسى وعذاباً ، وهناك ثلاثة أشكال أساسية يتخذها التلهف على الحياة وهى كلها شر : أولها الرغبة فى اشباع الحواس وهى الرغبة الشهوانية ، وثانيها الرغبة فى الخلود الشخصى ، وثالثها الرغبة فى النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا ، ولابد من التغلب عليها كلها ، أعنى أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه ، فإذا كف عن ذلك تيسر له الصفاء والسكينة فمحو كلمة «أنا» من أفكار الشخص الخاصة يدفع المرء إلى الحكمة والعليا والسعادة الخالدة وصفاء الروح والسكينة وهو ما يعرف عند بوذا بالنرفانا (انظر : معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثانى ص ٤٧٤) .

(٣) G. F. Allen : Budha's Philosophy p. 36 .

وهناك قيود عشرة تحول دون بلوغ الإنسانية درجة النجاة والسلام ، وتلك القيود هى :

١ـ الوهم الخادع فى وجود النفس .

٢ـ الشك فى بوذا وتعاليمه .

٣ـ الاعتقاد فى تأثير الطقوس والتقاليد الدينية .

٤ـ الشهوة .

٥ـ الكراهية .

٦ـ الغرور .

٧ـ الرغبة فى البقاء المادى .

٨ـ الكبرياء .

٩ـ الاعتداد بالبر الذاتى .

١٠ـ الجهل .

ومن الممكن تحطيم هذه القيود لمن يؤمن الحقائق الأربعة ويعمل فى ضوء هديها . وتتحطم هذه القيود شيئاً فشيئاً على درجات أربع :

١ـ فمجرد الإيمان بالحقائق الأربعة يحطم القيود الثلاثة الأولى ، لأن الإيمان بها هو اتباع لأفكار بوذا ، وذلك يستلزم عدم الشك فيه وعدم الاعتقاد فى الطقوس والتقاليد الدينية (الهندوكية وغيرها) واتباع بوذا فى فكرته عن التناسخ ، وأن الإنسان حلقة فى سلسلة متتابعة وليس له وجود مستقل .

٢ـ وعندما يؤمن الإنسان بالحقيقة الثانية وهى أن علة الألم هى الرغبات والشهوات تخف حدة الشهوة والكراهية والغرور فى نفسه .

٣ـ فإذا اتبع الحقيقة الثالثة وتأكد أنه لابد للقضاء على الألم من القضاء على الشهوة تحطمت قيود الشهوة والكراهية والغرور تحطيماً نهائياً .

٤ـ فإذا اتبع الحقيقة الرابعة واتبع الشعب الثماني وتخلّق بها تهدمت باقي القيود العشرة ، وبذلك يصل الإنسان إلى الهدف السامي الذي يطلبه وهو النرفانا أو النجاة .

وهكذا ترى البوذية أن الكون أزلي مستمر ليس له مبدأ ولا نهاية ، وترى أن المولد الفردي ، هو منشأ الآلام التي تملأ حياة الفرد ، وليس هذا المولد إلا نتيجة للشهوات والرغبات والعواطف والميول الفردية المتقدمة لفرد قد سبق هذا الفرد ، فتجددت حياة هذه النفس لتلاقي جزاء ما خضعت للشهوات والرغائب من قبل ، ثم تكون للنفس في دورها الجديد شهوات أخرى ورغائب، فتتجدد مرة أخرى لنفس السبب ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، فالشهوات والعواطف هي سبب هذا التسلسل الذي سيمتد إلى مالا نهاية، ولا تنتهي السلسلة المشئومة حتي تعم بذورها من الشهوات والرغبات والعواطف والميول ، فيتجدد الميلادُ فالهرمُ والموتُ وسائرُ أوجاع الحياة وحسراتها .

وما بُعِثَتْ البوذاوات في الكون إلا لإعدام بذور الآلام والحسرات ، قال بوذا : « لولا ثلاثة في الدنيا لما ظهر في الكون الكاملُ المقدسُ الأعلى بوذا ولا الشريعة ، ولا أشرق في الكون التعليم الذي يعرضه الكامل ، وما هذا التالوث إلا المولد والهرم والموت ، وما تبشير بوذا إلا الدعوة إلى النجاة من الآلام والحسرات باجتثاث شأفتها وقلع أصولها » .

وأهم شيء في التعليم البوذي هو الحقائق الأربع التي سبق ذكرها ، فمن آمن بها واتبعها كُتبت له النجاة والسعادة ومن لم يعلمها ولم يؤمن بها

ظل فى شقائه وآلامه يموت ويحيا ثم يهرم ويهلك فيولد من جديد ، ولا تنقطع هذه السلسلة حتى يعرف هذه الحقائق ويتبعها .

وقد كُشفَت الأسرار لبوذا فعرف هذه الحقائق وآمن بها واتبعها ولذلك يقول : « لقَد أحرزت علم الحقائق الأربع المقدسة ، وأحرزت فهمها بانجلاء تام فصرت على يقين بأنى قد ظفرت بالبوذية الكبرى ، وقد عرفت أنه قد ضمنت لى النجاة بروحي ، ومولدى هذا آخر مولد ، وليس لى بعد هذا من مولد مستأنف » .

وإتماماً للفلسفة البوذية نذكر الوصايا العشر التى تنسب إلى بوذا ، وهى :

١ـ يجب ألا تقضى على حياة .
٢ـ يجب ألا تأخذ ما يُعطى إليك .
٣ـ يجب ألا تقول ما هو غير صحيح .
٤ـ يجب ألا تستعمل شراباً مسكراً .
٥ـ يجب ألا تباشر علاقة جنسية محرمة .
٦ـ يجب ألا تأكل فى الليل طعاماً نضج فى غير أوانه .
٧ـ يجب ألا تكلل رأسك بالزهر وألا تستعمل العطور .
٨ـ يجب ألا تقتنى المقاعد والمساند الفخمة .
٩ـ يجب ألا تحضر حفلة رقص أو غناء .
١٠ـ يجب ألا تقتنى ذهباً أو فضة [1] .

---

(1) Berry : Religions of the world p. 46 .

يقول العلامة رادها كرشنن الذى كان نائب رئيس الجمهورية الهندية [1] سنة ١٩٥٢ : إن بوذا لا يقرر العقائد ولا يؤسس مذاهب فلسفية ولا يزعم أنه جاء إلى الأرض بحكمة خصوصية ملكها من الأزل ، بل يعلم بكل جلاء أنه كسب هذه الحكمة بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على الأرض دهورا وأحقابا بتعدد المواليد ، وهو يرشد أتباعه إلى نظام يضمن الرقى الأخلاقى ، ولا يدعوهم إلى دين كسائر الأديان ، إنه يُرى أتباعه سبيلاً ولا يقرر عقيدة ، لأنه يرى أن قبول عقيدة يصد عن البَحث وراء الحق ، فكثيراً ما ترفض الحقائق لأنها تخالف عقيدة تمسك بها الذين جاءت لهم هذه الحقائق .

فبوذا يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية التى لا يمكن بيانها بالألفاظ ، فدعوته حكاية عن تجربته وعن الطريق المؤدى إليها ، وهو يقول إن الحق لا يُعرف بالنظريات ، بل بالسير فى طريقه .

وعلى هذا لم يعن بوذا بالحديث عن الإله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو عن القضايا الدقيقة فى الكون ، إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على الإله ، ويرى أن الإنسان صانع مصيره . ومن كلماته فى ذلك : كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها ، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفا ، ولا تعتصموا بملاذ خارجى ، ولا تَحتَمُوا بغير أنفسكم [2] .

وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هذه الأبحاث ، ويوبخهم على سؤالهم عن قضايا دقيقة مجردة ، ويأمرهم بالخوض فى أعمالهم

---

(١) ثقافة الهند : (ديسمبر سنة ١٩٥٢) ص ٢ وما بعدها .

(٢) هداة الإنسانية فى الشرق ص ٦٣ .

ودواعيها وميولهم وعواطفهم وعواملها ، وقد سأله أحد مريديه مرة : هل الذات موجودة؟ فسكت ، فسأله : هل الذات ليست موجودة؟ فظل ساكتا. فسأله : هل هذا الكون دائم أم غير دائم؟ . . . وأخيراً قال بوذا لهذا المريد : هل قلت لك جئنى أعلمك عن الذات وعن الكون ؟ لا ، لم أقل هذا ، أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس ، بل فكروا هكذا : هذا ألم ، هذا مصدر الألم ، هذا إعدام الألم ، هذا سبيل إعدام الألم .

ولكن بوذا اتجه أحياناً إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الإثبات ، فقد وقف في إحدى خطبه يسخر ممن يقولون بوجود الإله ، وكان مما قاله في ذلك : إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله ، وهم لم يروه وجهاً لوجه ، كالعاشق الذى يذوب كمداً وهو لا يعرف من هى حبيبته ، أو كالذى يبنى السلم وهو لا يدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهرا فينادي الشاطئ الآخر ليقدم له [1] ، وسنعود لهذا التفكير بالنقد فيما بعد :

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحياناً اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد .

والإيمان بإله ، اتجاه نفسى قوى لا يقل عن قوة الغرائز فى البشر ، وإهمال هذا الاتجاه يُحْدث ارتباكاً واضطراباً ، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون فى الإله ، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه . ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً ، فقد لعبت بهم الأهواء ؛ فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس إنساناً محضاً ، بل إن روح الله قد حلّت به . وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السيد المسيح ، فيقولون إن شخصيته ثنائية : لاهوتية وناسوتية ، وإن الشخصية

(١) العلامة رادها كرشنن فى بحثه السابق ص ٦ .

اللاهوتية حلت بالناسوت . وتسربت هذه العقيدة أيضاً إلى «مدعى التشيع» فقالوا بها فيما يتعلق بعلى بن أبى طالب ، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور [١].

امتزاج البوذية بالهندوكية :

بقى موضوع خطير يتصل بالإله عند بوذا ، فاتجاهات البوذية الخلقية واللاعقائدية سببت سرعة انتشار البوذية فى الهند لسهولة هذه الاتجاهات ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس ، وعلى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية فى أخلاقها ويظلون مع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس ، ومن هنا بدأت البوذية تختلط فى مظاهرها بالهندوسية ، وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالإله يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها ، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة لها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى من الهند شيئاً فشيئاً . ويندمج أتباعها فى تقاليد الهندوسية وطقوسها وآلهتها ، ووضع البوذيون - الذين قالوا بأن بوذا كائن إلهى - تمثال بوذا بين آلهة الهندوس ، ولم يعارض الهندوس لأن العقل الهندى - كما قلنا من قبل - لا يضيره أن يُضَم إله جديد إلى ما يعترف به من آلهة ، وبمرور الزمن ذاب تمثال بوذا بين الآلهة الكثيرة وذاب أتباع البوذية بين الهندوس ، فلم يعد للبوذية شأن فى شبه القارة الهندية [٢] ، وبجوار تمثال بوذا انتعش آلهة آخرون فى البلدان الأخرى التى

---

(١) عن هذا الموضوع انظر :

«أ» حامد عبد القادر : بوذا الأكبر ص ٩٦ ، ١٢٠ ، ١٣٠ .

«ب» دكتور أحمد شلبى : المسيحية ص ١١٥ - ١١٧ .

«جـ» دكتور أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جـ٢ ص ١٢٨ وما بعدها من الطبعة العاشرة .

«د» Rylands : The Peoples and Religions of India pp. 318 - 319 .

(٢) عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند ص ٤٥ - ٥٥ بتصرف .

دخلتها البوذية ، فظهر في اليابان تمثال الإله شنتو Shinto وفى الصين ظهر تماثل الإله تاوْسِيم Taosim[1] .

البوذية وفلسفة اليوجا :

وذوبان بوذا فى آلهة الهندوس ليس إلا عَوْداً إلى تفكير الجنانا يوجا الذى يرى فى كل الديانات وفي كل الفسفات حقًا ، ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل ، فهذا المذهب لا يعترض على دين أو فلسفة ، ويرى أن أى دين أو فلسفة ليس هو كل شيء وليس هو كل الحق ، ومعتنق هذا التفكير لا ينتمى إلى دين أو مذهب لأنه يرى أتباع كل الديانات المختلفة إخوةً له مهما اختلفوا ، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع ، ويأبى أن يتقيد بقيود أى منها[2] .

اليوجا خدعة ضد الدين والوطن :

ويجب أن نقرر بشدة أن إثارة هذا المذهب والدعاية له ترمى إلى محاربة الإسلام بطريق غير مباشر ، وقد رأيت هذه المحاولات فى عدة بلاد ، فالإسلام هو القوة التى قهرت المبشرين المسيحيين والبوذيين ، فإذا صرفوا الناس عنه بطريق أو بآخر ولو باسم جنانا يوجا التى تتسع لكل المعتقدات ولا تتقيد بقيود أى منها ، فإن هذا كسب لهم عظيم ، وبعد أن يُصْرَف المسلم عن الإسلام بهذه الحيلة البارعة يمكن نقله إلى التشكيك ، فجذبه إلى دائرة أخرى ، فليحذر المسلم اليوجا ومداخلها ودعاتها .

وقد نشرت جريدة الأخبار الصادرة فى ١٦ / ٧/ ٧٥ خبراً عن إنشاء مكتب بالقاهرة باسم تدريبات اليوجا ، وكان المكتب من خلف هذه التدريبات يباشر نشاطاً دينياً لتمييع الأديان وللانتقاص من القيم الروحية

---

(١) Berry : Riligions of the world p. 47 .

(٢) فلسفة اليوجا تأليف يوجى راما شاراكا ص ١٩٨ من الترجمة العربية .

التي تتضمنها ، كما ثبت أنه يموَّل من جهات صهيونية ، ولهذا أصدرت وزارة الداخلية قراراً بإغلاق هذا المكتب وترحيل الأجانب الذين يعملون فيه .

تعاليم البوذية

١ـ هل البوذية دين أو فلسفة؟ :

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة ، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا ، ومتصرِّفة في أقدارنا ، وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا ، فإن بوذا بمقتضى هذا لم يكن صاحب دين ، فقد رأيناه لا يتكلم عن الله بل ربما سخر ممن تكلموا عنه ، غير أن أتباع بوذا بعده رفعوه إلى درجة الآلهة ، وقبلوا كلماته على أنها حقائق لا يتطرق إليها شك ، وهم بهذا يرفعون فلسفة بوذا إلى مستوى الدين ، ويرون أنه لم يتكلم عن الله لأنه هو الله . فالبوذية بناء على رأى بوذا فلسفة ، ولكنها فى رأى البوذيين دين .

ونحن نتفق مع بوذا ، ونرى أنه لم يكن نبياً ، ولا صاحب دين ، ولم يتلق وحياً ، وإنما هو باحث فيلسوف مفكر عاش على الأرض . وفكر فيما حوله من الأحياء ، ورأى ما ينزل بهم من متاعب ، وانتفع فى تفكيره بما سبقه من فلسفات وأفكار ، واهتدى إلى نتائج بعضُها من أقوال من سبقوه [١] ، ويقول مولانا أبو المكارم آزاد الذى كان وزيراً للمعارف بالهند ما يلى عن ذلك الموضوع [٢] :

« يبدو لى أن وضع بوذا فى صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه فى صف الأنبياء ، وذلك لأنه لم يتعرض فى مباحثه لوجود الله ، بل حاول حل

(١) Edward Thomas : The Life of Buddha pp. 192 - 193 .

(٢) التاريخ الجديد العام للفلسفة (ثقافة الهند يونيو سنة ١٩٥١) ص ٥٢ .

مسـألة الحياة ، وانتهى منها دون التحرش بالله وبوجوده ، إنه قد قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية فى الهند التى كانت تدين بآلهة وإلهات لا تعد ولا تحصى ، إنه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ إلى الاعتقاد بالله ، وإن الأساسى الذى بنى عليه بحثه ، أساس فلسفى ، فقال إن هدف الجهد الإنسانى يجب أن يكون الوصول إلى حل مسألة الحياة ، وذلك من المستطاع دون الاستعانة بوجود فوقَ العقل ، أجل ، أسرعَ أتباعه بعد وفاته إلى تحويل تعاليمه إلى مذهب دِّينى . ولما وجدوا أنه ترك المكان الذى يحتله الله فى الأديان فازغاً ، عمدوا إلى بوذا نفسه ، فحملوه ووضعوه فوق عرش الإله الفارغ ، إلا أن بوذا ليس بمسئول عما فعله أتباعه » .

وبعض المفكرين الغربيين يرون البوذية ديناً ، لأنها ترسم الطريق للتخلص من الذنوب ، ولأن فيها جانباً روحياً ، ولأن معتنقيها كانوا يمتازون بحماسة قوية لا تتوافر إلا مع الأديان (١) .

٢ـ لا عقائد بل عمل :

هذا الموضوع يرتبط بالموضوع السابق ، فإذا كنا آنفاً قلنا إن بوذا ليس نبياً ولكنه فيلسوف ، فإننا هنا ننقل عن العلامة الهندى رادها كرشنن (٢) أن بوذا لم يكن نبياً لأنه لم يقرر عقائد ، ولم يكن كذلك فيلسوفاً لأنه لم يؤسس مذاهب فلسفية ، وإنما أسس دعوته بناء على تجربته الروحية التى لا يمكن بيانها بالألفاظ ، فدعوته حكاية عن هذه التجربة ، وعن الطريق المؤدى إليها ، وبوذا يقول إن الحق لا يُعرف بالنظريات ، بل يُعرف بالسير المتواصل فى طريقه . و فى ذلك يقول أيضاً : إن عملى ملكى ، وعملى ميراثى ، وعملى هو الرحم الذى يحملنى ، وعملى هو الجنس الذى أنتمى إليه ، وعملى هو الملجأ الذى ألتجئ به .

---

(١) Berry : Religions of the World p. 43 .

(٢) كان نائباً لرئيس جمهورية الهند سنة ١٩٥٢ .

فأساس النظام الذى وضعه بوذا العمل لا العقيدة ، فقد كان يحاول خلق عادة لا إقرار عقيدة ، وعلى هذا ليس فى تعاليمه إلا القليل الذى يصح أن يوصف بالعقيدة ، كما أنه لم يأمر بعبادات ولا رياضيات تقشفية ، وكل إلحاحه كان على التدريب الأخلاقى [1] .

٢ـ أخلاق الجماعة البوذية :

سبق عند الكلام عن الجينية أن ذكرنا أن للجينية فرقتان : خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل ، وعامة وهم أتباع الجينية من غير الرهبان ، أما فى البوذية فلم تكن هناك طائفة خاصة من القسس والرهبان ، وكان أتباع بوذا جماعة واحدة يتعاون أفرادها على الوعظ والإرشاد ، ويلتزمون حياةً شعارها ضبط النفس من الشهوات ، وليست هناك شعائر يتبعها من يريد الالتحاق بالبوذية ، وعلى الراغب في الالتحاق بها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل مخلاته للسؤال وينضم إلى الجماعة ويتخلق بأخلاقهم ، ولعل من الممكن أن نقول إن فكرة التخلص من الأموال لدخول البوذية قد تسربت إلى المسيحية ، حيث يروى متى ومرقص ولوقا عن عيسى أنه قال لشاب غنى أراد أن يدخل المسيحية : بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعنى ، فلم يقبل الشاب ، فقال عيسى : يعسر أن يدخل غنى ملكوت الله [2] .

وليس ضبط النفس وقهر الشهوات بدرجة واحدة بين أتباع بوذا ، بل كانوا يتفاوتون فى ذلك تبعاً لمقدرتهم الخاصة .

والاحترام للحياة ، إنسانيةً كانت أو حيوانية ، من أهم الأخلاق البوذية ، فليس لبوذى أن يقتل حيواناً في لهو كالصيد أو فى جد كذبحه للأكل ، بل عليه أن يرفق بالحيوان ويعده أخاه فى الخَلق ، ولا يراه خَلقاً

---

(١) أبحاث لمجموعة من المفكرين الهنود عن غوناما بوذا نشرت فى عدة أعداد من «ثقافة الهند» .
(٢) متى : الأصحاح الثامن عشر ومرقص الأصحاح العاشر ، لوقا الأصحاح الثامن عشر .

أدنى منه ، فالهدوء الروحى والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا .

والمحبة الشاملة أهم وأفضل من الأعمال الحسنة لدى الجماعة البوذية ، وقد قال بوذا فى ذلك : الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التى تحرر القلب من شوائب الشر ، لأن مثل هذه المحبة يتضمن سائر الحسنات إن المحبة تشرق نوراً وبهاءً ، ترون الأم تحيط بوليدها حتى فى الأخطار التى تهدد حياتها ، كذلك يجب على كل إنسان أن يغرس فى نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق [1] .

٤ـ فلسفة الثروة عند بوذا :

تكلمنا آنفاً عن رأى بوذا فيما يتعلق بالمال والعقار ، وذكرنا أنه حث من يريد دخول «النظام» أن يتنازل عن أمواله وعقاره ثم يحمل مخلاته ويلتحق بالجماعة ، وذلك هو رأى بوذا تجاه الثروة ، ولكنه أورد مزيداً من الشرح الذى يُظهر أن هذا الاتجاه هو الغالب لأن الثروة فى أكثر الأحيان تستعبد صاحبها ، وتجذب نفسه وتصير هدفاً لذاتها ، أما إذا لم تشغف النفس بالثروة ، ولم يكن الإنسان عبداً لها ، ولم تكن هدفاً لذاتها وإنما تُجْمَع لتنفق فى الوجوه الصحيحة ، فإن الثروة حينذاك لا تصير نقمة ولا شراً ، بل تصبح نعمة وبركة للإنسان . ومثلها الحياة والسلطان .

ومما يتصل بالثروة رأيه فى العمل والبطالة ، فقد كان واضحاً من سياسة « الكشكول» والسؤال أن بوذا يتجه للبطالة ، ولذلك سأله أحد الجينيين مرة : هل أنت تدعو إلى ترك الأعمال وهجر الأشغال ؟ فأجابه : إنى أدعو إلى ترك كل عمل قبيح يجر إلى الشرور ، ولكنى بجنب هذا أدعو إلى القيام بكل ما هو حسن للجسد واللسان والفكر ، وكذلك أدعو إلى الإقبال على كل عمل يؤدى إلى الخير والسعادة . ولكن سلوك بوذا على كل حال كان يناقض حب العمل .

---

(١) من بحث للعلامة رادها كرشنن سالف الذكر .

٥ـ إلغاء الطبقات :

تحدثنا من قبل عن نظام الطبقات فى الهندوسية ، ولعل من أهم المبادئ التى نادى بها بوذا هى إلغاء هذا النظام ، ومن أقواله فى ذلك : اعلموا أنه كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصب فى البحر ، كذلك تبطل الطبقات الأربع عندما يدخل الشخص فى النظام ويقبل الشريعة ، إن ما يدعو إليه بوذا هو الرهبنة ، وفى الرهبنة يتساوى سائر البشر .

ولكن يؤخذ على هذا الاتجاه أنه جعل إلغاء نظام الطبقات متوقفاً على دخول البوذية . فلم يدع للمساواة فى حد ذاتها ، أما الإسلام فهتف بالمساواة مبدأ عاماً بين البشر ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، فالآية تنادى الناس ولا تنادى «المؤمنين» فقط ، وهى تتكلم عن مبدأ الخلق وأن الناس ينحدرون من أب واحد وأم واحدة فلا معنى للتفاوت والطبقية .

وقد سبق أن قلنا إن البوذية ـ لأنها لم تتكلم عن الله ـ سرعان ما امحت وذابت فى الهندوسية بالهند ، وبالتالى سرعان ما ضاعت المساواة إذ ربطها بوذا بدخول البوذية .

٦ـ المرأة والبوذية :

يقول العلامة رادها كرشنن النائب السابق لرئيس الجمهورية الهندية فى بحثه سالف الذكر : إن المرأة الهندية فى عصر بوذا لم تكن منعزلة ، ولكننا مع ذلك نجد بوذا يتردد كثيراً فى قبولها لتكون من أتباعه ، وقد سأله مرة أحد خاصته وهو ابن عمه آننداً :

ـ كيف نعامل النساء أيها السيد ؟
ـ فأجاب : لا تنظر إليهن .

ـ ولكن إذا اضطررنا للنظر إليهن ؟
ـ لا تخاطبهن .
ـ ولكن إذا خاطبننا ؟
ـ إذاً كن على حذر تام منهن .

وكان آنندا من أنصار المرأة ، وكان ابن عم بوذا وصفيَّه ، فما زال يلح على بوذا حتى قبل ضم النساء إلى جماعته وأتباعه ، على أنه على الرغم من ذلك كان يرى فى هذا خطراً على المجتمع البوذى، وقد قال لآنندا مرة : لو لم نضم المرأة لدام النظام الخالص طويلاً ، أما الآن بعد دخول المرأة بيننا فلا أراه يدوم طويلاً .

وقد أثر عن بوذا قوله : «للنظام بعد موتى أن يغير من سننه ما يراه مضراً لمقاصده وحياته» ويرى العلامة رادها كرشنن أن بوذا عنى بهذه الجملة لأتباعه طرد النساء إذا رأوا منهن خطراً على الدعوة .

لمحة تاريخية

الكلام عن تاريخ البوذية يشمل اتجاهين ، أحدهما دراسة البوذية من ناحية تطورها الفكرى والفلسفى ، والثانى دراسة البوذية من ناحية انتشارها، وما صادفته من انكماش وانبساط وعوامل ذلك ، وفيما يلى حديثنا عن كل من هذين الاتجاهين :

(أ) تطور البوذية الفكرى والفلسفى :

صورنا فيما سبق البوذية فى حياة مؤسسها ، فشهدناها نظاماً أخلاقياً ، واتجاهاً تربوياً ، ولكنها أخذت تتطور من قرن إلى قرن ، فدخلتها مسائل عن الإلهيات والكون كان بوذا قد نهى عنها وحذَّر منها مريديه ، ولكنهم بعده بحثوا فيها وأدرجوها فى التعليم نفسه ، فأصبحت البوذية مذهباً فكرياً

ومباحث عقلية ، وبعدت البوذية الجديدة بذلك عن البوذية القديمة ، لقد كانت البوذية القديمة تزكية وتربية فأصبحت البوذية الحديثة فكراً وفلسفة .

وقد قسمها العلماء حسب الطابع العام ، إلى البوذية القديمة والبوذية الجديدة . فالبوذية القديمة صبغتُها أخلاقية ، وميزتها سذاجة المنطق وإثارة العاطفة ، وطابعها الحض عَلى الخضوع لقوانين النظام ، والاهتمام بهدى شارعها ، وكأنها هى التى دعا إليها بوذا نفسه واتبعها مريدوه وأتباعه الملازمون له . أما البوذية الجديدة فهى عبارة عن تعاليم بوذا مختلطة بآراء دقيقة فى الكون ، وأفكار مجردة عن الحياة والنجاة ، مؤسسة على نظريات فلسفية ، وقياسات عقلية ، قد سمحت بها قرائح المتأخرين من الشراح والزعماء ، والغالب عليها صبغة الفلسفة (١) .

وقد ارتبط التغير الفلسفى البوذى بانتشار البوذية ودخولها أقطاراً كثيرة ، فإن أتباعها هنا وهناك أكثروا فيها القياس والتأويل حسب عقولهم وثقافاتهم حتى بعدت عن أصلها الساذج البسيط ، وسنسوق فيما يلى اتجاه الفرق الفلسفية الجديدة ، ويلاحظ أن أكثرها اتخذ الاعتراف بالإله أساساً لفلسفته :

ـ فرقة تقول بوحدانية الله ، وأنه أوجد أولاً عدداً محدوداً من الأرواح ، ثم ترك الإنشاء والتعمير مكتفياً بما وضعه فى العالم من قوانين وقوى كالبذور تسير سيرها الطبيعى بلا نهاية ، وهذه الأرواح هى التى تخلص الخير والشر .

ـ وفرقة ترى أنه أودع هذه الأرواح التى أرسلها للعالم قوى تستطيع منها أن تعرف الخير من الشر ، ومن أجل ذلك لا يرسل الله رسلاً اكتفاء بذلك .

---

(١) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٥٣) ص ٩٥ .

ـ وفرقة ترى أن الله يُفْرِغ الكمالات الإنسانية فى كل زمن على إنسان يتجرد لعبادته ، ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانية ، وهذا الإنسان المختار يحل محل الإله فى إظهار الرضا عن بعض الناس أو الغضب عليهم ، تبعاً لما يأتونه من الأعمال ، ويعرفه الناس ويلتفون حوله .

ـ وتبالغ فرقة أخرى فى تصوير المعنى السابق فتقول إن الله يحل فى أية صورة يختارها من صور أفراد الإنسان حلول تطهير وتكميل لا حلول استقرار (كاللاما فى بلاد التبت) .

ـ وتتكلم كل الفرق عن التناسخ وارتباطه بالكارما ، ولكن بعض الفرق ترى تناسخ النوع الإنسانى مقصوراً عليه ، وتناسخ الحيوان مقصوراً عليه ، فلا تنتقل روح من إنسان إلى حيوان ولا العكس ، وتزيد فرقة أخرى فى تضييق دائرة التناسخ ، فترى أن روح العالم تنتقل إلى صانع وهكذا[1] .

(ب) انتشار البوذية :

انتشرت البوذية فى عهد بوذا انتشاراً واسعاً بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا ، أما طبقة الملوك والجنود فقد دخلت البوذية تخلصاً من سلطان البراهمة الذين أثاروا ـ كما سبق القول ـ سخط جميع الطبقات الأخرى باستبدادهم وتعسفهم وأما الطبقات الدنيا فقد دفعت بنفسها إلى البوذية لتتخلص مما عانته فى رحاب الهندوسية من اضطهاد واحتقار .

ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد بوذا ، وقد سبق أن ذكرنا أن من أهم أسباب انكماشها أنها لم تعن بالكلام عن الإله ، وبعبارة أخرى تركت فراغاً كبيراً فى نفوس أتباعها ، وبمرور الزمن ملأ أتباعُها هذا الفراغ بآلهة الهندوس أو بعبادة بوذا نفسه واتخاذه إلها ، ويتصل بهذا أيضاً أن بوذا لم

(١) هذه الدراسة موجزة عن : محمد فاضل : الخراب فى صدر البهاء والباب ص ١٠٣ .

بين معابد ، ولم يأمر أتباعه بممارسة أى لون من ألوان العبادة ، وبسبب هذا لجأ أتباع بوذا إلى معابد الهندوس فوضعوا فيها تمثال بوذا ، وأصبح كل ما زاد هو إله جديد أضيف إلى آلهة الهندوس المتعددة ، والعقل الهندى يرحب بمزيد من الآلهة . وهكذا أخذت البوذية تتلاشى فى الهندوسية ، وأخذت الهندوسية تمتصها أو تمتص أتباعها يوماً بعد يوم .

وكان من أسباب ضعف البوذية فى الهند بالإضافة إلى ما سبق ، أن البوذية اهتمت بإصلاح الباطن ، أي إصلاح الأخلاق ، فحاربت الشهوة والغرور والكبرياء ، وألزمت بالشُعَب الثمانى من رأى سليم وشعور صائب وسلوك حسن . . . ولكن الهندوسية قنعت بأشياء ظاهرية كالغسل فى الأنهار المقدسة والأخذ بالطقوس والقرابين . . ومعالجة الظاهر أيسر وأسهل من معالج الأمور الباطنية ولهذا تخلى البوذيون يوماً بعد يوم عن صراعهم مع نفوسهم ، واكتفوا بقربان يقدمونه أو مظهر يظهرون به كما ترى الهندوسية ، ومما ساعد على ذلك تأصُّل نظام الطبقات الذى رفضته البوذية ، واحتواء الهندوسية على تقاليد القوم وعاداتهم مما جرهم إليها يوما بعد يوم [١] .

هذا ما آلت له حال البوذية فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، ففى داخل الهند ، كانت البوذية تضعف وتنكمش ، ولم تكن البوذية قد عرفت بعد طريقها إلى خارج الهند ، وجاء الملك العظيم آسوكا والبوذية على وشك أن تنهار ، فأعتنقها وبعث فيها الحياة مرة أخرى ، ودفع بها إلى الخارج ، والمؤرخون يعدونه للبوذية شبيهاً بالقديس بولس أو قسطنطين الأكبر بالنسبة للمسيحية . تعال بنا نقص طرفاً من حديث هذا الملك العظيم .

Rylands : The Peoples and Religions Religions of India p. 199 . (١)

آسـوكا وانتشـار البوذيـة :

كان الإسكندر المقدونى قد استولى على السند فى زحفه نحو الشرق ، ولكنه لم يتقدم نحو نهر الكنج ، ولم يسيطر على باقى الهند لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا معـه فى ذلك العالم المجهول ، وألف المقدونيون مملكة صغيرة فى هذا الركن من الهند ، وفى سنة ٣٢١ق . م تمكن الأمير شاندرا جوبتا Chandragupta الذى ينحدر من الأسرة المورية أن يجمع حوله قبائل عديدة بمنطقة التلال ، وأن يستولى على المملكة الإغريقية بالبنجاب ، ويزيل عن الهند آثار الحكم الإغريقى ، وجاء ابنه بعده فبسط رقعة مملكته ، فلما جاء حفيده آسوكا وجد نفسه حاكماً على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس ، وسار آسوكا (٢٦٤ ـ ٢٣٧ ق . م) فى مطلع حياته سيرة أبيه وجدّه فى محاولة التوسع عن طريق الحرب .

وبينما كان آسوكا فى قمة انتصاراته الحربية ، أحسن باشمئزاز من هول الحروب وقسوتها ، فتخلى عن الحرب ، وكره النصر عن طريقها ، وزهدت نفسه فيها تماماً ، وتبنى مذهب البوذية ، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين فى ميادين الدين ، وتروى الأساطير أن هذا التحول كان بسبب ما ناله من حيرة ، وبسبب تأنيب ضميره لقتله إخوته وعددهم تسعة وعشرون ، أو حرقه زوجاته وجواريه وكنَّ خمسمائة[1] .

ودام حكم آسوكا ثمانية وعشرين عاماً تعتبر أزهى فترة فى تاريخ البشرية المضطرب ، فقد قام فى الهند بحركة عظيمة للخير والثراء ، حفر الآبار ، وزرع الأشجار ، وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التى تربى فيها الأعشاب الطبية . واهتم بأهالى الهند الأصليين ، واتخذ العدة لتعليم النساء ، وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذية ،

René Sedillot : The History of the World p. 62 . (١)

واتجه آسوكا إلى خارج الهند فأرسل البعوث الدينية إلى كشمير وسيلان والإمبراطورية اليونانية وجبال هيمالايا وفارس والإسكندرية (١) .

وهكذا انتقلت البوذية من مذهب ضمن المذاهب الدينية الهندية إلى دين عالمى ، وسرعان ما لبى أهل سيلان دعوة آسوكا فاعتنقوا الدين الجديد ، ولعل مما سبب ذلك ما كان بين حاكمها وبين آسوكا ، من روابط الصداقة . ويروى أن أهل الجزيرة أرسلوا بعثة إلى الهند لتعلم البوذية ، وأن آسوكا أرسل مع إحدى بعثاته إلى سيلان فسيلة لشجرة المعرفة التى نال بوذا تحت ظلالها المعرفة والبصيرة ، وغرست هذه الفسيلة فى سيلان ، وبمرور الزمن أصبحت دوحة عظيمة ، ولا تزال باقية إلى الآن وهى أقدم شجرة على الأرض .

وأقام آسوكا المسلات فى عدة أمكنة حيث دوَّن عليها تعاليم البوذية وأنذر من يميلون للعصيان ، ووعد البررة بالهبات والخيرات .

وتنازل آسوكا عن ممتلكاته ولم يستبق إلا ثمانية أشياء ضئيلة هى أردية ثلاثة صفراء ، ونطاق يشدها به ، وإبرة لترقيع الأردية ، ومجموعة خيوط للترقيع وموسى لحلق شعره وغربال لتصفية الماء قبل شربه حتى لا يبلع نفساً .

وندب آسوكا رجالاً يتجولون فى البلاد ، يرغّبون الناس فى النسك والورع ، ويعلمونهم مكارم الأخلاق ، وحثهم أن يكونوا قدوة للناس ، ليسهل على الناس الاقتداء بهم ، فيجاروهم فى سيرتهم الرشيدة ، وصبرهم على الشدائد ، وعهد إليهم كذلك النظر فى الأعمال الخيرية وإدارة شئونها ليزيد نفعها وخوّلهم بعض السلطة فكان لهم إطلاق سراح المسجونين إذا اقتنعوا ببراءتهم ، وكانوا يراقبون الناس ليتحققوا

(١) Wells : A Short History of the World pp. 126 - 127 .

أنهم يلتزمون سبل السلام ويحترمون القانون ويراعون حق الفقراء والأكابر [1] .

ومات آسوكا وقد انتشرت البوذية فى الهند وفى البلاد المجاورة لها ، ولكن البوذية فى الهند عادت بعد قليل تصارع الهندوسية كما فعلت من قبل ، ولم تستطع البوذية أن تثبت فى هذا الصراع ، فالهندوسية كانت أثبت وأكثر صلة باتجاهات السكان وميولهم ، فاضمحلت البوذية أمامها ، وأخذت تنحدر حتى انحسرت عن الهند تقريباً . أما فى البلاد المجاورة فإن البوذية سارت بنجاح وانسابت فى اتجاهات متعددة فى شرقى آسيا حتى أصبح أتباعها حوالى خمسمائة مليون نسمة ينتشرون فى بورما وتايلاند والصين واليابان وأندونيسيا ونيبال والتبت وسيلان .

والبوذية القديمة أى العميقة الصلة ببوذية بوذا ، والتى يتجلى فيها الطابع الأخلاقى والتربوى ، تسمى المذهب الجنوبى ، وهى تنتشر فى بورما وتايلاند وسيلان وكتبها المقدسة مكتوبة باللغة البالية وهى لغة هندية قديمة . أما البوذية الجديدة فهى التى اختلطت بالآراء والنظريات الفلسفية وتسمى المذهب الشمالى ، وتنتشر فى الصين واليابان والتبت ونيبال وإندونيسيا ، وكتبها المقدسة مكتوبة باللغة السنسكريتية ، وأتباعها أكثر من أتباع المذهب الجنوبى .

والبوذية فى الصين بوجه خاص لها طابع يجعلها بعيدة عن البوذية الحقيقية ، فقد صبغها الصينيون بثقافتهم وحياتهم فجعلوا آلهتها ثلاثة وثلاثين على نحو ما كانوا يعملون قبل البوذية ، وأقاموا لها المعابد الجذابة ، التى تزينها الفنون الجميلة ، ومن سبب إقبال الصينيين على البوذية أنها دخلت بلادهم بعد أن أصبح بوذا إلهاً ، وأصبح تمثاله وثناً يُعبد ، وتقدم له

(١) محمد عامر الأنصارى : آسوكا الامبراطور الهندى العظيم ص ٨٢ ، ٨٣ .

القرابين ، وتقام له الصلوات ، وقد كان لهم مع آلهتهم الأولى مظاهر للتقديس ليست بعيدة عن هذه المظاهر ، ومما سبب إقبالهم على البوذية كذلك أنها دين إنقاذ وطهر ، يمنح بالنرفانا اللذة والسعادة فى الحياة وبعد الموت ، ويحث على الرحمة ، ويغرى بالخير ، ويقضى على الشهوات الظالمة ، ويبعد عن الشرور (١) .

مراحل انتشار البوذية :

ولنسر خطوة خطوة مع التاريخ نسجل انتشار البوذية الذى سبق أن أشرنا إليه معتمدين على مرجع هام خاص لهذه الدراسة (٢) .

إن التاريخ الإجمالى للبوذية يقرر أن هذه الديانة واصلت سيرها طوال خمسة وعشرين قرناً ، وفى خلال هذه الفترة الطويلة تطورت البوذيه سواء من ناحية العقيدة ، أو التطبيق ، أو الأدب ، أو المؤسسات المرتبطة بها كالمعابد والمعاهد ، وقد اقتحمت البوذية حوالى ثلاثين قطراً فى آسيا ، وكان تأثيرها عظيماً فى آداب هذه الأقطار وفى اتجاهاتهم الدينية ، ومنذ القرن التاسع عشر اتصل الفكر البوذى ببعض دول أوربا فأصبح للفكر البوذى أثره فى الفلسفة الغربية والأدب الأوربى والموسيقى وغيرها من الفنون الثقافية .

ذلك مجمل القول نحو تمدد البوذية وانتشارها ، ولكن إعطاء تفاصيل عن هذا الانتشار يكاد يكون أمراً متعذراً لقلة المادة الدقيقة عنه ، ومن الممكن على كل حال لو قسمنا عمر البوذية إلى خمس مراحل ، كل مرحلة خمسة قرون أن نعطى أبرز التطورات عن البوذية فى كل من هذه المراحل .

شهدت الفترة الأولى (من مطلع البوذية حتى القرن الأول الميلادى) تحولاً كبيراً فى العقيدة البوذية فيما يتصل ببوذا ، فقد كان فى أول هذه الفترة

Berry : Relihious of the World pp. 47 - 48 . (١)

Buddhism, Ed. Richard Card pp. 2 - 15 . (٢)

يعد معلماً ورجلاً عظيماً ورائداً عالمياً ، ثم أصبح بمرور السنين رجلاً مقدساً فمعبوداً فإلهاً ، ولم يكن ذلك التطور الواسع باتفاق الجميع ، ولذلك عقدت عدة مؤتمرات للتوفيق . ولكنها لم تستطع أن تقنع الجماهير بترك مكان الإله شاغراً كما أراده بوذا أن يكون ، فظل الخلاف قائماً .

وفى خلال هذه الفترة ظهر الإمبراطور آسوكا الذى دفع البوذية إلى خارج حدود الهند كما سبق القول ، وبدأت البودية تبنى المعابد وتضع فيها الآلهة ، كما بدأت تقيم الجمعيات التى ترعى الحياة الاجتماعية وتشرف على شئون الدين وبخاصة فى الهند وسيلان .

وفى الفترة الثانية أى من القرن الأول حتى القرن الخامس الميلادى أخذت البوذية تنتشر تجاه الشرق إلى البنغال ، وتجاه الجنوب الشرقى إلى كمبوديا وفيتنام ، وتجاه الشمال الغربى إلى كشمير ، وفى القرن الثالث اتخذت طريقها تجاه الشرق إلى الصين وأواسط آسيا ، وكان دخولها إلى الصين بطريق البحر أيضاً ، ومن الصين اتجهت إلى الشمال الشرقى فدخلت كوريا ، وكان لنشاط الصينيين الذين زاروا الهند وسيلان وجاوه بين سنة ٣٩٩ وسنة ٤١٤م أثر كبير فى نشر البوذية فى هذه البقاع ، وكانت البوذية فى هذه البقاع تتعاون تعاوناً كاملاً مع النظام الملكى الذى كان مسيطراً خلال هذه القرون على هذه الأقطار ، وبواسطة هذا الارتباط بين الدين والسياسة انتشرت البوذية وكثر تابعوها وشهدت هذه المدة تقدماً واضحاً فى الثقافة البوذية التى أخذت تقيم المعاهد وتنتشر تراثها على أتباعها .

وفى المدة التالية أى من القرن السادس إلى العاشر الميلادى استمرت البوذية فى التقدم والانتشار ، وبخاصة من كوريا والصين إلى اليابان ، ومن الهند إلى نيبال ، ثم إلى التبت ، وزادت مواكب الحجاج فى هذه الفترة ، وكثر نشاطهم وتنقلهم إلى البلاد التى دخلتها البوذية ، ويلاحظ فى هذه الفترة أن الارتباط بين القصور الملكية الحاكمة وبين البوذية لم يكن دائماً

وطيداً وكان انتشار البوذية أو تقلصها يتوقف على قوة الارتباط وضعفه ، وتعد هذه الفترة من أزهى فترات البوذية من الناحية الثقافية . فقد اتضح تأثير البوذية على الآداب والفنون فى جميع البلدان التى دخلتها .

وفى المدة التالية أى من القرن الحادى عشر إلى الخامس عشر ضعفت البوذية واختفى كثير من آثارها وذلك لعودة النشاط الهندوسى فى الهند ولظهور الإسلام فى الهند وفى سواها من الأقطار التى كانت تتربع فيها البوذية ، ولكن البوذية اتجهت بنشاطها فى هذه الفترة - فارةً من الإسلام - تجاه لاوس ومنغوليا وسيام وبورما وكان النشاط الثقافى البوذى عظيم الأثر خلال هذه الفترة فى بورما وكمبوديا وسيلان واليابان .

أما الفترة الأخيرة أى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين فتعتبر فترة دقيقة فى تاريخ البوذية ، إذ وقفت البوذية وجهاً لوجه أمام تحدى الفكر الغربى الذى حمله الاستعمار إلى تلك البقاع ، فقد أدخل الاستعمار الغربى إلى هذه البلاد اتجاهاته الفكرية وإصلاحاته التربوية وفلسفاته فى مختلف الشؤون ، ولم تجد البوذية بدا من أن تتعاون طوائفها المختلفة لتقف فى وجه هذا الزحف الفكرى ، وهكذا التقت الفرق البوذية أو قربت بعضها من بعض لتَقْوَى على النضال فى معركتها مع المسيحية الغربية والفلسفات الأوربية وقد تبنت البوذية كثيراً من الاتجاهات الغربية ، كما تشربت المسيحية بعض الأفكار البوذية ، وتبودلت المطبوعات بين المشرفين على هاتين الفلسفتين ، وتطور التعليم فى المعابد فاقترب من كليات الغرب وجامعاته ، وتم تعاون فى الخدمات الاجتماعية بين البوذيين والغربيين .

وفى نهاية هذه الفترة اصطدمت البوذية بالشيوعية ، وأصبح الحكم فى كثير من الأقطار التى تنتشر بها البوذية فى أيدى حكومات شيوعية ، ولم يتضح بعد مصير البوذية فى ظل الظروف الجديدة .

كنت على وشك أن أرفع القلم عندما وصلت إلى هذا الحد من الحديث عن انتشار البوذية ، ولكنى تذكرت أحداثاً عشتها سنة ١٩٦٠ بتايلاند أحد مراكز البوذية بالشرق الأقصى . وهذه الأحداث تقرر بما لا يدع مجالاً للشك أن الجيل الجديد فى أكثر البلاد التى تدين بالبوذية غير قانع بها ، وأن طبقة المثقفين على وجه الخصوص تنظر إلى طقوس البوذية بشىء من السخرية . ويراها أكثرهم تاريخاً يصعب أن يعيش فى الحاضر وأن يجارى مقتضيات الحياة الحديثة ، وقد نتج عن ذلك الشعور فراغٌ فى نفوس المثقفين فى هذه البلاد ، وتحاول المسيحية جاهدة أن تملأ هذا الفراغ ، وأن تجذب لها هؤلاء المترددين ، وفى سبيل ذلك تتبنى المسيحية بعض طقوس البوذية واحتفالاتها حتى تَقْرُب من هؤلاء الشبان وحتى لا تبدو لهم شديدة البعد عما ألفوه ، وما شاهدوا عليه أهليهم وذويهم . ومما يساعد المسيحية فى نضالها هذا ما تغدقه دول الغرب على مراكز التبشير بالمسيحية من مال ومعدات ونفوذ .

ويقف الإسلام - للأسف - من هذا التحول موقفاً ضعيفاً . فليست هناك جهود على الإطلاق تبذل للتعريف بالإسلام ومحاولة نشره ، وأكثر المسلمين فى تلك البقاع ثقافتهم ضحلة ، ومواردهم ضئيلة ، وإمكانياتهم محدودة ، ولذلك لا يدخلون هذه المعمعة ويوشكون أن يقفوا منها موقفاً سلبياً ، وسأورد فيما يلى فقرات من تقرير رسمى كتبته آنذاك . وصفت به ما شاهدت بعينى ، ولعلى بذلك أثير الهمم لتدارك الأمر .

فى طريقى من أندونيسيا حيث كنت مديراً للمركز الثقافى العربى وأستاذاً بالجامعة تخلّفت بضعة أيام فى تايلاند ، وكنت أنزل فى أحد الفنادق الكبرى فى بانكوك، ووزعت علينا إدارة الفندق كتاباً عن أهم معالم المدينة وأمكنتها الأثرية ؛ وأخذت أطالع الكتاب فوجدت بضع

صفحات خصصت للمعالم الدينية ، وأهمها معابد البوذية ثم مجموعة من الكنائس المسيحية ، وأخيراً مسجد واحد ، وجاء يوم الجمعة وأنا فى بانكوك فقررت أن أصلى الجمعة فى هذا المسجد رجاء أن أتعرف على أحوال المسلمين ، وذهبت إلى المسجد فوجدت المصلين قليلين ، وكان دخولى ملفتاً لأنظار البعض ، فقد أدركوا أنى غريب ، واتجه واحد منهم نحوى فألقيت عليه السلام ، فأدرك أننى مسلم جئت للصلاة فرحب بى ، وحاولت أن أكلمه بما أعرف من لغات ولكن الرجل أدرك أننى أعرف العربية فذهب وعاد ومعه رجل يعرف اللغة العربية إلى حد ما ، يحسن فهمها ولكن تعبيره بها ضعيف، وتحدثنا بواسطة هذا الرجل .

سألنى من أنا ومن أين أتيت ، فأخبرته ، فوجدته يعرف اسمى ويستمع كثيراً لإذاعاتنا العربية من إندونيسيا . ورحب بى وطلب منى أن ألقى خطبة الجمعة ، وهو شيء لم أكن ألفتُه من قبل ، ولكنى أعرفه على كل حال واستجبت لرغبته ، وتأخر وقتَ الصلاة قليلاً ليعلنوا أننى سأكون الخطيب ، ولإعداد مكبر للصوت مزدوج الالتقاط أتحدث أنا فى أحد فرعيه ويتحدث المترجم فى الثانى .

والتفَّ الناس حولى بعد الصلاة وتكلمنا طويلاً وزرت بيوت بعضهم وفرحوا بى فرحاً بالغاً وقالوا لى : ابق معنا هنا ننشر بك الإسلام ونهدى الحائرين ، وأجبتهم بأنى لا أضع الخطط وإنما أسير على خطة توضع لى ولا سبيل إلى تغييرها ، وكل ما أملكه هو أن أرفع أصواتكم لمن يضع الخطط بالقاهرة [1] .

وأعادونى إلى الفندق فى موكب حافل فى منتصف الثالثة ، ثم همس شاب فى أذنى بإنجليزية ركيكة : هل تحب أن ترى أعياد البوذية هذا المساء؟

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى كتاب «رحلة حياة» للمؤلف .

قلت : نعم ، وسألته ما أعياد البوذية التى يقصدها؟ فقال لى : إن أعياد البوذية تكاد تكون متصلة ، ولكن أهمها هو ما يجرى فى هذا الموسم ، أى موسم الفراغ ، فراغ الزراع من العمل لأن الوقت وقت جفاف ، وقد زرع الناس أرضهم فى موسم الأمطار والعمل الآن بالمزارع قليل وموسم فراغ عند الطلاب فقد بدأت إجازة الصيف ، وفى هذا الموسم يدخل كثير من الناس أديار البوذية ومعابدها لقضاء ثلاثة شهور ، وهى عبادة لابد أن تحصل مرة على الأقل فى العمر .

وفى الساعة الرابعة انطلقنا لنشهد هذه الأعياد ، وكل مجموعة من القرى تشترك فى موكب منها ، وكنت أرى الموسيقى تدق فى جميع الأرجاء والأغانى تنبعث من مكبرات الصوت فى عدة نواح ، ورأيت موكباً بهيجاً يمشى فى طريق عام فاندمجت فيه ، كان الناس به يحملون مظلات كبيرة ملونة مزركشة أشبه فى حجمها بمظلات الشاطئ ، وكانت الموسيقى تصحب الركب ، وعلى دقات الموسيقى كان يشترك عدد كبير من الرجال والنساء فى رقصات دينية منتظمة ، وبينما يسير الموكب فى الطريق العام يخرج له من هذه الناحية ومن تلك جماعات أخرى بمظلاتها وموسيقاها وراقصيها فتنضم لهذا الموكب العام وتسير معه ، وكانت لحظات الالتقاء بين الموكب العام والمواكب الفرعية بديعة للغاية ، فالموسيقى تقرب دقاتها حتى تتلاقى ، ووفود الراقصين والراقصات من الجانبين يداعب بعضهم بعضاً فى نشوة ظاهرة .

وسرت مع الركب حتى غايته بعد أن كبر جداً من كثرة ما تلقَّى من الجماعات المنضمة إليه من كل جانب ، وهناك فى النهاية كانت وفود أخرى محتشدة وموسيقى تملأ الأصقاع ، وراقصون وراقصات يستقبلون الموكب الحافل ، ثم هدأت الموسيقى وهدأ الرقص قليلاً ، وتقدم مجموعة من الرجال لا يلبسون إلا ما يستر العورة فجلسوا على صف من الكراسى ،

وتقدم مجموعة من الحلاقين اجتمعوا لهذه الغاية وفى أيديهم أمواس حادة فحلقوا شعور هؤلاء الجالسين وكانت النساء تعاون الحلاقين بصب الماء ودلك الشعر بالصابون ، وبعد أن تمت الحلاقة دُهنَت رءوسهم بشيء أصفر ثم صُبَّ عليهم ماء للاستحمام ، وبعد لك دخلواً حجرات خرجوا منها بعد فترةٍ وهم يرتدون لباس المعبد ، وهو عبارة عن قماش أصفر فاقع اللون يلتفون به ، وبعد أن ينال الناس شيئاً من الطعام والشراب يستأنف الموكب سيره ليقدم هؤلاء إلى الأديار البوذية والمعابد .

تلك صورة سريعة لهذه الاحتفالات السنوية ، وقد حاولت أن أعيش فى أعماق هذا الموضوع لا فى ظاهره ، وساعدنى على ذلك الطلاب والطالبات الذين التفوا حولى وحاولوا أن يتحدثوا إلى بما يعرفون من لغة إنجليزية هزيلة وأشهد أنهم كانوا كراماً جداً معى ، واشترك الجميع فى تكريمى ، وقدموا لى ألواناً من المشروبات أخذت منها ما استطعت شربه ، ودارت محادثات طويلة بينى وبين الفتيان والفتيات حولى ، فقد كان واضحاً أن الذين يشتركون بنشاط فى الموسيقى والرقص هم من الشويخ أو من قليلى الثقافة ، وأن الذين يتقدمون لحلق رءوسهم كانوا من هذا النوع أيضاً ، وأما ذوو الثقافة فكانوا مثلى مشاهدين لا غير ، قلت لطالب : لماذا لا تتقدم لتحلق رأسك وتدخل الدير؟ وضج الجميع بالضحك ، وقلت لطالبة : لماذا لا ترقصين مع الراقصات؟ فضحك الجميع وأخذت زميلاتها يدفعنها إلى الرقص فى أشبه بالسخرية من الرقص والراقصات ومن الحلاقة والحالقين . وسألت طالبة أخرى : لماذا لا تدخلين المعبد؟ قالت : إن النساء لا يدخلن ، قلت لها : هل الدين للرجال والنساء أو للرجال فقط؟ ولم أتلق إجابة رشيدة ، ولكنى أدركت بما لا يدع مجالاً للشك أن الجيل الجديد فى تلك البقاعِ غير قانع بالبوذية ، وأنه فى حيرة من أمره ، وأنه إن لم يعلن ثورته فهو يسرها ، وربما تجذبه الموسيقى والاحتفالات شأن كل الشبان فى العالم ، ولكنّ معالم الدين لا تجذبه وطقوسه لا ترضيه .

هل سيظل الجيل الجديد فى شكه وتردده؟ وإلى أى اتجاه سيتجه؟

لقد رأيت أن المسيحية الأوربية قد درست هذا الوضع ، ورأيتها تضع الشِّباك لتصطاد هؤلاء ولتجذبهم إلى حوزتها ، بل رأيتها مسيحية يمكن أن نسميها المسيحية البوذية ، تتبنى بعض طقوس البوذية حتى لا يحس الناس بالفارق الكبير بين الدين الذى ألفوه وبين الدين المسيحى الذى يُدْعَون إليه ، ويجذبهم ويفتح لهم أبوابه ، رأيت الدعاة يملأون كل مكان ، ورأيت الكنائس تنتشر ، ورأيت المستشفيات والمدارس المسيحية تجذب الناس ، ورأيت ملايين النسخ من الإنجيل باللغات المحلية توزع مجاناً بنشاط كبير ، ورأيت الصحف والمجلات والنشرات المسيحية معروضة هنا وهناك فى وضع جذاب وقد كتب فوقها «خذ نسخة مجاناً» ، وعلى العموم رأيت زحف المسيحية على هذه البقاع لتأخذ مكان البوذية ، يالله! لقد هالنى ذلك، ولم يكن الوقت يتسع لى لأكافح لخدمة الإسلام ولم أكن مستعداً لهذه الجولة الطويلة ، وأقسم لقد انفرطت من عينى الدموع ، وأحسست أن عبئاً كبيراً يوضع على عاتقى ولم أجد وسيلة للتخلص منه إلا بكتابة هذه السطور لألقى العبء على من يستطيع حمله وتدبير أمره .

وليس هذا الوضع خاصاً بتلايلاند ، وإنما هو وضع شامل لدول شرقى آسيا ، إنك تراه فى أندونيسيا وبورما والملايا وسنغافورة والفيلبين مع اختلاف قليل أو كثير ، نجد قلوباً فارغة لم تستطع البوذية أن تحتفظ بها ولا استطاعت اللادينية أن تقنعها ، وهنا يسهل تقديم ديننا الحنيف ، ومن الواضح نتيجة لذلك أن نقرر أن جُلَّ رسالة الأزهر ، وجل رسالة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وشطراً كبيراً من رسالة وزارة التعليم العالى ووزارة التربية يجب أن يتجه إلى هناك إلى تلك البقاع حيث مئات الملايين الذين يقفون على مفترق الطرق ، فإذا جذبتهم المسيحية كل ذلك هزيمة لنا وأى هزيمة .

وهنا أسرع فأقرر أن هذه المشكلة ليست دينية فحسب ، إنها مشكلة سياسية ، فانحياز هذه البلاد إلى المسيحية الأوربية معناه فوز سياسي تسعى له أمريكا وأوربا جاهدتين ، فالمشاهد أن الإسلام ليس ديناً فقط ، وإنما هو عون سياسي واقتصادي لنا في تلك البقاع ، لقد اعترفت أكثر دول العالم بإسرائيل وبقيت الدول الإسلامية باسم الإسلام تناضل الدولة الأثيمة وتزعزع أركانها ، ثم إن إسرائيل تسهم بنصيب كبير في إبعاد الإسلام عن تلك البقاع ، فإبعاد الإسلام معناه دخول نفوذ إسرائيل وقوة الإسلام معناه هزيمة إسرائيل .

وهذا يسلمنا إلى حقيقة هامة هي حسن اختيار المبعوثين الذين يقومون بتأدية هذه الرسالة ، فيلزم أن نتذكر أننا نقدم الإسلام لغير المسلمين أي أن مبعوثينا لن يذهبوا ليعلموا الفقه والتفسير وأصول الفقه ، وإنما سيذهبون للتبشير بالإسلام ، وسيقفون وجها لوجه أمام أساتذة من الرهبان المتخصصين في دراسة اللاهوت والذين لهم اطلاع واسع على جميع الأديان ومعرفة كبيرة بالدين الإسلامي ، ولن يقف هؤلاء صامتين أمام دعوة الإسلام ودعاة الإسلام وإنما سيبذلون كل الجهد للتغلب على الدعاة المسلمين ، فيجب أن يكون دعاتنا على معرفة واسعة بالفكر الإسلامي وبالديانة المسيحية كما علمها عيسى عليه السلام ، وكما تعلمها الكنائس الآن بعد أن أحدث بها بولس انقلاباً عظيماً في معتقداتها وشعائرها . هذا بالإضافة إلى إجادة لغة أجنبية على الأقل لتكون وسيلة تقديم الدعوة للناس .

الكتب المقدسة لدى البوذية

يجدر بنا عند الكلام عن الكتب البوذية المقدسة أن نقرر أن البوذيين لا يدَّعون أنها منزلة وإنما ينسبونها إلى بوذا ، وهي عندهم بمثابة كتب الحديث عند المسلمين ، وقد حفظ أتباع بوذا عنه أحاديثه وخطبه وأمثاله . ولكن بعد

وفاة بوذا ظهر الخلاف بين أتباعه كما ظهر الاختلاق لبعض الأحاديث ونسبتها للرسول ﷺ ، فعقد أتباعه مجلساً كبيراً فى «راجاجرها» سنة ٤٨٣ ق . م ليزيلوا أسباب الخلاف وليقربوا أو يوحدوا الأتباع عن طريق تحديد ما قاله بوذا وأتباعه ، ولما احتشد القوم سألوا «كاسى أبا» Kasyapa أعلم مريدى بوذا أن يقرأ عليهم آراء المبارك عما وراء الطبيعة فقرأها عليهم فتلقوها ورووها عنه ، وسألوا «أوبالى» Upali وكان من أسَنّ المريدين الأحياء أن يتلو عليهم شريعة «النظام» فقرأها عليهم فتلقوها عنه ، ثم سألوا «آنندا» Ananda أحب المريدين عند بوذا أن يلقى عليهم ما سمعه من بوذا من حكايات وأمثال ومواعظ ففعل وتلقوها ورووها عنه [1] .

وظلت هذه الروايات محفوظة في الصدور يتلقاها جيل عن جيل حتى عهد الملك آسوكا (٢٤٢ق . م) . وفى ذلك الحين كان قد ظهر فيها شيء من التحريف والاختلاق فى الرواية ، فخاف الزعماء والشيوخ على ضياع هذا التراث فاجتمعوا واستقر رأيهم على كتابة هذه المجموعات الثلاثة فكتبوها ، ويظهر أنهم وضعوا كل مجموعة في سلة خاصة ليعلقوها بعيدة عن الضرر ومبالغةً فى تقديسها ولذلك سميت هذه المجموعات بالسلال الثلاث أو البيتكات (Pitakas) ، وتحوى السلة الأولى العقائد ولذلك سميت سلة العقائد أو (Abhi Dhamma Pitakas) . وتحوى السلة الثانية الشريعة ، ولذلك سميت سلة الشريعة أو (Vinaya Pitakas) . وتحوى السلة الثالثة الحكايات ولذلك سميت سلة الحكايات (Sutta Pitakas) . وهذه السلال الثلاث يقال لها القانون البالي . وهى تشمل البوذية القديمة بدون تحريف أو بتحريف قليل ، وهى لهذا أهم الكتب المقدسة البوذية [2] . وسميت هذه

(١) On the Buddhist Councils the reader is advised of see Buddha's Philosophy by G. F. Allen p. 28 .

(٢) Berry : Religions of the World p. 45 - 46 .

الروايات بالقانون البالى نسبة إلى اللغة البالية (Pali) التى دونت بهـا هذه الروايات .

دراسات مقارنة بين أديان الهند

قلنا فيما سبق إن أديان الهند تسير فى فلك واحد ، وإن الهندوسية هى الدين الأم ، وتتشعب منها الأديان الأخرى ، ثم تعود إليها غالباً فى صورة أو أخرى ، وهكذا تلتقى أديان الهند فى الاعتقاد بالكارما وإن اختلفت هذه الأديان فى تفسيرها ، وتلتقى تبعاً لذلك فى القول بالتناسخ ، وفى محاولة التخلص من تكرار المولد بقتل الرغبات والحرمان .

وأديان الهند تتجه للتشاؤم ، وتسعى كلها إلى الانطلاق أو النجاة أو النرفانا وليست مدلولات هذه بعيدة الاختلاف .

ويصف Wells [1] الارتباط بين أفكار بوذا وبين سواها من الأفكار الهندية بقوله : إن جوتاما لم يكن له أى علم ولا بصيرة بالتاريخ ، ولم يكن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة الكثيرة الجوانب فى انطلاقها فى أرجاء الزمان والفضاء ، كان ذهنه محصوراً فى دائرة فكرات عصره وقومه ، وقد جمدت عقولهم حول فكرات التكرار الدائم المتواصل .

وأبرز ألوان الخلاف بين أديان الهند يتضح فى مسألة الطبقات ، فقد قررتها الهندوسية ووضعت حدوداً حاسمة تفصل كلا منها عن الأخرى ، ولم تقل بها الجينية ولا البوذية ، ولكن أياً منهما لم تستطع أن تتخلص من النظام الطبقى فى الحياة العملية .

ومن أوجه الخلاف كذلك مسألة الألوهية ، ففى الهندوسية مجموعة كبيرة من الآلهة ، وأنكرت الجينية الإله ، ورفضت البوذية الحديث عنه ،

---

(١) The Outline of History p. 492.

ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها ، فسرعان ما ألّه الجينيون مهاويرا والبوذيون بوذا ، واختلطت التماثيل والآلهة ، إذ وجد الجينيون أن التدليل على عدم الإله أصعب من التدليل على وجوده . ومما يتصل بالإله ما تقوله الجينية من عدم الاعتراف بوحدة الوجود ، ومن أنها ترى أن كل روح وحدة مستقلة خالدة ، وليس مصيرها أن تندمج فى روح عام ، بل ستبقى مستقلة خالدة ، وهى بذلك تخالف الهندوسية .

ولا تعترف البوذية بسلطان الكهنة ، ولا بقانون الويدا ، وتختلف البوذية عن الجينية فى أن الأولى تسى لإنقاذ المجموع ، والثانية لإنقاذ الفرد [1] .

ومن الواضح أن أديان الهند - فيما يتعلق بالإله وعلاقته بالكون والإنسان - تختلف عن الأديان السماوية ، فهذه ترى أن الكون والبشر وكل شئ مخلوق لله ، وهناك حد فاصل بين الخالق والمخلوق ، فليس الإنسان جزءاً من الله وليس الكون جزءاً من الله ، وهناك حد فاصل كذلك بين الإنسان والإنسان .

أديان الهند فى الميزان

أسطورة الكارما :

الكارما أو قانون الجزاء وما يترتب عليه من تناسخ للأرواح أو تكرار للمولد ، أهم المبادئ التى تعد محوراً للفكر الهندى ، ولا يكاد العقل يقبل مثل هذه الأسطورة ، وقد سبق أن أوردنا تردد بوذا فى الخوض فيها ، وقوله فى ذلك : هل تكلم ميت قط ؟

والعقل يقر أنه لابد من جزاء لما يرتكبه الإنسان من أخطاء ، ولكن الإسلام اتخذ طريقاً رائعاً حيال هذا الموضوع ، فجعل الجزاء يتم أحياناً فى

(١) Berry : Religions of the World p. 43 .

الدنيا وأحياناً فى الآخرة . وكان القرآن الكريم مرشداً للمسلمين إلى هذا الفكر قال تعالى :

- ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ .

- ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ .

- ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ﴾ .

- ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

ولكن الفكر الهندى اتجه اتجاهاً خاصاً لا يمكن التدليل عليه ولا فهمه ، وبخاصة بعد أن اضطر الفكر الهندى إلى تقرير أن الروح فى الحياة الجديدة مقطوعة تماماً عنها فى حيواتها السابقة فلا تعرف عنها شيئاً ، ومعنى هذا أن الروح تنعم أو تشقى دون أن تعرف أسباب النعيم أو الشقاء .

خرافة القول بالتناسخ :

ومما يؤخذ على الكهانة - سواء فى ذلك كهانة الوثنيين أو أهل الكتاب الذين سارت بهم تقاليد الجمود إلى حالة كحالة الوثنية ، فى تعليم الصور والتماثيل ، والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العباد - أنها تجعل المتدين قطعة من المعبد ، لا تتم على انفرادها ، ولا تتم لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه (١) ، والتناسخ يخلق وضعاً أعمق من ذلك فى عدم الاعتراف باستقلال الشخصية ما دام الإنسان حلقة من سلسلة مر بحلقاتها الكائن الحى .

ونرى أن التناسخ يعارض بوضوح نظام الطبقات الدقيق الذى تقول به الهندوسية ، فنظام الطبقات يحافظ على العرق والدم ، والتناسخ ينقل

(١) الأستاذ العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠ .

الروح من طبقة إلى طبقة ، بل من إنسان إلى حيوان أحياناً . ولذلك اضطر بعضهم إلى القول بأن التناسخ يتم فى حدود الصفة التى عليها الإنسان ، فأرواح البراهمة تنقل إلى البراهمة وأرواح العبيد تنقل إلى عبيد وهكذا ، ولكن ذلك يُفْقد التناسخ قيمته ، فالمقصود من التناسخ هو تحقيق الجزاء نظير خير أو شر ارتكبته الروح فى الحياة السابقة ولا يتم ذلك ما دام العبد سيبقى عبداً والسيد سيبقى سيداً .

والتناسخ يعارض كل الدراسات العلمية وعلم الأجناس حيث تُقرِّر أن الولد بعض أبويه واستمرار لهما ، إنه يماثلهما جسماً ويماثلهما روحاً ومواهب ، فهو يرث عن ذويه لون الجسم والعيون والشعر ، ويرث القامة والصحة والمرض . ويرث المواهب والأخلاق غالباً . ولذلك فالتناسخ شذوذ عن الفكر العلمى والطبيعى .

وإذا كان التناسخ للجزاء فماذا يقول الفكر الهندى عن الطفل الذى يموت عقب الولادة ؟ إن الروح به لم تستمتع ولم تعاقب . فليست ولادته إذاً وبعث روح شخص آخر به إلا عبثاً .

والتناسخ لا يفسر لنا الزيادة المطردة فى التعداد ، والهبوط الواسع أحياناً فى أثناء الحروب ، من أين تجئ الأرواح الجديدة ؟ وإلى أين تذهب أرواح القتلى فى الحروب حيث يكون المواليد أقل من الموتى .

والقول بالتناسخ تفكيك للأسرة وتصوير لها على أنها أشتات من الناس لا روابط بينها ، فكل فرد من أفرادها منحدر من فرد لا نعرفه ، وعلى ما فى هذا من الارتباك الاجتماعى ، فهو أيضاً يخالف الملاحظ غالباً من تقارب حظوظ أفراد الأسرة الواحدة مما يدل على صلاتها الأسرية لا على أنها أشتات كما يرى مبدأ التناسخ .

اضطراب الفكر الهندى فيما يتعلق بالإله :

وفيما يتعلق بالإله نجد الفكر الهندى يتراوح بين التعدد وبين الإنكار أو الإهمال . والعجيب أن موقف الجينيين والبوذيين من الاعتراف بالإله كان رد فعل لسوء تصرف طبقة من البراهمة واستبدادهم فخاف الجينيون والبوذيون أن تكون عندهم طبقة لاهوتية كالبراهمة إن قالوا بالإله ، فأنكروه أو أهملوا الكلام عنه لهذا الغرض . وذلك موقف لا يُرْتضى . وقد ترتب على إنكارهم للإله أو إهمالهم الكلام عنه ـ كما سبق القول . أن ألّه الجينيون مهاويرا وألّه البوذيون بوذا . وامتلأت معابدهم بالآلهة .

وانحدر الفكر الهندي إلى عبادة الأوثان [1] ويعتبر علماء الأديان أن الوثنية نتيجة حتمية لإنكار الإله ، فكل دين ينبنى على إنكار الإله ينتهى بالفشل ، وسبب ذلك أن الناس مفطورون على الإيمان بالآلهة ، وهم دائماً يفكرون فيمن خلق السموات والأرض ومن يحيى ويميت ، فإذا خلت عقيدة من الإله بادر أتباعها فابتكروا الإله على النحو الذى يتفق مع ثقافتهم ومستواهم العقلى والعلمى .

انكار العبادات :

واستتبع إنكار الإله إنكار العبادات . فإذا لم يكن هناك إله ، فلمن تكون العبادة والتضرع والدعاء [2] ؟ ولكن الدعاء شئ من طبيعة الإنسان أيضاً . ولذلك نجد أتباع بوذا يقترحون ألواناً من الصلوات والأدعية حتى أولئك الذين لا يقولون بألوهية بوذا . وقد رأيت منها مظهرين فى الشرق الأقصى أحدهما أن ينقشوا بعض ألفاظ لاهوتية على عجلات يديرها الهواء

---

(١) للتدليل على وجود الله ووحدانيته وصفاته يراجع كتاب الإسلام (الجزء الثالث من مقارنة الأديان) للمؤلف ص ٥٨ ـ ٩٨ .

(٢) Berry : Religions of World p. 43 .

أو الماء ، وتدور العجلات وكلما ارتفعت الكلمات إلى أعلى ردد القوم هذه الكلمات فى تضرع وخشية . والمظهر الثانى ينتشر فى عيدهم المسمى «ويشُك Waigok» وهو يقام فى ليلة البدر التى تجئ فى شهر مايو من كل عام. ويحتفل به البوذيون بإندونيسيا فى المعبد البوذى الشهير «بروبودور» بالقرب من جوكجاكارتا . والبوذيون فى هذا العيد يحملون عيداناً من خشب رفيع يُشعلُ الكهنة أطرافها بالنار ، ويحركها البوذيون مقابل وجوههم وهم يتمتَمون بالأدعية والصلوات .

مفاسد البوذية فى رأى Wells :

وفى الحديث عن نقد البوذية نستعير من Wells عنواناً وضعه فى هذا المجال وهو «مفاسد البوذية» ومما قاله تحت هذا العنوان ما يلى [1] :

. . . وفيما عدا إصرار جوتاما على تحرِّى «الآراء الصائبة» وهو المبدأ الذى كان من السهل إغفاله ، لم يكن هناك أى تحريم فعال لممارسة الخرافات، وإنهاض الأرواح ورفعها ، والتعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل) ومن ثَم سرت فى العقيدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزيادات اطردت وتواصلت على مر الزمان ، فإن العقائد الجديدة التقطت معظم الأمراض المعيبة بالديانات الفاسدة التى حاولت أن تحل محلها ، فأخذت عنها الأصنام والمعابد والمذابح والمباخر .

أسطورة النرفانا والنجاة :

واستمراراً لنقد البوذية نقرر أو نكرر ما سبق أن أوردناه أن بوذا لم يوضح النرفانا ، وأن ما ذكره عنها يحيط به الغموض ، ثم إنه يقرر أن قليلين جداً هم الذين يبلغون النرفانا ، ومعنى هذا أن أغلبية البشر سيظلون فى ظلام وتخبط وحرمان .

The Outline of History p. 475 . (١)

الفكر الهندى والتشاؤم :

والبوذية - ككل المذاهب الهندية - ترى الحياة ظلاماً ، ونظرتُها حافلة بالتشاؤم واليأس ، فالعلم عندها كله سوء ، والرغبات شريرة ، ولا مكان للرغبات والأمانى الصالحة ، ومما ورد عن بوذا فى ذلك قوله : الكون بأجمعه ملتهب ، الكون بأجمعه محفوف بالدخان ، الكون بأجمعه تحيط به النار ، الكون بأجمعه مرتعد .

تردد البوذية فى قبول المرأة :

ويؤخذ على بوذا رفضه قبول النساء فى دينه ، ثم قبولهن بتردد وخوف ، وإشارته إلى خطرهن على النظام ، وإمكان إخراجهن منه ، وذلك كما ترى تفريق قاس بين الرجل والمرأة ، وحيلولة بين المرأة وهى الأم والزوجة والأخت والبنت وبين النور إن كانت البوذية نوراً .

موافقة الأب ضرورة لقبول الأبناء :

وكان بوذا يقبل من يريد أن يدخل «النظام» ولو بدون رأى أبويه ، ولكن والد بوذا تضرع له بأنَّ أخذ الابن من أبيه عمل يُعَدُّ غاية فى القسوة ، ورجاه ألا يقبل الأبناء إلا إذا أذن لهم آباؤهم ، وقد استجاب بوذا لرغبة أبيه وقرر ضرورة الحصول على إذن الآباء لمن أراد دخول «النظام» من الأبناء ، وأعتقد أن الفكر السليم لا يقبل هذا ، ويلزم أن تكون أبواب الأديان مفتوحة لمن يريد أن يدخلها .

الإستجداء والمهانة :

وهناك النظم العجيبة التى فرضها بوذا على من يريد أن يدخل «النظام» وهذه النظم هى أن يفرض عليه التبتل ويحظر عليه أخذ الفضة والذهب ، وعليه ألا يأكل فى اليوم إلا وجبة واحدة فى الضحى ، ويحمل فى

يده طبق الإحسان أو «الكشكول» ينتقل به من بيت إلى آخر ليجمع قوت يومه ، وتروى الروايات أن بوذا عندما قدم لزيارة والده اتخذت المدينة أهبتها لاستقباله والتفّتْ حوله الجماهير ، وتزين القصر ، ولكن بوذا فى وسط هذه المظاهر يرفع كشكوله ليجمع الصدقات ، وقد اغتاظ أبوه عندما عرف هذا ، وأرسل له يؤنبه ويذكره أنه من طبقة الكشتريا المالكة التى تكسب الثروات بالسيف والتى تمنح ولا تستجدى ، وقد أرسل بوذا لوالده من يقول له : أجل إنك من طبقة الكشتريا النبيلة ، ولكنى من طبقة أخرى ، أعرق فى المجد من سائر الطبقات ، إن ألوفاً مؤلفة من البوذيين يعيشون بالتسول وكذلك أفعل أنا .

وكذلك كانت زوجته بعد أن دخلت فى «النظام» تحمل الكشكول وتدور به لتجمع طعامها من الصدقات . وهل يمكن أن يعيش عالم على الاستجداء والصدقات ؟ وهل من الطبيعى أن نمتهن النفس هكذا ونعرضها لطلب الصدقة دون حاجة ؟ وقد عانى بوذا نفسه من ذلك شر عناء ، فطالما أهانه الناس ، وردُّوه دون عطاء . وقد دعت فكرة الاستجداء هذه بعض المفكرين إلى الاعتقاد بأن ما تعانيه البلدان التى سادها الفكر البوذى من كسل أو قلة سعى فى ميدان الحياة ، ومن ميل إلى القناعة والمسالمة ، ليس إلا نتيجة هذه العقيدة .

وأخيراً لقد امتهنت أديان الهند الجسم ، بل عذبته وحرمته الطعام والشراب والملاذ المباحة غالباً ، وعرضته الجينية للعرى وعوامل الجو القاسية ، وفكرت فيه أديان الهند على أنه جثة عفنة سريعة العطب والفناء ، وكان من الممكن أن تعتبره الهيكل الذى تعيش به الروح المقدسة .

موقفهم من الألوهية :

والباحثون الغربيون [1] يمتدحون فى البوذية أنها حررت الإنسان من الكهنوت والعقائد ووكلتهم إلى ضمائرهم ، فأطلقتهم من عقال التقاليد وشجعتهم على أن يقودوا أنفسهم دون اعتماد على قوى أخرى أو انقياد لما فوق الطبيعة . وإننا لنتساءل إلى أى مدى استطاع البوذيون أن يقودوا أنفسهم وأن يستغنوا عن الرائد والمعبود ، لقد نقلوا بوذا من معلم إلى رائد ثم إلى إله .

ويوضح Wells الفرق الكبير بين ما كانت عليه البوذية أو بين الفكرة التى دعا لها جوتاما وبين ما آلت إليه البوذية بقوله [2] .

هل بوذية اليوم هى بوذية جوتاما؟

والتبت اليوم قطر بوذى ، مع ذلك فلو أن جوتاما بعث من قبره حياً وذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثاً عن تعاليمه ما وجدها ، وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر ، وهو الملك الرب متوَّجاً وممثلاً فى شخص الدالاى لاما (Dalai Lama) الذى هو البوذا الحى ، وسيجد فى لهاسا (Lhasa) معبداً فخماً غاصاً بالكهنة والرهبان واللامات ، وهو (أى جوتاما) الذى لم تكن مبانيه إلا الخصائص ، والذى لم يكن له أى كهنة ، وإنه ليشْهد فوق هيكل مرتفع صنماً ذهبياً ضخماً يحمل اسم (جوتاما بوذا) وإنه ليسمع صلوات تُرتَّل أمام ذلك الرب ، وتلعب الأجراس والبخور دورها فى هذه المراسم المدهشة .

---

(١) انظر : . Rerry : Religions of the World p. 43

(٢) . The Outline of History p. 292 - 493

التعصب الآرى :

ويدرك العلامة الأستاذ العقاد تحمس الباحثين الغربيين للبوذية فيذكر علته ويفنده بقوله [1] :

وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية ، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلي الآرية ، على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين ، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء ، وزعموا أنها «جرأة العقل الكبرى» فى مواجهة المشكلة الكونية ، وأنها الخطوة المقتحمة التى لم يذهب وراءها ذو عقيدة فى مطاوح التأمل والإقدام . لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف ، فما هى إلا جرأة حسية فى أقسى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين ، وما البوذية كلها إلا تململا من وطأة الحس والجسد ، وما سعادتها القصوى إلا ضيقاً بالحس وهرباً منه إلى الفناء أو اللاوعى على أحسن تقدير .

فالبوذية فتح فى ميدان التصوف أو ميدان «الوجدانيات» والفضائل الخلقية ، ولكنها ليست بالفتح الجرئ فى معراج الوصول إلى الكمال ، كمال الإله .

ويصور الأستاذ العقاد العلاقة بين البرهمية والبوذية أجمل تصوير فى قوله :

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية فى كل عقيدة من عقائد الأصول ، وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان ، فأخرجتها من حجابها المكنون ، فى المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين [2] .

---

(١) الله ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٢) الله ص ٨٠ .

أما مكان البوذية في العقائد فيصوره هذا الباحث بقوله :

ولا تعتبر البوذية إضافة في صميم العقائد الدينية ، بل إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة ، وإضافة في عرض الآراء على يد غير المستأثرين بها قديماً من سدنة الهيكل والمحراب [1] .

وقبل أن ندع البوذية يجدر بنا أن تثبت ميزة كبيرة تنسب لها ، تلك هي التسامح ، فقد كانت البوذية تصل في التسامح إلى حد كبير ، وكان بوذا يحذر أتباعه من التعصب المذهبي ، ويقرر لهم أن التعصب يُعْمي عن الحق ، وقد أرسل له مهاويرا مرة مريداً من مريديه ليناظره في موضوع الكارما إذ كان لمهاويرا رأى في الكارما يخالف رأى بوذا ، وجرت المناظرة فاقتنع مريد مهاويرا برأى بوذا ، وطلب أن ينضم إليه ، ولكن بوذا نصحه بأن يتريث ويفكر في الأمر ، وعاد المريد يذكر أنه فكر وأنه عزم رأيه في رغبته في اتباع بوذا ، ولكن بوذا طلب إليه أن يعود للتفكير والتدبر ، وفي المرة الثالثة نصح بوذا المريد أن يستمر على تبعيته لأستاذه القديم ، وصور له كم سيكون صعباً عليه أن يَعْلم بهذا التحول وبخاصة في هذه المناسبة [2] ، ويربط البوذية بين تسامح الملك آسوكا وبين دخوله البوذية ، ويرون أن الانقلاب في حياته من حب للقهر إلى ميل للسلام كان من نتائج دخوله البوذية [3] .

البوذية مصدر مهم من مصادر المسيحية

ذكرنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عن المسيحية الحالية أنها اقتبست كثيراً من عناصرها المهمة من مصادر بوذية ، وقد كتب Thomas Edward كتاباً عن هذا الموضوع [4] أورد فيه المؤلف مقارنة دقيقة تبين تأثير البوذية في

---

(١) المرجع السابق .
(٢) Buddhism Ed. Richard Card pp. 6 - 7 .
(٣) المرجع السابق .
(٤) The Life of Buddha as Legend and History .

المسيحية ، وأورد للتدليل على ذلك نصوصاً من الكتب البوذية المقدسة ونصوصاً أخرى من الأناجيل ، وبيّن كيف انتقلت الأفكار من البوذية إلى المسيحية ؛ بل أوضح المؤلف أن طريقة الصياغة أيضاً تكان تكون واحدة وهذا يجعل دراسة البوذية مهمة فى تاريخ مقارنة الأديان .

وقد اقتبسنا من هذا الكتاب كثيراً من الأفكار التى نقلت من البوذية للمسيحية ، ويمكن للقارئ أن يجدها فى كتابنا «المسيحية» وهو الجزء الثانى من سلسلة «مقارنة الأديان» .



قضيـة الألوهيـة

«نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان»

مقدمة :

طرق البحث فى مقارنة الأديان

دراسة مقارنة الأديان لها طريقان :

١ـ الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هى عناوين الدراسات ؛ كأن نكتب كتاباً عن «الله» ، وندرس به مختلف الاتجاهات عن الإله ، ونكتب كتاباً آخر عن «النبوة» وثالثاً عن «الكتب المقدسة» . . . وهكذا . . . وقد سار على هذا المنوال بعض الباحثين مثل Max Mueller فى كتابه Essy on Comparative Mythology ومثل الأستاذ العقاد فى كتابه «الله» .

ولكن يؤخذ على هذه الطريقة بعض مآخذ أهمها :

أولاً : أن مباحث الأديان ليست متشابهة ، فمثلاً :

ـ تاريخ اليهودية له أثر كبير فى عقيدتهم ، ومن ثمَّ وجب أن يكون مبحثاً مهماً عند دراسة «اليهودية» ولكن التاريخ الإسلامى ليس ذا أثر فى العقيدة الإسلامية ، ومن ثمَّ فليس ضرورياً أن يكون ضمن مباحث كتاب عن «الإسلام» .

ـ لم يتكلم بوذا على الإله ، ولكن محمداً تكلم عنه وأفاض .

ـ فى البوذية موضوع النرفانا ، وفى الجينية موضوع النجاة ، وليس فى الأديان السماوية ما يماثل هذه المباحث .

ـ فى أديان الهند موضوع التناسخ ، وليست كذلك الأديان السماوية .

ـ يهتم الإسلام بالتشريع ، ولا تهتم المسيحية به .

وإذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة ، وكانت المباحث التى

توجد فى دين واحد من الأديان قلقة الموضوع فى هذه الدراسة ، إذ لا توجد مقارنة بين الأديان عنها .

ثانياً : دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطى فكرة متكاملة عن كل دين ، إذ سترِدُ مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك .

على أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو ينبغى أن تجىء بعد دراسة الأديان نفسها ، فإن طبيعة المقارنة يجب أن تجىء بعد استيعاب الأصل ؛ ففى الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى الفقه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينها ، وفى مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثها .

ويمكن القول إنه ـ بسبب هذه المآخذ ـ لم يسر أحد إلى آخر الشوط فى دراسة مقارنة الأديان متبعاً هذا الطريق .

٢ـ الطريق الثانى : هو أن يُخَصَّص كتاب لكل دين ، تُدْرُس فيه مباحثه العقائدية والتشريعية المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال ، وهذا الطريق هو الذى يسير عليه أغلب الكتَّاب ، وهو ما اتبعتُه فى «سلسلة مقارنة الأديان» وبه نتحاشى المآخذ التى سبق أن أوردناها على الطريق الأول .

ونحن بعد أن استكملنا دراستنا طبقاً للطريق الثانى نجدنا فى وَضْع يجعل من اليسير علينا أن نقتبس بعض ما كتبناه عن مبحث من أهم مباحث الأديان وهو «قضية الألوهية» ونضع ما اقتبسناه بعضه بجانب بعض حتى تتكوَّن لنا صورة واضحة للاتجاهات حول هذه القضية التى هى أساس الأديان ، وبهذا نكون قد عرضنا الطريقين معاً فى هذه القضية كنموذج لدراسة القضايا الدينية الأخرى دراسة مقارنة ، وقد خصصنا «قضية الألوهية» بهذه الدراسة لأنها قمة المشكلات الدينية ، وعلى هَدْى دراستنا

فيها يمكن للقارئ أن يكوِّن فكرة عن المقارنة بين كثير من قضايا الأديان التى احتوتها هذه السلسلة .

ونقطة أخرى يتحتم عرضها فى هذه المقدمة ، هى أننا فى دراستنا لمقارنة الأديان اهتممنا بالأديان السماوية لأن صراعاً عنيفاً يدور بينها ، وكان من الطبيعى أن يكون بينها وئام ، فأردنا أن نتعرف على ألوان الانحرافات التى وَضَعتْ الشقاق مكان الوفاق ، والكراهية مكان الحب ، أما اهتمامنا بأديان الهند فيرجع لسببين :

أولهما : أن أديان الهند كانت معيناً تسربت منه ألوان من الأفكار فوجدت طريقها بين معتقدات المسحيين والمسلمين ، فالشعار المسيحى «تثليث فى وحدة ووحدة فى تثليث» منحدر من الهندوسية ، وكانت البوذية أهم مصدر اقتبست منه المسيحية كثيراً من مبادئها كما ذكرنا آنفاً ، وقال بعض المسلمين بالتناسخ ووحدة الوجود تأثراً بثقافة الهند .

والسبب الثانى : أن البوذية تعتبر من أديان الدعوة ، أى من الأديان التى لها دعاة ينشرونها ويحاولون جذب الأتباع لها ، ومن هنا تدخل البوذية فى صراع مع الإسلام فى منطقة الشرق الأقصى ، ولابدَّ من التعرف على عناصر هذا الصراع ليمكن تقدير نتائجه .

وفى ترتيب الأديان التى درسناها فى هذه السلسلة ابتدأنا بالأديان السماوية بترتيبها التاريخى ، لأنها الأصل فى هذه الدراسة ، ثم درسنا أديان الهند فى الجزء الرابع ، ولكنا فى عرضنا لقضية الألوهية سنبدأ بأديان الهند ، لأن منها تسربت بعض الأفكار ـ كما قلنا ـ لمعتقدات المسيحيين وقلة من المسلمين .

وفى ضوء هذا التقديم نبدأ عرض قضية الألوهية :

الله فى الفكر الهندوسى :

يتجه الفكر الهندوسى فيما يختص بالإله إلى نزعة التعدد غالباً ، وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغاً كبيراً ، فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعبدونه ويستنصرون به فى الشدائد كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها ، وكانوا يدْعون تلك الآلهة لتبارك لهم فى ذريتهم وأموالهم من المواشى والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم .

ويقول غوستاف لوبون : وهيهات أن تجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الآلهة ، فالعالم عنده زاخر بها حتى أنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه ، وللجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربى ، وللأوربى نفسه عند الاقتضاء [1] .

ولكن بعض الهنود فى وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحياناً للتوحيد أو اتجاه قريب منه ، فقد كانوا إذا دَعَوْا إلهاً من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان ، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجلُ ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والأرباب [2] ، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير ، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية ، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة ، تعظيماً وإجلالاً لا تحقيقاً وإيقاناً ، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموا مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة ، فهذا التعبير «رب الأرباب أو إله الآلهة» كان أولاً يدل على العظمة والجلال ، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى ، أى أنهم اعتقدوا فعلاً أن فى صف الآلهة رئيساً ومرءوسين وآمراً ومأمورين ، وأن الرئيس والآمر هو

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٦٨ .

(٢) Hinduism, Ed. by Lowis Renou p. 6 .

وحده رب الأرباب وإله الآلهة ، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل إلى سواه والكائنات كلها تحت يده وسائر الآلهة تحت أمره [١] .

التثليث فى الفكر الهندى :

وحوالى القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى رأى تشبهه عقيدة التثليث الحالية عند المسيحيين ، فقد جمعوا الآلهة فى إله واحد، وقالوا : إنه هو الذى أخرج العالم من ذاته ، وهو الذى يحفظه إلى أن يهلكه ويرده إليه ، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء ، فهو براهما من حيث هو مُوجد ، وهو فشنو من حيث هو حافظ ، وهو سيفا من حيث هو مهلك [٢] وفتحَ الكهنة الهنودُ البابَ للمسيحيين فيما يسمى : تثليث فى وحدة ووحدة فى تثليث .

عبادة البقر :

ومن بين المعبودات المتعددة عند الهنود حظيت البقرة بأسمى مكانة ، وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالى القرون ، ففى الويدا حديث عن قداستها والصلاة لها ، ولا تزال البقرة حتى الآن تستمتع بهذه القدسية ، ففى الأدب المنسوب للمهاتما غاندى تفسير لما حظيت به البقرة قديماً وحديثاً من نفوذ دينى ، وفى عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة Bhavan's Journal التى تصدر فى بومباى بالهند عدة مقالات عن عبادة البقرة ، وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات وأول ما نقتبسه نشيد من «ساما ويدا» [٣] نشرته المجلة فى صفحة مستقلة ، داخل رسم تخطيطى للبقرة [٤] والترجمة العربية للنشيد هى :

---

(١) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة .

(٢) دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ص ١٢ .

(٣) قسم من أقسام الويدا وهو كتاب الهندوس المقدس .

(٤) انظره بهذا الكتاب ص٣٠ .

صلاة إلى البقرة :

أيتها البقرة المقدسة ، لك التمجيد والدعاء ، فى كل مظهر تظهرين به ؛ أنثى تدرين اللبن فى الفجر وعند الغسق ، أو عجلاً صغيراً ، أو ثوراً كبيراً ، فلنُعدَّ لك مكاناً واسعاً نظيفاً يليق بك ، وماء نقياً تشربينه ، لعلك تنعمين هنا بالسعادة .

أما رأى مهاتما غاندى فى عبادة البقرة فقد أثبته مفصلاً فى المجلة السابقة واقتبسناه فى كتابنا هذا عن «أديان الهند الكبرى» (1) . وفيما يلى لمحات منـه :

عندما أرى بقرة لا أعدنى أرى حيواناً ، لأنى أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع . . . وإن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال ، وأنا أعُدُّ نفسي واحداً من هؤلاء الملايين .

الله فى الفكر الجينى :

كانت الجينية نوعاً من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة ، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة ، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يعدون أنفسهم صلة بين الناس والآلهة ، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون ، ومن هنا سمى هذا الدين دين إلحاد .

غير أن العقل البشرى يميل إلى الاعتراف بإله ، ويحتاج الإلحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التى يحتاجها إثبات الآلهة ، ومن هنا وُجد فراغ كبير فى الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يُكمل به صورة الدين الذى دعا إليه ، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلهاً ، بل عدوا الجيناوات الأربعة

---

(1) ص ٣٦ .

والعشرين آلهة ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندى الذى يميل فى الأكثر إلى تعدد الآلهة .

الله فى الفكر البوذى :

لم يُعْنَ بوذا بالحديث عن الإله ، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتاً أو إنكاراً ، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية ، وما وراء الطبيعة ، وما يتحدث عن القضايا الدقيقة فى الكون ، وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا فى هذه الأبحاث ويوبخهم على سؤالهم عن مثل هذه القضايا .

ولكن بوذا اتجه أحياناً إلى جانب الإنكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الإثبات فقد وقف فى إحدى خطبه يسخر ممن يقولون بوجود الإله ، وكان مما قاله فى ذلك : إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله ، ولم يروه وجهاً لوجه ، كالعاشق الذى يذوب كمداً وهو لا يعرف من هى حبيبته ، أو كالذى يبنى السلم وهو لا يدرى أين يوجد القصر ، أو كالذى يريد أن يعبر نهراً فينادى الشاطئ الآخر ليقدم له [1] .

ومَن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحياناً اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الإلحاد .

والإيمان بإله ، اتجاه نفسى قوى لا يقل عن قوة الغرائز فى البشر ، وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكاً واضطراباً ، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون فى الإله ، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه ، ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خالياً ؛ فقد لعبت بهم الأهواء فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس إنساناً محضاً ، بل إن روح الله حلت به ، وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التى يعتنقها بعض المسيحيين فى السيد المسيح ،

---

(١) العلامة رادها كرشنن (انظر أديان الهند ص ١٧٢) .

فيقولون إن شخصيته ثنائية : لاهوتية وناسوتية ، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالناسوت ، وتسربت هذه العقيدة أيضاً إلى «مدعى التشيع» فقالوا بها فيما يتعلق بعلى بن أبى طالب ، وعاقبهم رضى الله عنه بما يستحقون ، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتى هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور [1] . وقد تسربت هذه العقيدة كذلك لبعض الطوائف المسيحية .

الله عند اليهود :

لم يستطع بنو إسرائيل فى أية فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذى دعا له الأنبياء ، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحاً فى جميع مراحل تاريخهم ، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم ، وتعد كثرة أنبيائهم دليلاً على تجدد الشرك فيهم ، وبالتالى تجدد الحاجة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد ، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أى حال فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح ، والأحجار ، وأحياناً مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التى كانت لها حضارة وفكر قلدهما اليهود . ويقول J. Shotwell : إن اليهود كانوا فى مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحّلا تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين ، والاعتقاد فى الأرواح ، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا فى بيوتهم أصناماً صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان إلى مكان [2] ، وقد ظل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر .

---

(١) حامد عبد القادر : بوذا الأكبر ص ٦٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ .

(٢) History of Religions p. 178 .

ولكن بنى إسرائيل كما يقول ول ديورانت [1] لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبى لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية فى ذاكرتهم منذ كانوا فى مصر ، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوى آكل العشب رمزاً لإلههم ، وتقرر التوراة قصة العجل الذى عمله لهم هارون فعبدوه بعد أن تأخر موسى فى العودة إليهم ، وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب ، وقد أعدم موسى ثلاث آلاف منهم عقاباً لهم على عبادة هذا الوثن [2] ، وقد بقيت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل من حين إلى حين ، فقد عمل يربعام بن سليمان عجلى ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل [3] ، وقد عَبَد أهاب ملك بنى إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد [4] .

وهكذا كان اتجاه اليهود مادياً فى الغالب ولم تجدْ الاتجاهات الروحية عندهم أرضاً خصبة فى أكثر الأوقات ، وقد عبَّرتَ ياثيل ديان ابنة القائد العسكرى موشى ديان عن ذلك بقولها على لسان أحد أبطال روايتها «طوبى للخائفين» ما يلى :

أيام زمان حين كنا يهودا فى روسيا وَغيرها كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات ، ونحافظ على ديننا ، فقد كان الدين اليهودى لنا وسيلتنا لنتعاون ونتعاطف ونَزود عنا الردى ، أما الآن فقد أصبح لدينا شىء أهم ، هو الأرض ، أنت الآن إسرائيلى ، ولست مجرد يهودى . إنى قد تركت فى روسيا كل شىء ملابسى ومَتاعى وآقاربى وإلهى ، وَعثرت هنا على رب جديد . هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزَهر البرتقال [5] .

---

(١) قصة الحضارة جـ٢ ص ٣٣٨ .

(٢) خروج ٣٢ : ١٨ ـ ٢٨ والقرآن الكريم يقرر أن السامرى هو الذى صنع العجل .

(٣) الملوك الأول ١٢ : ٢٦ـ٢٨ .

(٤) وول ديوارنت جـ ٢ ص ٣٣ .

(٥) ياثيل ديان : طوبى للخائفين «انظر القصة كاملة بكتاب اليهودية ص ١٧٦ ، ١٧٧» .

الله فى التفكير المسيحى :

عندما نصل إلى الحديث عن الله فى التفكير المسيحى نحتاج إلى مزيد من الصبر لنرى التحول الخطير الذى أصاب الفكر المسيحى فى هذه القضية الهامة :

تقرر الأناجيل المسيحية وأعمال الرسل ثلاثة قضايا مهمة :

أولاها : أن الله واحد لا شريك له .

والثانية : أن عيسى رسول الله وليس أكثر من رسول .

والثالثة : أن عيسى رسول لبنى إسرائيل فقط .

وعن القضية الأولى نورد النصوص التالية من هذه الأناجيل :

- يروى متى عن عيسى قوله : « إن أباكم واحد الذى فى السموات » [إصحاح ٢٣ الفقرة ٨] .

- ويروى مرقص قول عيسى : « الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه » [١٢ : ٣٠ ، ٣١] .

- ويروى يوحنا عن عيسى قوله : « إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » [٣٠ : ١٨] .

وعن القضية الثانية نورد من الأناجيل النصوص التالية :

- جاء فى إنجيل متى قوله : « هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل» [٢١ : ١١]

- وجاء فى لوقا : « قد خرج فينا نبى عظيم » [٧ : ١٩]

- ويروى يوحنا : « إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم » [٦ : ١٤ و ٧: ٤٠]

ـ ويروى يوحنا كذلك عن عيسى قوله : «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله »   [٨ : ٤٠] .

ـ ويروى لوقا عن عيسى قوله عندما أحَسَّ بقرب نهايته بسبب مؤامرات اليهود عليه .

وينبغى أن أسير اليوم وغداً وما يليه ، لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين .

وعن القضية الثالثة نورد النصوص التالية :

ـ جاء في متَّى ما نصه : ثم خرج يسوع من هنالك ، وانصرف إلى نواحي صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة : ارحمني يا سيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة   [متى ١٥ : ٢١ـ٢٤]

ـ وفى متى كذلك أن عيسى عندما حدَّد الحواريين الاثنى عشر أوصاهم قائلاً : إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة   [متى ١٠ : ٥ ، ٦]

وقد خاصم اليهود بطرس لأنه دخل على غير اليهود وتكلم معهم [أعمال الرسل ١١ الفقرة الأولى] .

وورد فى عبارات بطرس قوله لغير اليهود : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى إليه

[أعمال الرسل ١٠ : ٢٨]

والقرآن الكريم يقرر هذه الاتجاهات الثلاثة فى المسيحية ، قال تعالى :

- ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾

[سورة المائدة الآية ٧٢]

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

[سورة المائدة الآية ٧٣]

- ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾

[سورة المائدة آية ٧٥]

- ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة المائدة آية ١١٧]

- ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

[سورة آل عمران الآيتان ٤٨ ، ٤٩]

ومن أجل هذا كان نقل المسيحية من الوحدانية إلى التثليث ، ونقل عيسى من رسول إلى إله ، والقول بأن المسيحية رسالة عامة ، والقول بأن عيسى هو ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر ، وأنه عاد مرة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه ، كان هذا كله عملاً جديداً على المسيحية التي جاء بها عيسى . كيف انتقلت المسيحية من حال إلى حال؟ ومن الذى قام بذلك؟ ومتى؟

هذا ما سنحاول إبرازه فيما يلى :

ترتبط هذه الأمور بشخصية مهمة فى المسيحية ، هى شخصية شاءول (بولس) ، ولذلك يرى الباحثون الغربيون أن المسيحية الحالية بهذه العناصر الجديدة هى من صنع هذا الرجل ، ويقول Berry [1] : إن بولس هو فى

---

(١) انظر : رأى Rerry فى كتاب «المسيحية» ص ٦٩ وما بعدها وبخاصة ص ٧٣ .

الحقيقة مؤسس المسيحية ، ويقول Wells [1] إن كثيراً من الثقات العصريين يعدونه المؤسس الحقيقي للمسيحية .

وبولس هو كما يقول عن نفسه «يهودى فريسى ابن فريسى على رجاء قيامة الأموات» [أعمال الرسل ٢٣ : ٦] وكان عدواً للمسيحيين ، وفى ذلك يقول : « سمعتم بسيرتى قبلا فى الديانة اليهودية ، إنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها ، وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثيرين من أترابى فى جنسى ، إذ كنت أوفَرَ غَيْرَةً في تقليدات آبائى» [غلاطية ١ : ٢٣-١٤] .

ويبدو أنه كان من وسائل بولس لتدمير المسيحية أن يحطم معتقداتها واتجاهاتها المقدسة ، ووضع لذلك طريقة تكفل له الوقوف في وجه معارضيه عندما يظهر بأفكاره الجديدة ، فادعى شاءول أن السيد المسيح - بعد نهايته على الأرض - ظهر له وصاح فيه وهو فى طريقه إلى دمشق قائلاً : لماذا تضطهدنى؟ فخاف شاءول وصرخ : من أنت يا سيد؟ قال : أنا يسوع الذى تضطهده . قال شاءول : ماذا تريد أن أفعل ؟ قال يسوع : قم وكرز بالمسيحية .

ويقول لوقا فى ختام هذه القصة جملةً ذات بال غيرت وجه التاريخ هى : «وللوقت جعل يكرز فى المجامع بالمسيح أنه ابن الله» [اعمال ٩ : ٣-٢٠] . ومن الملاحظ أن جملة «أنه ابن الله» هى من صنع بولس ، ولم ترد على لسان المسيح فى اللقاء المزعوم .

وهكذا وضع بولس لنفسه سياجاً يحتمى به لأنه كان يدرك أن معارضة قوية ستهب فى وجهه وتنكر هذه المعتقدات الجديدة التى جاء بها ، وهى القول بتعدد الآلهة وأن عيسى ابن الله نزل ليضحى بنفسه للتفكير عن خطيئة

(١) Outline of History vol. 3 p. 695 .

البشر ، وأنه عاد مرة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه ، فأعلن أنه تلقى المعتقدات الجديدة من عيسى مباشرة ، وأنه الوحيد الذى أؤتمن عليها وفى ذلك يقول : وأعرفكم أيها الإخوة ، الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا عُلِّمته ، بل بإعلان يسوع المسيح [غلاطية ١ : ١١-١٢] ويقول كذلك عن نفسه إنه الوحيد الذى أؤتمن على المسيحية الصحيحة [تيطس ١ : ٣] وعلى إنجيل مجد الله المبارك [تيموثاوس الأولى ١ : ١١] .

وقد عارضه الحواريون معارضة شديدة ، وهبوا فى وجهه يصارعونه فى عناد طويل مرير ، وحققوا عليه كل نصر ، فانفض الناس من حوله تماماً، ولم يبق معه إلا قلة قليلة جداً ، وهو يقرر ذلك بقوله :

- أنت تعلم أن جميع الذين فى آسيا ارتدوا عنى [تيموثاوس الثانية ١ : ١٥] .

- بادر أن تجيء إلى سريعاً لأن ديماس قد تركنى إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تسالونيكى ، وكريستكيس إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية ، لوقا وحده معى ، إسكندر النحاس أظهر لى شروراً كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله ، فاحتفظ منه أنت أيضاً ، لأنه قاوم أقوالنا جداً ، فى احتجاجى الأول لم يحضر أحد معى ، بل الجميع تركونى

[تيموثاوس الثانية ٤ : ٩-١٦]

وراح بولس يهاجم معارضيه مهاجمة قاسية ، ويصفهم بأنهم انحرفوا إلى كلام باطل ، وأنهم يميلون للحقد وللحسد ، ويتجهون للباطل والرياء والعلم الكاذب والمباحثات الغبية السخيفة . .

[تيموثاوس الأولى الإصحاح الأول والسادس]

ولم تَجدْ أفكار بولس أرضا خصبة فى آسيا ، كما اقتبسنا من كلامه آنفاً ، فلماَ عبرت هذه الأفكار إلى مصر وإلى أوربا وجدت هناك أرضاً خصبة ، فالتثليث ونزول الإله من السماء تضحية بنفسه وتكفيراً عن خطيئة البشر ، وصعوده إلى السماء مرة أخرى ، كل هذا له جذور قديمة فى العقائد المصرية القديمة وفى الخرافات الأوربية ، ولم يكن التوحيد عميق الجذور بأوربا [1] ويقول الدكتور سامى جبرة [2] إن عقيدة الثالوث ترجع إلى أكثر من خمسة عشر قرناً قبل مولد المسيح .

ومر الزمن جيلاً بعد جيل والمذهبان يعيشان ، فى آسيا تعيش المسيحية التى جاء بها عيسى ويعتنقها علماء المسيحية ، وكثيرون سواهم ، وفى أوربا تعيش آراء بولس ، حتى جاء القرن الرابع الميلادى وجاء عهد قسطنطين الذى تسامح مع المسيحية من جانب ، وأراد من جانب آخر أن يضع حداً لهذه الخلافات ، وأن يتعرف على الحقيقة ، فدعا لمؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ وحضره جلة العلماء المسيحيين من كل البقاع ومعهم الأسانيد التى يستندون عليها فى معتقداتهم ، وكان عدد الحاضرين ٢٠٤٨ ، وقد اتضح من أول لحظة أن الجمهرة العظمى من الحاضرين تدين بالمسيحية الحقيقة ، وكان معهم من الأناجيل ما يعضد آراءهم ، ولكن حاشية الامبراطور وهى أوربية لم تكن تعرف عن المسيحية إلا تلك المعلومات السائدة فى أوربا والتى كانت من تراث بولس ، ولذلك رأت هذه الحاشية أن اتجاه الجماهير من حاضرى المؤتمر يتعارض مع الاتجاه الرسمى ، ومع معلوماتهم عن المسيحية ، وعدوا ذلك انحرافاً ، وأثاروا الامبراطور الذى تبنى رأى صديقه الممثل الدينى للغرب ، وَهو كاهن روما ، فأصدر الامبراطور أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحِّدين ، ونفى الكثيرين وقتل العالم المصرى أريوس الذى

(١) رءوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية ص ١ .
(٢) فى رحاب المعبود توت ص ٢٤ .

كان يتخذ التوحيد عقيدة له ، ثم أمر بعقد المؤتمر من الأعضاء الذين يتخذون مذهب بولس أو من الخائفين ، والمترددين ، وكان عددهم ٣١٨ واتخذ هؤلاء قراراً بألوهية المسيح ، وكان هذا أساساً للمعتقدات الأخرى التى قال بها بولس ، واتخذ المؤتمر كذلك قراراً بتدمير كل الوثائق التى تخالف هذا الرأى ، وإنزال العقوبات الشديدة بمن يخفى تلك الوثائق ، وتبعا لذلك اختفت المسيحية الحقيقية رويداً رويداً واختفت الأناجل الصحيحة ، وحلت المسيحية البولسية محل مسيحية عيسى .

وهكذا صنع هؤلاء الإله ، وأخفوا إنجيل عيسى ، والأناجيل الحقيقة التى أخذت عنه ، ولم يبقوا من المصادر المسيحية إلا ما يؤيد اتجاههم أو ما يقف موقفاً سلبياً ، ولعل ذلك يوضح قصة التفكير المسيحى فى قضية الألوهية .

الله فى الفكر الإسلامى :

إن حديثنا عن «الله فى الفكر المسيحى» تلخيص لدراسات واسعة ، ولكنا لا نحتاج عندما نتحدث عن «الله فى الفكر الإسلامى» إلى أى تلخيص لأن الموضوع واضح تمام الوضوح ولذلك فنحن نحيل القارئ إلى كتاب «الإسلام» من هذه السلسلة ليرى دراسة واضحة حول وجود الله ووحدانيته وصفاته ، وليتأكد أن محاولات الانحراف فى الإسلام باءت بالفشل .

نتيجة المقارنة :

إن المقارنة السابقة توضح حقيقتين مهمتين :

الحقيقة الأولى : أن جهود الانحراف اتجهت بكل قواها وشرورها إلى الله سبحانه وتعالى ، وحققت ـ للأسف ـ فى هذا المجال ما أرادته من نجاح ،

والقارئ يرى اتجاه التعدد فى الهندوسية وتأليه البقرة ، ويرى كذلك تأليه جينا وتأليه بوذا وتأليه العجل وتأليه السيد المسيح ، وقد اتجهت المحاولة كذلك للإسلام فقال قوم من مدعى التشيع بتأليه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وحاربها على نفسه [1] ، وحاربها بعده كل المسلمين ، فنجا الإسلام وحده من محاولات التحريف فى عقيدة الألوهية .

الحقيقة الثانية : أن الانحراف بالأديان هو الذى سبب الصراع بين معتنقيها ، ولو سارت الأديان سيرها الطبيعى كرسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعاً فى أهدافها وفى كثير من وسائلها .

إن الدعوة التى ننادى بها هى أن نعود للحق ، وأن نخلّص معتقدات البشرية مما تسرب لها من أخطاء وما قادها للانحراف ، ليحل الوفاق محل الخلاف ، والوئام محل الصراع ، ونحن نعتقد أن العقيدة الصحيحة معروفة لكثيرين من قادة الأديان ، ولكن الاحتراف وحُبٌّ الدنيا وزينتها يُزيّنان الباطل ويدفعان لتأييد الانحراف .

فاللهم اهدنا سواء السبيل

---

(١) انظر هذه المسألة فى «أديان الهند» ص ٩٨ ، ٩٩ .

ثبت المراجع

ملحوظتان :

١ـ المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، أما المصادر الأخرى التى أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٢ـ الطريقة التى اتبعت فى تنظيم هذه القائمة بنيت على الترتيب الأبجدى لاسم المؤلف الذى اشتهر به ، مع عدم اعتبار الملحقات (ابن ـ الـ) .

١ـ القرآن الكريم

من الكتب المقدسة لدى الهنود :

٢ـ الويدا .

٣ـ مهابهاترا .

٤ـ كيتا .

٥ـ يوجاراستها .

٦ـ رامايانا .

٧ـ منودهر ماسترا .

٨ـ لليتاوشنار .

٩ـ ويدانت .

١٠ـ الأساطير الهندية

١١ـ حقائق عن الهند

١٢ـ الهجرات الآرية

١٣ـ الهند والغرب .

١٤ـ هداة الإنسانية فى الشرق (دراسة لمجموعة من الباحثين) .

١٥ـ ثقافة الهند (أعداد كثيرة من هذه المجلة الحافلة بالأبحاث القيمة) .

١٦ـ دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم (تاريخ الفلسفة) .

١٧ـ بروفسور أتريا : ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية .

١٨ـ Yogawasistha and its Philosophy : Atreya

١٩ـ دكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى (عشرة مجلدات) .

٢٠ـ دكتور أحمد شلبى : سلسلة مقارنة الأديان (الأجزاء الأخرى) .

٢١ـ دكتور أحمد شلبى : المجتمع الإسلامى .

The History of Buddhist Thought : Edward Thomas ـ٢٢

The Life of Buddha as Legend : Edward Thomas and History ـ٢٣

Religions of the World : Berry ـ٢٤

Buddhism in China : Cbao pu Chu ـ٢٥

The Buddh's Philosophy : G. F. Allen ـ٢٦

٢٧ـ حامد عبد القادر : بوذا الأكبر

٢٨ـ ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل

٢٩ـ حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى (ملخص عن الإنجليزية) .

٣٠ـ رءوف حبيب : كنائس القاهرة القبطية

Buddhism : (Ed.) Richard Card ـ٣١

History of the Worle : Rene Sedillot ـ٣٢

٣٣ـ سامى جبرة : فى رحاب المعبود (توت)

٣٤ـ عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

٣٥ـ عباس العقاد : الله

٣٦ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد

٣٧ـ عبد المنعم النمر : تاريخ الإسلام فى الهند

٣٨ـ غوستاف لوبون : حضارة الهند

A. Popular History of Philosophy : Kaunitz ـ٣٩

Hinduism : (Ed.) Leuis Renou ـ٤٠

٤١ـ محمد عامر الأنصارى : آسوكا الامبراطور الهندى العظيم

٤٢ـ محمد فاضل : الخراب فى صدر البهاء والباب .

٤٣ـ مولانا محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة .

٤٤ـ محمد على حافظ : الحياة فى رأى الآريين

٤٥ـ محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين

٤٦ـ محيى الدين الألوائى : الأدب الهندى المعاصر

A. Short History of the World : H. G. Wells ـ٤٧

The Outline of History : H. G. Wells ـ٤٨

The Peoples and Religions of India : Weech and Rylands ـ٤٩

٥٠ـ يوجى راما شاركا : فلسفة اليوجا